رفعه
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

إِغَاثَةُ الأُمَّةِ بِكَشْفِ الغُمَّةِ

لتقى الدين أبى العباس أحمد بن على المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥هـ

دراسة وتحقيق

الدكتور كرم حلمى فرحات

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ / ٢٠٠٧م

عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
ÊIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

إِغَـاثَةُ الأُمَّـةِ بِكَشْفِ الغُمَّةِ

لتقى الدين أبى العباس أحمد بن على المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥هـ

دراسة وتحقيق
الدكتور كرم حلمى فرحات

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ / ٢٠٠٧م

عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

المستشارون

د. أحمد إبراهيم الهوارى

د. شوقى عبد القوى حبيب

د. قاسم عبده قاسم

المدير التنفيذى :

شريف قاسم

مدير الانتاج :

جمال عابد

تصميم الغلاف : منى العيسوى

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع. تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher: EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
5, Maryoutia St., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693
E-mail : dar_Ein@hotmail.com
book ein @ yahoo.com
web site: WWW.Dar -Ein.com ...... الموقع الالكترونى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى .. وبعد

كم أكون سعيداً وأنا أخطُّ سواداً في بياضٍ عن هذا الوطن المُفدّى الذى إذا ذُكر ذُكر الأمن والأمان ، وذكر الخير والنماء ، مصر التى أشرقت شمسها على العالم ، ولاتوجد مؤسسة علمية أو مركز علمى فى العالم إلا وفيه مصرى يثبت للدنيا أن مصر بلد العلم والعلماء .

فما أسعدنى اليوم وأنا بصدد هذا العمل العلمى ، وهو الدراسة والتحقيق لعالم مصرى جليل هو الإمام أحمد بن على المقريزى ت ٨٤٥هـ ، وكتابه العظيم « إغاثة الأمة بكشف الغمة » . وقبل أن أتناول هذه الدراسة لابد من مداخلة تبين زعامة مصر للمدارس التاريخية فى عصر هذا العالم الجليل .

فبعد أن كانت بغداد هى القطب الأكبر سياسيًا وثقافيًا ، فقد انتهى دورها لترثها القاهرة حتى فى خلافتها العباسية ، كما ورثت القاهرة أيضًا زعامتها للمدارس التاريخية الإسلامية، وعلى الرغم من التدهور الثقافى العام الذى يعكس حال حضارة وصلت إلى أقصى نموها وتطورها، وعندما بدأت تستقر لتجنى ثمار انجازاتها الثقافية والفكرية فوجئت بالهجمات الصليبية أولاً ، فالمغولية ثانيًا ، مما هدد وجودها ذاته ، الأمر الذى جعل النشاط الثقافى موجهًا نحو الحفاظ على التراث الفكرى المجيد أكثر من نحو المشاركة فى إثراء هذا التراث ، فابتعد عن الابتكار والتجديد والإبداع ليصبح التجميع والتأليف الاجترارى والشروح وشروح الشروح هو السّمة الملازمة لهذا النشاط ، إلا أن حركة التدوين التاريخى كانت مزدهرة بشكل لافت للنظر حيث وصلت الكتابة التاريخية فى العصر المملوكى إلى أرقى مستوى وصلت إليه فى تاريخ الفكر العربى الإسلامى ، لقد كان هذا العصر بمثابة المعرض الحىّ لمدى التنوع والثراء الذى وصل إليه االتدوين التاريخى ، ومن بين مؤرخى العصر المملوكى يقف الإمام المقريزى عالى الرأس ، عملاقًا لا يدانيه أى مؤرخ آخر .

لقد ظهر توسع المنظور التاريخى فى مصر المملوكية فى الاتجاه الحضارى ، فإذا كانت كثرة التفاصيل التى يوردها المؤرخون فى تواريخ الأحداث السياسية ، وفى كتب التراجم والرجال قد أدخلت فى التاريخ بصورة غير مباشرة العديد من ملامح التاريخ الحضارى ، فإن ذلك لم يكن المجال الوحيد الذى سجل المؤرخون من خلاله جوانب الحضارة فى عصورهم ، فقد طرقوا مواضيع مختلفة وجوانب شتى من القطاعات الاجتماعية، كانت تصب كلها بصورة مباشرة أو غير مباشرة فى الإطار الحضارى ، وإننا لنجد عدداً واسعًا من المواضيع المطروقة المتنوعة مثل التعليم السياسى والتعليم الديوانى والتعليم العسكرى ، وبعض القطاعات أو الطبقات الاجتماعية ، ومواضيع تتصل بالمواقع وخططها وفضلها ، ومواضيع تتصل ببلاد العالم الأخرى ، ومواضيع تتصل بالحياة العامة للناس مثل ما كتب الإمام المقريزى كتاب " إغاثة الأمة بكشف الغمة " الذى نحن بصدد تحقيقه والحديث عنه وغيره من الكتب .

وما من شك فى أن الإمام المقريزى فى جميع هذه النواحى الحضارية يقف فى طليعة مؤرخى مصر فى العهد المملوكى ، وقد ظهر ذلك فى تراثه التاريخى كله ، فهو عميد لا يدانيه أحد من المؤرخين فى مصر منذ العصور الوسطى حتى الآن ، وكتبه العظيمة التى خلّفها لنا تمثل عيونًا بين الكتب التى أخرجت للناس فى التاريخ المصرى ، ونخص من بين هذه الكتب كتاب " إغاثة الأمة بكشف الغمة " الذى يمتاز موضوعه بالتفرد من حيث التناول والتحليل ، مما يدل على تفوق الإمام المقريزى ، إذ يتناول تاريخ المجاعات التى نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى سنة ٨٠٨هـ وهى السنة التى ألف فيها هذا الكتاب .

لذلك نستطيع أن نحكم بأن الإمام المقريزى هو المؤرخ المصرى الوحيد الذى تعرض بالبحث لتلك الناحية الاقتصادية الاجتماعية من تاريخ مصر ، فهو فى تدوينه لأخبار المجاعات يحاول أن يتقصى أسبابها ، ويقترح العلاج الاقتصادى الصحيح لدرئها ودوائها ، كما أنه يتناول طبقات المجتمع المصرى فى عهده بالتقسيم والتصنيف ، ويصف كل طبقة من طبقاته بشئ من التفصيل ، مما يعكس لنا مدى أهمية هذا الكتاب التى تقصر عنها الكتب الأخرى الكبير منها والصغير ، فهو يلقى الضوء على شىء من هوية صاحبه ، ويوضح الطريق لفهم الحالة الفكرية فى مختلف العصور ، ويحوى بين جنباته جرأة المقريزى على الإدلاء بآرائه فى نظم الحكم وقواعده ، ويحاول أن يعلل بعض الظواهر تعليلاً عقليًا ، ويناقش بعض العيوب نقاشًا حرًا .

لقد تضمن هذا الكتاب قيمة اقتصادية واجتماعية وذلك من خلال الآراء والنظريات التى سبق بها عصره بكثير ، كحديثه عن المجاعات والأوبئة التى أصابت مصر وأهلها ، والدراسة الناقدة باعتبار هذا الكتاب دراسة ناقدة تحليلية يغلب عليها الطابع الاقتصادى الاجتماعى ، فيرجع الأزمات الاقتصادية التى تحل بالبلاد إلى الأوضاع القائمة فى الدولة والتصرفات السيئة التى تصدر عن الحكام ، فيحللها المقريزى تحليلاً اقتصاديًا يجمع بين العمق والإيجاز ويشرح ما لها من آثار اقتصادية واجتماعية ، مما يجعل من كتابه هذا ظاهرة فكرية لها أهميتها وخطورتها فى عصر سلاطين المماليك .

مازال هذا الكتاب مرجعًا لا غنى عنه لكل مَنْ يريد أن يرتاد تلك الفكرة ، وذلك بسبب ندرة هذا الكتاب ، وانفراد الإمام المقريزى بهذا الموضوع وبالمنهج الذى سلكه فى تأليفه له ، وهذه الندرة هى التى دعتنى إلى الوقوف أمامه وعمل دراسة علمية عنه وعن الإمام المقريزى .

لقد جاء هذا العمل العلمى الذى نحن بصدده الآن - الدراسة والتحقيق - مشتملاً على قسمين ، القسم الأول عبارة عن دراسة وافية للإمام المقريزى وكتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » ، وقد اشتمل هذا القسم على ثمانية مباحث تناول المبحث الأول نشأة الإمام واشتغاله بالعلم ، والثانى عن وظائف الإمام المقريزى ومناصبه ، والثالث عن تقييم لمؤلفاته التاريخية ، والرابع عن تسمية الكتاب وأهميته ، والخامس عن مصادر الكتاب وطرق الإسناد إليها ، والسادس عن المنهج التأريخى عند المقريزى ، والسابع عن النقد التأريخى عند الإمام المقريزى ، والثامن عن وصف المخطوطة المعتمدة فى التحقيق وعملى فى هذا التحقيق.

أما القسم الثانى ، فهو تحقيق كتاب " إغاثة الأمة بكشف الغمة " وفق منهج علمى أجمع عليه كثير من المحققين لكتب التراث . ثم ختمت هذا العمل العلمى بعمل العديد من الفهارس العلمية التى تخدم هذا العمل وتخدم الباحث والقارئ ، فجاءت على النحو التالى : فهرس الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والأعلام ، والأماكن والبلدان ، والأوزان والنقود والمحاصيل ، والكتب المستخدمة فى الدراسة والتحقيق ، وفهرس الموضوعات .

وفى نهاية مقدمتى هذه احتسب هذا العمل عند الله عز وجل ، وأسأله سبحانه وتعالى أن يعلمنى ما ينفعنى ، وأن ينفعنى بما علمنى ، وأسأله سبحانه وتعالى أن يحفظ مصر وأهلها من كل سوء ، وأن يجعلها آمنة مطمئنة وسائر بلاد المسلمين . آمين.

د. كرم حلمى فرحات أحمد

القسم الأول

دراسة المؤلف وكتابه
« إغاثة الأمة بكشف الغمة »

المبحث الأول : نشأة المقريزى واشتغاله بالعلم.

المبحث الثاني : وظائف المقريزى ومناصبه .

المبحث الثالث : مؤلفات المقريزى .

المبحث الرابع : تسمية الكتاب وأهميته .

المبحث الخامس : مصادر الكتاب وطرق الإسناد إليها.

المبحث السادس : منهج التأليف التأريخى عند المقريزى .

المبحث السابع : النقد التأريخى عند المقريزى .

المبحث الثامن : وصف المخطوطة والعمل فى التحقيق.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

المبحث الأول

نشأة المقريزى واشتغاله بالعلم

اسمه وكنيته ونسبته ولقبه :

هو أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد بن أبى الحسن بن عبد الصمد التقى بن العلاء بن المحيوى الحسينى العبيدى ، ويلقب بتقى الدين، ويُعرف بالمقريزى ، ويكنى بأبى العباس ، فهو العالم والمؤرخ واللغوى والأديب والمحدث والمحتسب ، ويرجع اسم المقريزى الذى يُعرف به ويشتهر به إلى حارة المقارزة ، إحدى حارات مدينة بعلبك ، والتى جاءت منها أسرته إلى مصر حديثًا فى حياة أبيه (علىّ)[1] .

مولده ونشأته :

وُلد تقى الدين أبو العباس أحمد بن على المقريزى فى القاهرة عام ٧٦٦هـ / ١٣٦٦م فى حارة برجوان ، والمقصود بالحارة الفندق أو الخان أو الوكالة على حدّ المصطلح المصرى فى العصور الوسطى ، وهى أعظم حارات القاهرة حيوية وامتلاءً بالصخب وضوضاء العمران والحياة [2].

١- انظر ترجمته فى : المنهل الصافى ، لابن تغرى بردى أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين ت ٨٧٤ هـ ٣٩٤/١ ، طبعة القاهرة ١٩٥٦م ، والضوء اللامع فى علماء القرن التاسع ، لشمس الدين أبى الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوى ت ٩٠٢هـ ٢٢/٢ ، طبعة مصر ١٩٣٦م ، وشذرات الذهب ، لابن العماد الحنبلى ٢٥٥/٧ ، طبعة المكتب التجارى ، بيروت بدون تاريخ ، وحسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر ت ٩١١هـ ٣٢٠/١ ، طبعة القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٨م ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان ١٨٤/٣ - ١٨٦ ، طبعة دار الهلال القاهرة ١٩٥٨م .

٢ - انظر الخطط المقريزية ، للإمام المقريزى ٤٠٤/٢ - ٤٠٥ طبعة القاهرة ١٣٢٥هـ ، وطبعة مكتبة العرفان - بيروت ، بدون تاريخ .

لقد نشأ المقريزى نشأة طيبة ، فى بيئة حضارية لها طابعها الذى يختلف كثيراً عن البيئة التى عاش فيها أجداده فى مدينة « بعلبك » ، ولكن الإمام المقريزى كان يعتز دائمًا ويفخر بأنه وُلد بين جنبات القاهرة ، وفى حىّ من أكثر أحيائها امتلاءً بالنشاط والحيوية ومملوءاً بالنشاط الاجتماعى والاقتصادى المتنوع ، وقد ذكر المقريزى عن سوق حارة برجوان التى ولد ونشأ فيها أنه أعظم أسواق القاهرة " ما برحنا ونحن شباب نفاخر بحارة برجوان سكان جميع حارات القاهرة "[1].

تلك القاهرة التى كانت مقصد كل معسر أو طموح ، قد وصفها الرحالة ابن بطوطة بأنها " أم البلاد المتناهية فى كثرة العمارة ، المتباهية فى الحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط الضعيف والقادر " [2]، وكان جد المقريزى من كبار المحدثين فى بعلبك ، وقد تحول والده إلى القاهرة ، حيث ولى بعض وظائف القضاء ، وكتب التوقيع بديوان الإنشاء ، ونشأ ابنه أحمد معه فى القاهرة بحارة برجوان ، ومات أبوه وهو صغير فكفله العالم الجليل ابن الصايغ[3] وكان جده لأمه ، فكفل تعليمه وأشرف على تنشئته وفق مذهبه الحنفى [4].

هكذا نشأ المقريزى نشأة دينية علمية ، وأتاحت له ظروفه أن يرضى طموحه العلمى فتتلمذ على مجموعة من كبار علماء وشيوخ عصره الذين عجت بهم القاهرة والتقى بكثير من العلماء، فنشأ نشأة حسنة ، فحفظ القرآن الكريم ، وسمع جده لأمه ابن الصايغ الحنفى وغيره، وعرف النحو والفقه والتفسير والحديث وبعض العلوم .

نشأ المقريزى فى أسرة معروفة أجيالها بالاشتغال بالعلم سواء فى الشام أو فى مصر ، أى أنه شهد حوادث عصره من زاوية أبناء الفئة الفكرية من الطبقة الوسطى : هذه الحوادث فى مجموعها نوبات احتضار وأفول فى دولة مملوكية ذات بطولات شامخة سالفة، وأمجاد ماضية ملأت عين التاريخ فى الشرق والغرب ، ولعشرين سنة ، هى سنوات طفولته ومراهقته وشبابه ، غير أنه توفى سنة ٨٤٥هـ .

١- الخطط المقريزية ، للمقريزى ٢/٩٥ طبعة بولاق .

٢ - رحلة ابن بطوطة ، لأبى عبد الله اللواتى المعروف بابن بطوطة ص ٣٦ ، طبعة دار صادر بيروت .

٣ - هو تقى الدين عبد الله بن محمد بن الصايغ المتوفى سنة ٧٧٨هـ ، انظر شذرات الذهب لابن العماد ٦/٢٥٧.

٤ - الضوء اللامع ، للسخاوى ، ٢/٢١ .

مذهبه الفقهى :

فى بداية تعليم المقريزى مبادئ وأساسيات العلم ، خاصة قبل وفاة والده سنة ٧٨٦هـ نشأ وتمذهب على المذهب الحنفى ، وهو مذهب جده لأمه الذى أشرف على تربيته وتعليمه العالم الجليل ابن الصايغ ، وبعد وفاة والده كان قد جاوز سن العشرين من عمره فتحول إلى المذهب الشافعي ، واستقر منذ ذلك الوقت على مذهب الشافعية ، وكانت ظاهرة التحول من مذهب إلى آخر منتشرة بين المعاصرين ، ولها أهميتها وخطورتها فى حياة الفرد ، وبخاصة إذا كان من المشتغلين بالعلم أو المتولين وظائف الدولة (١).

شيوخه :

لقد أكثر الإمام المقريزى من الشيوخ الذين سمع منهم ، وأخذ عنهم ، إكثاره من حفظ القرآن والحديث وجمعه وتدوينه وغيرهما من العلوم كالنحو والفقه والتفسير ، والتاريخ وتقويم البدان والحساب والأدب فأجاد النثر والنَّظم ، وقد بلغ عدد شيوخه سواء فى القاهرة وغيرها من البلدان التى رحل إليها طلبًا للعلم ستمائة شيخ ، مما توفر له التكوين الثقافى اللازم للبروز فى عصره ، وكان أكثر شيوخه تأثيراً فيه أولهم ابن الصايغ فى مرحلة النشأة ، وآخرهم العلامة ابن خلدون الذى عرفه فى مرحلة النضج (٢).

ومن أهم هؤلاء الشيوخ على سبيل المثال لا الحصر :

* شمس الدين محمد بن محمد المعروف بابن الصايغ ، وهو جد المقريزى لأمه وكافله ومربيه بعد وفاة والده ، كان مبرزاً فى القراءات السبعة وقرأ عليه خلق كثير ورحلوا إليه ، توفى سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م (٣).

* الشيخ برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم الأموى الفقيه الحنبلى أحد أصحاب الإمام ابن تيمية ، توفى سنة ٧٩٧ هـ (٤).

١- الضوء اللامع ، للسخاوى ٢/ ٢١ .

٢- التاريخ العربى والمؤرخون ، لشاكر مصطفى ٣/ ١٤٠.

٣- الضوء اللامع ، للسخاوى ٢/ ٢٢ .

٤- النجوم الزاهرة ، لابن تغرى بردى ١٢/ ١٤٣ .

* زين الدين العراقى أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن العراقى الكردى المهرانى الشافعى ، ولد سنة ٧٢٥هـ ، وتوفى سنة ٨٠٦هـ ، وكان حافظ الوقت ، سكن مصر ورحل إلى دمشق وحلب والحجاز مرات وولى قضاء المدينة [١].

* الهيثمى أبو الحسن نور الدين على بن أبى بكر بن سليمان الشافعى المعروف بابن حجر الهيثمى المتوفى سنة ٨٠٧هـ وقد رحل وسمع وحج وصنّف ، ومن مصنفاته : ترتيب كتاب الثقات للعجلى على حروف المعجم [٢].

* السراج البلقينى ، شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى ابن رسلان الكتانى الشافعى، ولد سنة ٧٢٤هـ وتوفى سنة ٨٠٥هـ ، وقد حضر الخليفة المتوكل والقضاة الأربعة جنازته ، وكان عالمًا فى الأصول والفروع وله مصنفات كثيرة منها : محاسن الاصطلاح فى الزيادة على كتاب ابن الصلاح ، ومنها شرح الترمذى وكان علاّمة القاهرة على الإطلاق[٣].

* ابن الملقن : أبو حفص سراج الدين عمر بن أحمد بن محمد الأنصارى الأندلسى الأصل المصرى الشافعى ولد سنة ٧٢٣هـ وتوفى سنة ٨٠٤هـ ، وكان بارعًا فى الفقه والأصول والتاريخ والرجال [٤].

* ابن دقماق : صارم الدين إبراهيم بن محمد بن شمس الدين أيدمر بن دقماق العلائى الحنفى المصرى ولد فى حدود سنة ٧٥٠ هـ وتوفى سنة ٨٠٩ هـ ، تخصص فى التاريخ وترك فيه عدداً وافراً من المؤلفات عالج فيها التاريخ السياسى والتراجم والسير على السواء، من كتبه " الانتصار لواسطة عقد الأمصار "الذى يحمل معلومات عامة عن مصر تاريخية وجغرافية معًا [٥].

١- الإعلان بالتوبيخ ، للسخاوى ص ٧٠٢ ، طبعة العلمى بيروت .

٢ - شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ٧/ ٧٠ .

٣ - أنباء الهصر فى أبناء العصر ، لابن الصيرفى على بن أدهم بن إبراهيم ت ٩٠٠ هـ المعروف بابن الخطيب الجوهرى ، تحقيق حسن حبشى ، دار الفكر العربى ، مصر ١٩٧٠م ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١٢/ ١٦٩.

٤ - الضوء اللامع ، للسخاوى ٦/ ١٠٠ - ١٠٥ ، وحسن المحاضرة للسيوطى ١/ ٢٤٩ .

٥ - التاريخ العربى والمؤرخون ، لشاكر مصطفى ٣/ ١٣١ - ١٣٣ .

* ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن عبد الرحمن بن خلدون وقد عرفه المقريزى فى مرحلة النضج وكان أكثر شيوخه تأثيراً فيه ، والحقيقة أن المقريزى تأثر بابن خلدون وبمقدمته تأثراً فاق حد الإعجاب ، إعجاب التلميذ بأستاذه ولا غرابة ، فقد ربطت بين الرجلين صداقة متينة حملت المقريزى على أن يصف المقدمة بأنها : "لم يُعمل مثلها ، وإنه لعزيز أن ينال مجتهد منالها ، إذ هما زبدة المعارف والعلوم ونتيجة العقول السليمة والفهوم ، توقف على كنه الأشياء وتعبر عن حال الوجود ، وتنبىء عن أصول كل موجود " [١].

وقد توفر للإمام المقريزى بفضل هؤلاء الأساتذة وغيرهم من الأشياخ الذين بلغ عددهم ستمائة شيخ ، التكوين الثقافى اللازم فى عصره ، وقد انكب على الدرس والتحصيل تحت إرشادهم وأظهر نجابة وقدرة كبيرة .

رحلاته العلمية :

سنّ الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ، والتابعون من بعدهم الرحلة فى طلب العلم ، اقتداءً برسول الله ﷺ : من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهّل الله له طريقًا إلى الجنة " فأصبح ذلك من آداب طالب العلم ، ولم يكتف بالأخذ عن شيوخه بالقاهرة ، بل كانت له رحلات علمية بين القاهرة والشام ومكة ، وذلك نظراً لنشأته الدينية والعلمية ، تلك النشأة التى أتاحت له أن يرضى طموحه العلمى فى القاهرة فتتلمذ على يد مجموعة من كبار علماء وشيوخ عصره ، ولم يكتف بذلك فتنقل خارج القاهرة ومصر ، حيث التقى بكثير من العلماء ، يقول السخاوى فى ذلك : نشأ المقريزى بالقاهرة نشأة حسنة ، حفظ من خلالها القرآن الكريم ، وسمع جده لأمه ابن الصايغ الحنفى ، والبرهان الآمدى ، والعزّ بن الكويك ، والنجم المجد ، والبلقينىَ ، والعراقى ، والهيثمى ، والفرسيسى وغيرهم ، ثم رحل بعد ذلك إلى مكة لأداء فريضة الحج فسمع بمكة من النشاورى والأميوطى ، والشمس بن سكر وأبى الفضل النويرى القاضى ، وسعد الدين الأسفراييني ، وأبى العباس بن عبد المعطى ، وأجاز له الأسنوى والأذرعى ، وأبو البقاء السبكى ، وعلى بن يوسف الزرندى ، وآخرون .

ثم رحل إلى الشام فسمع من الحافظ أبى بكر وأبى العباس بن العز ، وناصر الدين محمد بن محمد بن داود ، وطائفة [١].

١- الضوء اللامع للسخاوى ٢/٢٤ ، ٤ / ١٤٤ .

٢ - الضوء اللامع للسخاوى ٢ / ٢١ .

ثم استقر بعد ذلك بالقاهرة ، حيث أمضى بقية حياته الطويلة فى المكان الذى نشأ فيه وتربى فيه وبدأ فيه حياته الدينية والعلمية فى حارة برجوان ، وجعل من بيته مدرسة صغيرة لتلاميذه ، وجعل منها أيضًا مكانًا للتأليف فى مختلف نواحى دراسته ، فأخذ يعلم الناس فنون العلم ، ويثرى المكتبة العلمية بمصنفاته العظيمة .

زواجه :

تزوج الإمام المقريزى زوجة لا نعرف عنها شيئًا ، وأنجب منها ، وكانت له ابنة ، ماتت وهى فى سن السادسة بالطاعون سنة ٨٠٨هـ ، هذا الطاعون الذى اجتاح القاهرة وسائر البلاد المصرية ، وهو الذى دفع الإمام المقريزى إلى كتابة كتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » ، وكان ذلك فى أوائل عهده بالتأليف ، كما يبدو من محتوياته مدى تأثير شيخه ابن خلدون فيه خاصة فى التكوين التفكيرى .

وقد أجمع المعاصرون للمقريزى على أنه عاش رجلاً فاضلاً دينيًا ، مجداً أمينًا فى عمله حتى أن السخاوى مع شدته فى نقد كتاب المواعظ والاعتبار يقول : إن المقريزى كان على جانب عظيم من حسن الخلق وكرم العهد ، وكثرة التواضع وعلو الهمة لمن يقصد ، والمحبة فى المذاكرة ، والمداومة على التهجد والأوراد وحسن الصلاة ومزيد الطمأنينة والملازمة لبيته [١].

اشتغاله بالعلم :

عكف الإمام المقريزى على الدراسة التقليدية لأبناء طبقته ، وهى دراسة علوم الدين وحفظ القرآن ومعرفة النحو ، ودراسة الفقه والتفسير والحديث ، وبعض العلوم الأخرى مثل التاريخ وتقويم البلدان والأدب والحساب .

لقد آثر المقريزى التفرغ للاشتغال بالعلم ، لذلك هجر دمشق بعد أن أقام بها عشر سنوات، " وعاد إلى القاهرة فأقام بها عاكفًا على الاشتغال بالتاريخ ، حتى اشتهر به ذكره وبَعُد فيه صيته" [٢]، وكان يضطرم شغفًا إلى البحث والكتابة ، وأنفق الأعوام فى التنقيب فى مختلف المصادر التى استطاع أن يصل إليها سواء فى القاهرة أو دمشق أو مكة ، وكانت توجهه فى

١- التبر المسبوك ، للسخاوى ص ٢٢ - ٢٣ طبعة مكتبة الكليات الأزهرية - مصر بدون تاريخ .

٢ - الضوء اللامع للسخاوى ٢/ ٢١ - ٢٢ .

درسه وبحثه عاطفة قومية ، ظهر أثرها فيما بعد فيما اختاره ميدانًا أساسيًا لنشاطه . وهذه الظاهرة كلٌ فى الظهور فى شغفه باستقصاء ما استقصى عن تاريخ مصر ومجتمعاتها من الحقائق الفريدة [١].

١- مؤرخو مصر الإسلامية ، محمد عبد الله عنان ، ص ٨٨

المبحث الثانى

وظائف المقريزى ومناصبه

مكانته عند السلطان :

حظى الإمام المقريزى بمكانة خاصة عند السلطان الظاهر برقوق (١٣٨٢ - ١٣٩٩م) وابنه السلطان فرج بن برقوق (١٣٩٩ - ١٤٠٥م) من بعده ، وتوثقت الصلة بينه وبين الأمير يشبك الدوادار ، ونال فى ظله جاهًا ومالاً [١].

وظائفه ومناصبه:

عُيِّن الإمام المقريزى مراراً فى وظائف الوعظ ، وقراءة الحديث بالمساجد الجامعة ، وولى الحسبة بالقاهرة غير مرة ، وهى من وظائف القضاء الهامة ، وولى الخطابة بجامع عمرو بن العاص، وبمدرسة السلطان حسن ، والإمامة بجامع الحاكم الفاطمى ، وقراءة الحديث بالمدرسة المؤيدية وغيرها ، وتقلب فى عدة وظائف قضائية وإدارية سواء فى القاهرة أو دمشق [٢].

التحق المقريزى فى بداية حياته بالوظائف العامة ، بعد أن غدا بحكم طبقته وتعليمه من أهل القلم والمعرفة ، وكان أول ما وليه من هذه الوظائف وظيفة موقع - أى كاتب - بديوان الإنشاء بالقلعة ، وهى وظيفة لها أهميتها فى ذلك العصر ، لأنه لا يليها إلا من يتمتع بمواصفات معينة ومستوى راق من العلم والأسلوب ، وظل يعمل موقعًا من سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م[٣]، هذه الوظيفة وقتذاك لا يبلغها سوى أصحاب المؤهلات العالية والموهبة والمعرفة والتفوق فى اللغة والأدب والتاريخ وتقويم البلدان والحساب .

ثم عُيِّن المقريزى بعد ذلك نائبًا من نواب الحكم - أى قاضيًا - عند قاضى القضاة الشافعى بسبب ما اشتهر عنه من الحماسة للمذهب الشافعى منذ أيام دراسته وتحوله عن المذهب الحنفى الذى نشأ عليه .

١- الضوء اللامع للسخاوى ٢٢/٢٢ .

٢- مؤرخو مصر الإسلامية ، محمد عبد الله عنان ص ٨٨

٣- الخطط المقريزية للمقريزى ١٥٦/٣ طبعة بيروت .

وما لبث أن صار المقريزى إمامًا لجامع الحاكم الفاطمى ، وهى وظيفة كبيرة فى ذلك العصر، وتولى بعد ذلك وظيفة مدرس للحديث بالمدرسة المؤيدية ، وربما كان تعيينه فى تلك الوظيفة التعليمية بتوصية خاصة من أستاذه ابن خلدون لدى السلطان برقوق ، كما تولى الخطابة بجامع عمرو بن العاص ومدرسة السلطان حسن . وما أن جاءت سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م حتى اختاره السلطان برقوق فى وظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى[١] فيبدو أن المقريزى حظى بمكانة خاصة عند السلطان برقوق وابنه السلطان فرج بن برقوق ، لذلك ولاه هذه الوظيفة بدلاً من شمس الدين البجاسى ، فانتقل بذلك من دائرة المشتغلين بالعلم والتعليم إلى دائرة الإدارة الحكومية ، والاختلاط بمختلف طبقات المجتمع ، لاسيما أرباب الأسواق والمتاجر وأصحاب المهن والصنائع ، ذلك أن وظيفة المحتسب كانت تشمل النظر فى الأسعار الجارية وأحوال النقد، وضبط الموازين والمكاييل والمقاييس ، ومراقبة الآداب العامة، ونظافة الشوارع وتنظيم حركة المرور بها مع الإشراف على المدارس والمدرسين والطلاب ، والعناية بالمساجد ، والحمامات والقياس والوكالات ، فضلاً عن مراقبة أصحاب الصناعات العالية من الأطباء والصيادلة والمعلمين أى المهندسين المعماريين ، ويضاف إلى هذه الواجبات الكثيرة الداخلة فى اختصاص المحتسب أحوال الباعة الجوالة والمتعيشين والمتسولين والمتعطلين الذين كانوا خطراً على الأمن ، ويتضح من ضخامة هذه الوظيفة ومسؤولياتها أن المقريزى الذي تعيّن بها بأمر من السلطان برقوق لابد أنه اشتهر وقتذاك بالكفاية والدقة فى الإدارة ، والأمانة فى تطبيق الأحكام الشرعية ، وما لبث أن عُزل المقريزى من هذه الوظيفة واستبدل بالقاضى بدر الدين العينى ت٨٥٥هـ فى مستهل ذى الحجة سنة ٨٠١هـ ولكنه أعيد إلى هذا المنصب سنة ٨٠٢هـ[٢].

لم يستقر المقريزى فى هذا المنصب طويلاً هذه المرة إذ عُزل عنه فى السنة نفسها وولى جمال الدين الطبندى الذى يصفه المقريزى بالجهل وسوء السيرة والتهافت على الرشوة[٣]. ولذلك تم عزل جمال الدين الطنبدى وأعيد المقريزى إلى منصبه واستمر به إلى سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م. حيث استبدل بشمس الدين البجاسى[٤] ويبدو أن المقريزى نفسه ضاق بمسئوليات هذا المنصب

١- السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى ٩٣/٣ ، ونزهة النفوس والأبدان لابن الصيرفى ٤٨٦/١ .

٢ - نزهة النفوس والأبدان لابن الصيرفى ٢٠/٢ ، ٤٥ .

٣ - الخطط المقريزية للمقريزى ٢٢٧/٣ - ٢٢٨ .

٤ - نزهة النفوس والأبدان لابن الصيرفى ٢٠١/٢ .

التى شغلت وقته ليلاً ونهاراً وصرفته عن القراءة ، وتطلبت منه الجلوس فى دكة المحتسب للفصل فى شكاوى السوق والسوقة، وتوقيع العقوبات على المخالفين، وإصدار الأوامر إلى العرفاء والأعوان والنقباء ، وفى ذلك الوقت تزوج المقريزى وأنجب ابنته التى ماتت بالطاعون الذى اجتاح مصر سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م[١]. وهذا الطاعون هو الذى أوحى إليه بتأليف كتاب " إغاثة الأمة بكشف الغمة " ، كما دفعه ضيقه بوظيفة المحتسب إلى تأليف كتاب " شذور العقود فى ذكر النقود " وكتاب " الأكيال والأوزان الشرعية " .

وما لبث أن عاد المقريزى فى سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٨م إلى دائرة المشتغلين بالتدريس مرة أخرى حين عيّنه السلطان فرج بن برقوق مدرسًا للحديث بالمدرستين الإقبالية والأشرفية بدمشق مع النظر على أوقاف البيمارستان النورى فيها ، وأوقاف المدرسة القلانسية كذلك ، وما لبث أن عينه السلطان فرج أيضًا نائبًا للحكم بدمشق ، أى قاضيًا ، استيفاء لشرط الواقف أن يكون المتعينون على الأوقاف الدمشقية قضاة بها ، لكن المقريزى رفض قبول منصب القضاء على الرغم من عرض هذه الوظيفة عليه مراراً ، ويظهر أنه سئم الوظائف الحكومية كلية وضاق بتكاليفها وأعبائها ، وأنه ملك من الأملاك عن جده لأبيه بدمشق ، الأمر الذى أغناه عن تضييع وقته فى كسب العيش عن طريق مجالس الحكم والقضاء ، ومهما يكن فقد كانت هذه السنوات الدمشقية من حياته غنية بالإنتاج العلمى ، حيث كتب وصنف خلالها أول مؤلفاته الطويلة وهو كتاب السيرة الذى عنوانه " إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والحفدة والأخوال والأتباع " ، وكذلك كتاب " النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم " .

رحل المقريزى عن دمشق بعد إقامته بها نحو عشرسنوات ورجع إلى القاهرة معتزلاً كل عمل رسمى ليتوفر على الدرس والاشتغال بالعلم ، غير أنه تراءى أن يحج أولاً ، كأنما أراد أن يفصل بين مرحلتين من حياته ، ومن أجل ذلك رحل المقريزى وأسرته حاجًا إلى مكة سنة ٨٣٤هـ / ١٤٣١م التى عرفها قبل ذلك وجاور فيها مدة قصيرة إبان طلبه للعمل ، على أنه ظل مقيمًا بمكة هذه المرة نحو خمس سنوات ، وقد اشتغل فى تلك السنوات المكية من حياته بتدريس الحديث ، وربما يرجع إلى هذه الفترة تأليف كتابه الذى عنوانه " الكلام ببناء الكعبة بيت الله الحرام " ، وكتاب " ضوء السارى فى معرفة تميم الدارى " ، وكتاب " التبر المسبوك

١- إغاثة الأمة بكشف الغمة (مخطوط) الصفحة ٢٦

فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك " ، وكتاب " وصف حضرموت العجيبة " ، وكلها كتب خاصة بمحيط بلاد العرب وأخبارها ، ومن الراجح أيضًا أن الكتاب المسمى " الإعلام بمن فى أرض الحبشة من ملوك الإسلام " يرجع كذلك إلى هذه الفترة المكية .

ثم أراد المقريزى الاستقرار فى مصر مرة أخرى فعاد إلى القاهرة سنة ٨٣٩ هـ / ١٤٣٥م ليستقر بها ، حيث أمضى بقية حياته الطويلة بحارة برجوان التى ما برح منذ شبابه يفاخر بها على غيرها ، ثم إنه جعل من داره بها مكانًا لدراسة تلاميذه وللتأليف الكثير فى مختلف نواحى دراسته[١].

لقد بدأ المقريزى نشاطه العلمى بإكمال كتابه " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " إلى أن توفى سنة ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م وهو محمود السيرة فى حياته الشخصية والوظيفية ، فقد عاش رجلاً فاضلاً دَيِّنًا ، مجداً أمينًا فى عمله على جانب عظيم من حسن الخلق وكرم العهد ، وكثرة التواضع ، وعلوّ الهمة لمن يقصد ، والمحبة فى المذاكرة ، والمداومة على التهجد والأوراد ، وحسن الصلاة، ومزيد الطمأنينة والملازمة لبيته ، حتى حمدت سيرته فى الوظائف التى تولاها قبل أن ينصرف إلى حياة الدرس الخالية [٢].

١- النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢١٨/٨ .

٢ - التبر المسبوك للسخاوى ص ٢٢ - ٢٣ .

المبحث الثالث

تقييم لمؤلفات المقريزى

تشهد مؤلفات الإمام المقريزى على عمق معرفته وسعة اطلاعه وإلمامه بعلوم شتى ، فقد برع فى علوم الدين من فقه وحديث وغيرهما براعته فى الأدب من نظم ونثر ، فضلاً عن مدى إحاطته بالخطط والترجمة والسك والأوزان والمقاييس ومعرفته بعلم الحشرات والمعادن والطب والموسيقى ، ولكن أعظم اهتمامه انصبٌ على التاريخ ، فعرف جزءاً كبيراً منه معرفة تامة ، وحفظ الكثير منه والكثير ، واعتنى بتحقيقه والتصنيف فيه ، حتى زادت مؤلفاته فى التاريخ على نيِّف وثلاثين عنوانًا تراوحت ما بين كتب صغرى هى عبارة عن كتيبات ورسائل ومؤلفات كبرى تتسم بالموسوعية ، الأمر الذى جعل المقريزى يتبوأ مكانة الصدارة بين مؤرخى عصره الذى عاش فيه ، كما قال عنه تلميذه ابن تغرى بردى " وفى الجملة هو أعظم مَنْ رأيناه فى علم التاريخ وضروبه مع معرفتى لمن عاصره من علماء المؤرخين ، والفرق بينهم ظاهر ، وليس فى التعصب فائدة "[1] . فمن المعروف أن المقريزى اختار تاريخ مصر ميدانًا لخير جهوده وأعظمها ، ومع ذلك لم تُحرم نواح أخرى من أن يكتب فيها عدداً من المؤلفات فى غير التاريخ مثل تاريخ النقود العربية ، والبيان المفيد فى الفرق بين التوحيد والتلحيد ، ونحل عبر النحل ، والمقاصد السنية فى معرفة الأجسام المعدنية . كما كتب فى نواح أخرى من تاريخ الإسلام مثل إمتاع الأسماع فيما للنبى من الحفدة والأتباع ، والإلمام بمن فى أرض الحبشة من ملوك الإسلام وغير ذلك .

ولكن تعتبر هذه النواحى وتلك فى الدرجة الثانية أو المحل الثانى من الكتابة عنده ، أما تاريخ مصر وتاريخ نُظمها ومجتمعها وتاريخ شعبها قد خصها المقريزى بمجموعة من نفائس الكتب مثل المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، والسلوك لمعرفة دول الملوك ، وكتاب المقفى وهو سير الأمراء والكبراء الذين عاشوا فى مصر ، واتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء وغيرهم كثير عن مصر . فهذا التراث العظيم من مؤلفاته تراث حافل من

---

١ – النجوم الزاهرة ، لابن تغرى بردى ٢٩٧/٧

حيث مداه ، ولكنه حافل بالأخص من حيث نوعه وطرافته ، حيث فطن المقريزى إلى نواح من تاريخ المجتمعات المصرية المتعاقبة لم يفطن إليها أسلافه لأنه أدرك قيمة هذه النواحى فى تاريخ مصر الإسلامية ، مثل ما كتب حول الخراب الذى حل بمصر فى عصره وأدى إلى إفقار المجتمع المصرى ، فكتب كتابه المشهور « إغاثة الأمة بكشف الغمة » وقد عالج فيه الظواهر والعوامل التى أدت إلى هذا الخراب ، وشرح وعلل وذكر الأسباب إن مثل هذا الكتاب آية فى الابتكار من حيث محتوياته وتفاصيله ،

إن من يتصفح أو يشاهد مؤلفات الإمام المقريزى فإنه يستطيع الحكم بأنها تتسم بسمتين لا ثالث لهما ، الأولى سمة الموسوعية ، والثانية سمة التخصصية .

أما من حيث عرض مؤلفات الإمام المقريزى فسوف أعرضها مرتبة على حروف الأبجدية :

١ - اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا : يعتبر هذا المؤلف أوفى مصدر فى التاريخ الفاطمى ، وقد طُبع هذا الكتاب عدة طبعات ، طبعة نشرها المستشرق بونز سنة ١٩٠٩م وهى ناقصة ، طبعة دار الأيتام بالقدس ، وقدّم لها بمقدمة باللغة الألمانية وقد طِبعها فى " ليبزغ " . وطبعة أخرى بالقاهرة تصحيح وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال سنة ١٩٤٨م وهى طبعة ناقصة من الأصل . وطبعة ثالثة على نسخة كاملة على يد المستشرق كلود كاهن ، ثم أعاد الدكتور جمال الدين الشيال نشر الكتاب على النسخة الكاملة سنة ١٩٦٧م وكان ما أعاد نشره هو الجزء الأول منه ، ثم استكمل هذا العمل بعده الجزء الثانى والجزء الثالث الدكتور محمد حلمى أحمد عامى ١٩٧١ ، ١٩٧٣م.

٢ - إغاثة الأمة بكشف الغمة : وهو كتيِّب صغير يعتبر من خير ما كتب الإمام المقريزى عمقًا وفهمًا ، ويتناول فيه تاريخ المجاعات التى نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م ، وهى السنة التى ألف فيها الإمام المقريزى هذا الكتاب ، وقد طُبع هذا الكتاب فى القاهرة سنة ١٩٤٠م بتحقيق محمد مصطفى زيادة ، وجمال الدين الشيال ، ثم أعيد طبعه سنة ١٩٥٧م ، وطبع طبعة دمشقية عن دار ابن الوليد عام ١٩٥٦م بتحقيق الدكتور بدر الدين السباعى ، وعن مؤسسة ناصر للثقافة فى بيروت عام ١٩٨٠م، ولكن هذه الطبعات المتعددة بالبحث والتمحيص وُجد أنها لم تقدم دراسة وافية عن الإمام المقريزى ومدى تفرده فى حديثه عن الجانب الاقتصادى وأبعاده على الجانب الاجتماعى ، وتحليل الأحداث

والوصول إلى الأسباب التى أدت لمثل هذه المجاعات ، وكذلك لم تقدم دراسة وافية عن الكتاب كما نقدمها نحن خلال هذا العمل العلمى الذى بين أيدينا .

٣ - الإشارة والإعلام ببناء الكعبة والبيت الحرام : ذكر هذا الكتاب الإمام السخاوى ضمن مؤلفات الإمام المقريزى ، وهو مفقود .

٤ - الإلمام بمن فى أرض الحبشة من ملوك الإسلام : كتبه الإمام المقريزى فى مكة سنة ٨٣٩هـ ، وحرره فى مصر سنة ٨٤١هـ بعد تدقيقه ، وقد طُبع فى " بتافيا " مع ترجمة فرنسية سنة ١٧٩٠م ، كما طبع فى القاهرة سنة ١٨٩٥م .

٥ - إمتاع الأسماع فيما للرسول من الحفدة والأتباع: وهو يتحدث عن شمائل النبى ﷺ والنبوات وآل الرسول والسيرة النبوية والهجرة والغزوات ، ومجموعة من الأخبار عن أحوال الرسول وأحكامه وأعماله ودقائق حياته وحديثه ، وتوجد منه نسخة مخطوطة فى كوبرللى باستامبول تحت رقم ١٠٠٤ فى ستة مجلدات ، ومصورة فى دار الكتب المصرية برقم ٨٨٦ تاريخ فى تسعة مجلدات ، وقد قام الأستاذ محمود محمد شاكر بتحقيق الجزء الأول فى سنة ١٩٤١م وطبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة .

٦ - البيان والإعراب عمّا فى أرض مصر من الأعراب : هذا الكتاب يبحث فى القبائل التى سكنت مصر ، وقد تم ترجمة هذا الكتاب إلى الألمانية على يد " ستنفلد" ونشره فى "غوتنغن" سنة ١٨٤٧م فى ثلاثة أجزاء ، وطبع أيضًا فى مصر بتحقيق إبراهيم رمزى ، طبعة دار المعارف سنة ١٩١٦م ، وطبع فى مصر أيضًا عام ١٩٦١م ، بتحقيق عبد المجيد عابدين ، طبعة عالم الكتب .

٧ - البيان المفيد فى الفرق بين التوحيد والتلحيد : هذا الكتاب غير منشور وتوجد منه نسخ مخطوطة عديدة فى تشيستر بتى رقم ١٤٩٦ ، وفى ليدن رقم ٤٥١ ، وفى باريس رقم ٤٦٥٧ ، وفى دار الكتب بمصر .

٨ - تاريخ الجراكسة : وهو مخطوط فى " أوكسفورد " وقد ذكره جرجى زيدان فى كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ١٨٣/٣ ، وهو غير منشور .

٩ - تراجم ملوك الغرب ، وقد ذكر فيه المقريزى أخبار أبى حمو وهو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن ، ومن خلفه على تلمسان من بنى زيان ، ومن هذا الكتاب نسخ مخطوطة ، منها فى ليدن ، وفى فيينا .

١٠ - تلخيص كتاب عجائب المقدور فى وقائع تيمور لابن عربشاه شهاب الدين الأنصارى المتوفى سنة ٨٥٤هـ . وهذا الكتاب أى عجائب المقدور لابن عربشاه يندد فيه بتيمور ، وقد نشره أحمد الأنصارى فى " كلكتا " بالهند من ١٨٨٨م.

١١ - جنى الأزهار من الروض المعطار : وهو موجز لكتاب الروض المعطار للحميرى المتوفى سنة ٩٠٠هـ وهو منسوب إلى المقريزى ، وهذا أمر غير مقبول لأن الحميرى توفى سنة ٩٠٠هـ والمقريزى توفى سنة ٨٤٥هـ فكيف يحدث ذلك؟؟ ، ولكن يُقال أن هذا الكتاب منسوب لأحد أحفاد المقريزى الذى يلقب بشهاب الدين المقريزى لا بتقى الدين المقريزى ، وهذا الكتاب توجد منه نسختان مخطوطتان فى باريس برقم ٤٧٩٧ و ٥٩١٠ .

١٢ - الخبر عن البشر : وهو كتاب فى التاريخ ، مكوّن من أربعة مجلدات وعمل له مقدمة فى مجلد ، توجد منه نسخة مخطوطة فى مكتبة فاتح باستامبول فى ٦ أجزاء بخط المؤلف ، ويوجد منها الجزء الأول مصور فى دار الكتب المصرية برقم (٩٤٧ تاريخ) . ونسخة أخرى فى مكتبة الأزهر برقم ٤٣٩ (٦٧٣٣ أباظة) .

١٣ - درر العقود الفريدة فى تراجم الأعمال المفيدة : وهو فى ثلاث مجلدات ، ترجم فيه المقريزى لأعيان عصره البارزين ومنهم علماء اليمن ، ومن هذا الكتاب نسخة مخطوطة فريدة فى مجلدين عن نسخة المؤلف سن ٨٧٨هـ فى مكتبة آل الجليلى فى الموصل .

١٤ - الدرر المضيئة فى تاريخ الدولة الإسلامية أو الخلفاء حتى نهاية العباسيين : وهو من مقتل سيدنا عثمان بن عفان إلى مقتل المستعصم ونهاية الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ ، ومنها نسخة مخطوطة فى كمبردج برقم Q94 فى ٢٧٣ ورقة كبيرة ، كتبت هذه النسخة بعد عهد المؤلف بقليل .

١٥ - ذكر بناء الكعبة والبيت الحرام : وهو مخطوط فى دمشق بالمكتبة الظاهرية تحت رقم ٤٨٠٥ ، وعدد أوراقه ٧٨ ورقة .

١٦ - ذكر ما ورد فى بنى أمية وبنى العباس من الأقوال : توجد نسخة من هذه الرسالة مخطوطة فى فيينا .

١٧ - الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك : وتوجد من هذا الكتاب عدة نسخ ، منها نسخة فى استامبول فى ولى الدين ضمن مجموع ٣١٩٥ ، ونسخة فى كمبردج

ضمن مجموعة ، وتوجد نسخة أخرى فى المكتبة الأهلية بباريس ضمن مجموعة رقم ٤٦٥٧ ، وقد نشر جمال الدين الشيال الكتاب سنة ١٩٥٤م بالقاهرة .

١٨ - رسالة فى الغناء بعنوان " إزالة التعب والعنا فى معرفة حال الغنا " وهذه الرسالة منها نسخة مخطوطة ذكر جرجى زيدان أنها موجودة فى المكتبة الوطنية فى باريس .

١٩ - رسالة فى الموازين والمكاييل : فى الأوزان والأكيال الشرعية ، ومنها مخطوطة فى " ليدن " ومخطوطة أخرى فى دار الكتب المصرية ، وقد ترجمت إلى الإيطالية وطبعت سنة ١٨٠٠م فى " دوستك " بعناية المستشرق رنك .

٢٠ - سيرة الملك المؤيد ، ذكر السخاوى فى الضوء اللامع أن المقريزى قرض سيرة الملك المؤيد شعراً لمحمد بن ناهض ، وقد عاش ابن ناهض هذا فى مصر وتوفى سنة ٨٤١ هـ / ١٨٤٣م وقد كتب سيرة المؤيد الذى حكم سلطانًا بين (٨١٥ - ٨٢٤هـ / ١٤١٢ - ١٤٢١م)[1].

٢١ - السلوك فى معرفة دول الملوك : وهو كتاب من أبرز كتب المقريزى ، ومن أبرز كتب التاريخ المصرى الوسيط ، أتمَّ به المقريزى سلسلة التواريخ المصرية بجمع وتسجيل أوسع ما وجد من المعلومات حول عصرى الدولتين الأيوبية - والمملوكية من سنة ٥٧٧هـ حتى السنة التى سبقت وفاته سنة ٨٤٥ هـ. وقد طبع هذا كتاب سنة ١٨٣٧ - ١٨٤٥م فى مجلدين بتحقيق كاترمير الفرنسى بباريس ، ثم طبع ونشر فى مصر فظهر الجزء الأول منه سنة ١٩٣٤م بتحقيق محمد مصطفى زيادة ، ثم ظهر الجزء الثانى منه سنة ١٩٥٨م ، ثم ظهر الجزء الثالث والرابع بتحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور مابين سنتى ١٩٧٠ - ١٩٧٣م.

٢٢ - شذور العقود فى ذكر النقود : وهى رسالة نفيسة فى تاريخ النقود العربية الإسلامية ، ولعله أول كتاب مفرد كتب فى هذا الموضوع ، وقد طبع وترجم هذا الكتاب عدة طبعات وترجمات ، فقد نقلت هذه الرسالة إلى الإيطالية وطبعت سنة ١٧٩٧م ، وترجمها المستشرق الفرنسى دوساسى إلى الفرنسية ونشرها سنة ١٧٩٧م ، ثم نشرت فى القسطنطينية بعناية أحمد فارس الشدياق سنة ١٢٩٨ هـ / ١٨٨١م بمطبعة الجوائب ،و وطبعت فى الإسكندرية سنة ١٩٣٣م بعناية ماير ، ثم طبعت فى النجف الأشرف سنة ١٩٣٨م بعناية

---

١ - انظر التاريخ العربى والمؤرخون ، شاكر مصطفى ٣ / ١٥٠ .

محمد صادق بحر العلوم ، ثم طبعت فى القاهرة سنة ١٩٣٩م بعناية الأب انستاس الكرملى مطبعة إلياس الحديثة . ثم طبع مؤخراً بتحقيق رأفت محمد النبراوى - لندن - دار المريخ للنشر سنة ١٩٨٨م.

٢٣ - شارع النجاة : انفرد السخاوى بذكره ، وذكر أنه يشتمل على جميع ما اختلف فيه البشر من أصول دياناتهم وفروعها مع بيان أدلتها ووجه الحق فيها .

٢٤ - الضوء السارى في خبر تميم الداري : وتميم الدارى هو أحد الصحابة الأولين ، استقر فى أرض الخليل بفلسطين وتوفى سنة ٤٠ هـ ، وقد طُبع هذا الكتاب فى مصر بتحقيق محمد أحمد عاشور - القاهرة - ، دار الاعتصام للطبع والنشر ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.

٢٥ - الطرفة الغريبة فى أخبار حضرموت العجيبة : وقد كتب هذه الرسالة أثناء مجاورته فى مكة سنة ٨٣٩هـ ، وقد طبعت مصورة ومشروحة سنة ١٨٦٦م فى " بون " بعناية المستشرق سكوى باللغتين العربية واللاتينية .

٢٦ - عقد جواهر الأسفاط فى أخبار مدينة الفسطاط : وهو فى ذكر ملوك مصر والفسطاط ، ويعتبر أول كتاب كتبه المقريزى فى تاريخ مصر الإسلامى الأول ، ومن هذا الكتاب نسخة مخطوطة فريدة فى برلين ضمن مجموعة خطية تحمل رقم ٩٨٤٥.

٢٧ - معرفة ما يجب لآل البيت من الحق على من عاداهم : وهى رسالة كتبها سنة ٨٤١هـ، ومنها مخطوط فى فيينا ضمن مجموع ، وأخرى فى باريس ضمن مجموع ٤٦٥٧ ، وقفد نشره محمد أحمد عاشور عن دار الاعتصام القاهرة ١٩٧٢م.

٢٨ - منتخب التذكرة فى التاريخ : يقول عنه الإمام المقريزى بأنه كتاب عديم المثال فى جمل التاريخ ، انتخبه من كتابه المسمى " التذكرة " وذكر فيه تاريخ الملوك والأعيان ، ومدة كل منهم ووقت انقضائه وأنسابهم وتلخيص أحوالهم ، وقد بقى من هذا الكتاب مجلد واحد مخطوط هو المجلد الأول من آدم إلى سنة ٢٧٠هـ ، ويقع فى ١٦٦ ورقة ، وهو فى المكتبة الوطنية فى باريس برقم (١٥١٤) .

٢٩ - مختصر الكامل فى الضعفاء : وهو اختصار لكتاب الكامل فى الضعفاء لعبد الله ابن عدى الجرجانى المتوفى سنة ٣٦٥هـ ، ومنه نسخة بخط المقريزى كتب سنة ٧٩٥هـ وهى فى مكتبة مرادملا باستامبول رقم ٥٦٩ فى ٣١٥ ورقة .

٣٠ - مجمع الفرائد ومنبع الفوائد : وهو كالتذكرة تجمع ألوانًا من الأخبار والمواضيع ، قال ابن تغرى بردى[١] " إن المقريزى أكمل منه نحو الثمانين مجلد" ، وقال السخاوى[٢] " إنه يشتمل على علمى العقل والنقل المحتوى على فنى الجدل والهزل ، وقد بلغت مجلداته نحو المائة .

٣١ - المقفى : وهو كتاب فى تراجم أهل مصر والواردين إليها ، حافل فى تراجم الملوك والأمراء والعلماء المصريين أو من عرفتهم مصر من جميع الأقطار ، وقد طبع ونشر أكثر من طبعة ، فقد حققه سهيل زكار وطبع فى بيروت بدار العلم ١٩٧١م ، وحققه محمد اليعلاوى من تونس حولية الجامعة التونسية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية ١٩٨٦م ، وطبع ببيروت اختيار وتحقيق محمد اليعلاوى ، بيروت دار الغرب الإسلامى ١٩٨٧م.

٣٢ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار : فى ذكر خطط مصر والقاهرة وقد طبع هذا الكتاب طبعات عديدة مثل طبعة بولاق بالقاهرة سنة ١٨٥٤م ، وطبعة المطبعة الأهلية - مصر سنة ١٩٠٧م ، وطبعة المعهد الفرنسى بالقاهرة ١٩١١ - ١٩٢٨م ، وطبعة بيروت مكتبة إحياء العلوم ١٩٥٩م ، وطبعة دار التحرير بالقاهرة ١٩٦٨م.

٣٣ - النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم : وهى رسالة صغيرة يبحث فيها المقريزى أمر الفرقة والتنافس على الخلافة بين الأمويين وبنى الهاشميين وقد طبع فى القاهرة أكثر من مرة بمكتبة الأهرام سنة ١٩٣٧م ، وبالنجف بالمطبعة العلمية ١٩٤٩م ، وطبعة أخرى بالنجف ١٩٦٦م.

٣٤ - نحل عبر النحل وما فيه من غرائب الحكمة : وهو كتاب أو نموذج لاهتمامات المقريزى بالناحية العلمية ، وقد طبع بالقاهرة بتحقيق جمال الدين الشيال سنة ١٩٤٦م.

من خلال ما سبق من عرض لمؤلفات الإمام المقريزى يتبين للقارئ غزارة فى الإنتاج العلمى، حيث طرق مختلف الأنواع التاريخية على تباين فى الكثرة والقلة ، كما يتضح لنا من العرض السابق ومن اتجاه مؤلفاته أنه رسم لعمله ترتيبًا تاريخيًا استهدف به أن يكتب تاريخ الدول الإسلامية فى مصر حتى أيامه ، مما جعله شيخ المؤرخين فى القرن التاسع للهجرة .

---

١ - المنهل الصافى لابن تغرى بردى ١/٣٩٨ .

٢ - التبر المسبوك للسخاوى ص ٢٣ .

المبحث الرابع

تسمية الكتاب وأهميته

تسمية الكتاب وصحة نسبته للمؤلف :

كتاب " إغاثة الأمة بكشف الغمة " لتقى الدين أحمد بن على المقريزى ، قد كتبه سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٣م ، وقد جاء فى الصفحة السابعة والعشرين من النسخة المخطوطة المعتمدة فى التحقيق التصريح بذلك قال : " ونحن الآن فى أوائل سنة ثمان وثمانمائة " مما يدل دلالة واضحة على صحة تاريخ كتابة هذه المخطوطة [١]، وجاء فى الصفحة الأخيرة من المخطوطة ما يدل على صحة تاريخ هذه المخطوطة فقال : " تيسر لى ترتيب هذه المقالة وتهذيبها فى ليلة واحدة من ليالى المحرم سنة ثمان وثمانمائة "[٢].

كما جاء اسم الكتاب واسم المؤلف واضحًا فى الصفحة الأولى من النسخة المعتمدة للتحقيق على النحو التالى : " كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة " تأليف الشيخ الإمام العلامة الموضح تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر المقريزى " مما يدل على مدى صحة نسبة الكتاب له وتسميته بهذا الاسم المعروف به .

ومن خلال دراستى لشخصية الإمام أحمد بن على المقريزى وقراءة وافية لهذا الكتاب واطلاعى علي العديد من المصادر لمراجع تبين لى نسب كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة " للإمام العلامة أحمد بن على المقريزى ، فقد ذكره جرجى زيدان ضمن مؤلفات المقريزى المهمة والتى هى مرجع الناس فى حالة مصر السياسية والاجتماعية [٣]. ومحمد عبد الله عنان فى كتابه " مؤرخو مصر الإسلامية " حيث قال : ومما يجدر ذكره أن أثر تفكير ابن خلدون يبدو واضحًا فى رسالة كتبها المقريزى عنوانها " إغاثة الأمة بكشف الغمة " [٤] وذكره شاكر

---

١ - انظر الصفحة (٢٧) من المخطوطة .

٢ - انظر الصفحة الأخيرة من المخطوطة .

٣ - تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجى زيدان ٣ / ١٩٣.

٤ - مؤرخو مصر الإسلامية ، محمد عبد الله عنان ص ٩٥ .

مصطفى فى كتابه " التاريخ العربى والمؤرخون " فقال من تراث المقريزى التاريخى كتاب "إغاثة الأمة بكشف الغمة " ، وهو من خير ما كتب المقريزى عمقًا وفهمًا و استعرض فيه تاريخ المجاعات التى حلت بمصر منذ أقدم العصور حتى مجاعة سنة ٨٠٨هـ والسنة التى كتب فيها الكتاب " [١].

عندما نقف أمام عنوان هذا الكتاب " إغاثة الأمة بكشف الغمة " نلاحظ أن الإمام المقريزى يقصد بالغمّة أزمة ٨٠٦ - ٨٠٨ هـ ، تلك الأزمة التى تختلف فى أسبابها الجوهرية عن الأزمات التى سبقتها ، تلك الأزمات التى ترتبط أساسًا بقصور النيل ، وانخفاض مستوى الفيضان ، أما أزمة ٨٠٦ - ٨٠٨هـ فى نظر الإمام المقريزى ليست إلا نتيجة لسبب رئيسى هو " سوء تدبير الزعماء والحكام لشئون البلاد ، وغفلتهم عن النظر فى مصالح البلاد والعباد .

الداعى لتأليف الكتاب :

ألف الإمام المقريزى كتابه " إغاثة الأمة بكشف الغمة " من منطلق اقتصادى بحت ، وفى ظل ظروف اقتصادية قاسية ، ومن واقع أزمة خانقة عايشها وقاسى منها ، ودفع فيها ثمنًا باهظًا ترك أعمق الأثر فى نفسيته ووجدانه ، والمقصود بهذه الأزمة تلك المجاعة التى حلت بمصر ، واستمرت بصفة متقطعة بين سنتى ٧٩٦ - ٨٠٨ للهجرة ، وما صحبها من انتشار الطاعون فى البلاد وهو الوباء الذى ذهب ضحيته آلاف الناس ، ومن جملتهم ابنة الإمام المقريزى ووحيدته ، وهكذا عندما عالج سوء الحالة الاقتصادية فى كتابه ، وبحث فى أسباب الداء ، وفتش عن الدواء ، كان يكتب بأحاسيسه ، ويسجل ما رآه بعينيه ، وما أحسه بفؤاده، وليس فقط ما سمعه بأذنيه .

استهدف الإمام المقريزى من كتابه هذا توضيح حقيقتين هامتين : الأولى ، الأسباب التى نشأ منها هذا الأمر العظيم ، وكيف تمادى بالبلاد والعباد هذا المصاب الشديد الشنيع ، والثانية ، ما يزيل هذا الداء ويرفع هذا البلاء .

---

١ - التاريخ العربى والمؤرخون ، شاكر مصطفى ٣ / ١٤٦

هذه الأزمة التى دفعته إلى تأليف هذا الكتاب ليست الأو من نوعها فى تاريخ مصر وأهلها ، وليست أشد وأقسى من غيرها وإن بدت كذلك فى ر المعاصرين ، يقول الإمام المقريزى فى ذلك : " القليل من المشاهدة أرسخ من الكثير من الخبر ، إذ مقاساة اليسير من الشدة أشق على النفس من تذكر الكثير مما سلف منها "(١).

لقد استطاع الإمام المقريزى أن يبرهن عن وجهة نظره من خلال تتبعه للأزمات الاقتصادية التى حلت بمصر منذ أقدم العصور ، ويرجع بذلك إلى ما قبل طوفان سيدنا نوح عليه السلام ، ويتدرج إلى أن وصل إلى الأزمة الطاحنة التى حلت بالبلاد زمن سيدنا يوسف الصديق عليه السلام ، وفى ظل الإسلام حدثت أول أزمة اقتصادية بمصر فى سنة سبع وثمانين للهجرة ، ووالى مصر يومئذ هو عبد الله بن عبد الملك بن مروان - الذى وليها من قبل أبيه الخليفة عبدالملك فتشاءم به الناس ، لأنه أول غلاء وأول شدة رآها المسلمون بمصر .

ومنذ الفتح العربى الإسلامى لمصر حتى أيام المقريزى نفسه ، عدّد هذا المؤرخ نحو عشرين أزمة اقتصادية ، تفاوتت فى شدتها ، أرجع معظمها إلى قصور نهر النيل وعدم وفائه وانخفاض مستوى الفيضان ، وأرجع القليل منها إلى كثرة الاضطرابات ، وتعدد الفتن ، وعدم الاستقرار والأمن بسبب المصادمات بين طوائف الجند والأمراء ، وما صحب ذلك من نهب الأسواق واختلال الأوضاع الاقتصادية (٢).

وصف المقريزى بإيجاز ما كان يحدث فى تلك الأزمات أو الغلوات من ارتفاع فى الأسعار، ونقص فى الأقوات ، وما كان يصحب ذلك غالبًا من انتشار الطاعون والأوبئة الفتاكة ، مما يزيد من وقع البلاء .

أهمية الكتاب :

ترجع إلى أنه دراسة ناقدة تحليلية ، يغلب عليها الطابع الاقتصادى الاجتماعى ، والمتتبع لما كتبه المقريزى يجد أنه ينتقد كثيراً من الأوضاع القائمة فى الدولة وما يرتبط بها من سوء تصرفات الحكام ، كما أنه يُرجع تلك الأزمات التى تحل بالبلاد إلى تلك الأوضاع

---

١ - انظر المخطوطة ، ص ٣٠.

٢ - انظر المخطوطة ، ص ٨ .

والتصرفات، ونراه يحلل تلك الأزمات تحليلاً اقتصاديًا يجمع بين العمق والإيجاز ، ويشرح ما لها من آثار اقتصادية واجتماعية ، مما يجعل من كتابه هذا ظاهرة فكرية لها أهميتها وخطورتها فى عصر سلاطين المماليك .

ورغم أن هذا الكتاب من الكتب الصغيرة فى مؤلفات الإمام المقريزى ، إلا أنه يشغل أهمية خاصة تقصر عنها الكتب الكبرى عنده وعند غيره من المؤرخين ، فبينما تموج مؤلفاتهم الضخمة بأخبار الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء ، وتزود بحوادث العزل والولاية ، وتنتعش بالتراجم والوفيات والحروب والتجاريد ، حتى تكاد شخصية المؤلف لا توجد أو ترى إلا بمنظار، إذا بهذه الكتب الصغيرة تلقى كثيراً من الضوء على شيء من هوية مؤلفيها ، وتوضح الطريق لفهم الحالة الفكرية بينهم فى مختلف العصور والعهود ، ذلك لأن المؤلف يعرض فى أمثال تلك الكتب لمسألة معينة ، فيتحلل من قيود تسجيل الحوادث ، ويجرؤ أحيانًا على الإدلاء بآرائه فى نظم الحكم وقواعده بل يحاول أن يعلل بعض الظواهر تعليلاً عقليًا ، ويناقش بعض العيوب نقاشًا حراً يوافق العقل والمنطق .

كما تكمن أهمية كتاب " إغاثة الأمة بكشف الغمة " فى أن أحد فصوله أصل لرسَالة أخرى من رسالات الإمام المقريزى الصغيرة ، وهى " شذور العقود فى ذكر النقود " فقد كتبها لتكون فصلاً من فصول كتاب " إغاثة الأمة بكشف الغمة " ثم جعلها بعد ذلك كتابًا مستقلاً بعنوان خاص .

كما يتضمن هذا الكتاب ما يذيده أهمية أيضًا وهو إشارات علمية معقولة ذات أهمية للمشتغلين بكتابة التاريخ المصرى فى العصور الوسطى ، منها إرجاع الفتح الفاطمى لمصر إلى عامل اقتصادي فوق العوامل الحربية المعروفة ، ومنها أيضًا أن الخليفة الفاطمى كان يلقب أحيانًا بلقب " السلطان " .

فالكتاب يعطينا صورة واضحة ودقيقة وصادقة عن الأسباب والعوامل التى فجرتها ، وعن النكبات والمحن التى حلت بالشعب من جراء استهتار الحكام الغارقين فى الملذات وانصرافهم الكلى عن تدبير شؤون البلاد والاهتمام بمصالح العباد .

محتوى الكتاب وتنظيمه :

يتناول هذا الكتاب تاريخ المجاعات التى نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى سنة ٨٠٨هـ وهى السنة التى ألف فيها ، وعلى حد علمى يعتبر الإمام المقريزى المؤرخ المصرى الوحيد الذى

تعرض بالبحث لتلك الناحية الاقتصادية الاجتماعية من تاريخ مصر ، فهو فى تدوينه لأخبار المجاعات يحاول أن يتقصى أسبابها ، ويقترح العلاج الاقتصادى الصحيح لدرئها ودوائها ، كما أنه يتناول طبقات المجتمع المصرى فى عهده بالتقسيم والتصنيف ، ويصف كل طبقة من طبقاته فى شئ من التفصيل ، مما يدل دلالة حقيقية على أن الإمام المقريزى قد اقتدى فى هذا الكتاب بأستاذه ابن خلدون فى مقدمته فكلاهما كتب فى صميم النواحى الاقتصادية الاجتماعية ، ما عدا أن كتاب " إغاثة الأمة بكشف الغمة " قاصر على مصر الإسلامية ، أما مقدمة أستاذه ابن خلدون شاملة للعالم الإسلامى بوجه عام .

وقد استطاع الإمام المقريزى ترتيب هذا الكتاب وتهذيبه فى ليلة ، هذا فيما يخص الترتيب والتهذيب ، أما ما يخص الكتابة فلعلها قد استغرقت منه فترة سابقة ، مما يدل على أن الإمام المقريزى كان موفور النشاط متحمسًا لإنجاز ما فى يده ، حتى ينصرف لغيره من أنواع الإنتاج العلمى .

اشتملت مادة هذا الكتاب على نقول من المصادر والمراجع التى سبقت الإمام المقريزى ، كما اشتملت على عنصر المشاهدة التى شاهدها وعاشها المؤلف ويظهر ذلك فى كثير من عرض لمادته حيث عرض الكتاب على النحو التالى :

اشتمل على مقدمة ثم مقدمة حكمية تشتمل على قاعدة كلية ، وفصل يتناول فيه إيراد ما حل بمصر من الغلوات وحكايات يسيرة من أبناء تلك السنوات ، وفصل فى بيان الأسباب التى نشأت عنها هذه المحن التى فيها الشعب المصرى حتى استمرت طول هذه الأزمان التى دُفع المصريون إليها ، وفصل يوضح فيه أن معاملة مصر مازالت بالذهب فقط ، وفصل فى ذكر أقسام الناس وأصنافهم ، وبيان جمل من أحوالهم وأوصافهم ، وفصل فى ذكر نبذ من أسعار هذا الزمن وإيراد طرف من أخبار هذه المحن ، وفصل فى ما يزيل عن العباد هذا الداء ويقوم لمرضى الزمان مقام الدواء ، وفصل فى بيان محاسن هذا التدبير العائد نفعه على الجم الغفير ، ثم الحديث عن سب زوال النعم التى كانت بمصر وتلاشى الأحوال بها ، وذهاب الرفه ، وظهور الحاجة والمسكنة على الجمهور ، وختم كلامه بمثالين فيهما كفاية لمن أزال الله الطمع عن قلبه ، وهداه إلى إغاثة العباد وعمارة البلاد .

فمادة هذا الكتاب محلية بمعنى أن المؤلف تناول فى حديثه مصر دون غيرها ، ونوع هذه المادة اقتصادية اجتماعية ، حيث غلب عليها الطابع الاقتصادى الاجتماعى تدوينًا لأخبار ما نزل بالشعب المصرى من المجاعات ، متناولاً طبقات المجتمع المصرى بالتقسيم والتصنيف .

كما نلاحظ أن الإمام المقريزى يبدأ كل فصل من فصول كتابه بمخاطبة القارئ والدعاء له ، ثم يعرض لحقائق موضوع الفصل فى أسلوب علمى موجز ، تغلب عليه الصيغة الفلسفية ، وتتخلله الاستشهادات التاريخية ، ثم يختم الفصل بآية أو آيتين من القرآن الكريم أو ببيت شعر يناسب المقام .

النسق التعبيرى للكتاب :

قبل أن نتناول النسق التعبيرى للكتاب يجدر بنا الإشارة إلى مدى براعة الإمام المقريزى فى الأدب من نظم ونثر ، مما جعل له الأثر الواضح فى أسلوبه التعبيرى عند كتابة مؤلفاته العلمية خاصة كتابه " إغاثة الأمة بكشف الغمة " .

والملاحظ فى الأسلوب الكتابي للمؤرخين فى العصر المملوكى أنه يسير وفق منهجين فى الكتابة : الأول ، استخدام السجع فى الغالب وإظهار البراعة الكتابية ، والثانى ، استخدام النثر المرسل بأسلوب متصل مباشر مع إفشاء اللحن فى بعض المؤلفات .

أما الإمام المقريزى فنظراً لما كان عليه من مكانة عظيمة فى العلوم الدينية واللغة والأدب، فقد كان النسق التعبيرى فى كتاباته يجرى ضمن الأسلوب الأدبى الذى زينه بالسجع فى كثير من الأحيان ، والأسلوب الأدبى المرسل فى عرض الأخبار والروايات والتعليقات ، وتحليلاته للمواقف التى تحتاج إلى تدخّل منه ، فقد اختار العبارة المناسبة للتعبير ، مع تميز أسلوبه بسهولة العرض ، فكانت عنايته بالصيغة اللفظية فى أول الكتاب واضحة جلية ، حيث تظهر الموسيقا اللفظية فى تعبيره من خلال اعتماده على السجع فى التعبير ، بعيداً عن الألفاظ الصعبة ، مما يدل على أن أسلوبه فائق ، يدل على جوهر فكره ، وقدرته على استنباط المحاسن اللفظية من خدرها ، مع تميزه بأنه علمى موجز تغلب عليه الصبغة الفلسفية .

فإذا ما تصفحنا كتاب " إغاثة الأمة بكشف الغمة " لاحظنا الأسلوب الأدبى المستخدم فيه المحسن اللفظى الجميل - السجع - الذى يحسّن العبارة ويجعلها تُعّطى نغمًا موسيقيًا تطرب له الآذان وتسعد به النفس ، فيقول : " أنعم على قوم فأوقفهم على ما خفى من بديع صنعته ، ووفقهم لاتباع ما درس من شريعته ، وآتاهم بيانًا وحكمًا ، وألهمهم معارف وعلمًا ، وأيدهم فى أقوالهم ، وسددهم فى أفعالهم "(١).

انظر المخطوطة ، ص ٢

كما يظهر فى نسقه التعبيرى مدى تأثره بالقرآن الكريم ، واستخدام الاقتباس باللفظ فى أسلوبه وحديثه ليحسّن من كلامه ، ويزيّن عباراته فيقول : " ثم قصر النيل ، فنزعت الأسعار نزوعًا بدّد شملهم ، وفرّق إلفهم ، وشتت كلمتهم ، وأوقع الله العداوة والبغضاء بينهم ، فقتل بعضهم بعضًا حتى أباد خضراءهم وعفّى آثارهم ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا "(١) اقتباس من سورة النمل من الآية الثانية والخمسين .

ويقول الإمام المقريزى : " فلما ارتفع السعر عما باع به ندم على بيعه الأول حيث لم ينفعه الندم ، فلما صار إليه ثمن الغلال أنفق معظمه فى عمارة دار ، وزخرفتها وبالغ فى تحصينها وإجادتها حتى إذا فرغت وظن أنه قادر عليها أتاها أمر ربها فاحترقت بأجمعها ، وأصبحت لا ينتفع بها بشىء " (٢). وهنا اقتباس من سورة يونس من الآية الرابعة والعشرين .

ويقول الإمام المقريزى : " وسنتلوا عليك من نبأ ذلك ما يوضح لك صحة ما أشرت إليه ، فأقول مستعينًا بالله ربى ، فإنه مولاى وحسبى : اعلم زادك الله علمًا وآتاك بيانًا وفهمًا..."(٣)، فقد ظهر الاقتباس فى أول الفقرة من سورة الأنعام الآية الرابعة والثلاثون ، ومن سورة القصص الآية الثالثة .

كما يعتمد الإمام المقريزى على ذكر كثير من الآيات القرآنية الكريمة التى يزين بها أسلوبه الأدبى مستشهداً بها فى مواضع عدّة يؤيد بها كلامه ، وكذلك اعتماده على قليل من الأحاديث النبوية الشريفة يستخدمها لمزيد من تحسين وتزيين النسق التعبيرى لكتابه .

كما ألزم الإمام المقريزى نفسه بتفسير بعض الألفاظ التى قد تخفى على كثير من القرّاء فى كثير من المواضع ، فعلى سبيل المثال يقول : " وكان أهل مكة يتعاملون بأوزان اصطلحوا عليها فيما بينهم ، وهى الرطل الذى هو اثنتا عشرة أوقية ، والأوقية هى أربعون درهمًا ، فيكون الرطل ثمانين وأربعمائة درهم ، والرطل الآن بمصر اثنتا عشرة أوقية ، والأوقية اثنتا عشر درهمًا ، فيكون الرطل مائة وأربعة وأربعين درهمًا ، أما رطل دمشق فهو اثنتا عشرة

---

١ - انظر المخطوطة ، ص ١٤ .

٢ - انظر المخطوطة ، ص ٢٣ .

٣ - انظر المخطوطة ، ص ٣٠ .

أوقية ، والأوقية خمسون درهمًا ، فيكون الرطل ستمائة درهم ، والنشّ وهو نصف الأوقية وهو عشرون درهمًا ، والنواة وهى خمسة دراهم " (١).

إن النسق التعبيرى الذى عرض به الإمام المقريزى كتابه ، جاء سهلاً ميسوراً مريحًا للقارئ، لأنه ركز على الموضوع الذى يهدف إليه بعيداً عن الاستطراد والحشو والتكرار ، وبعيداً عن التفريعات والخلافات ، مما يحقق الغاية والمقصد ، ويصل بالقارئ إلى معرفة ما حدث فى مصر من مجاعات قبل عصر الإمام المقريزى ، وخلال عصره أيضًا ، ثم معرفة أسباب تلك المجاعات .

---

١ - انظر المخطوطة ، ص ٣٠ .

المبحث الخامس

مصادر الكتاب وطرق الإسناد إليها

أولاً : أنواع المصادر :

اعتمد الإمام المقريزى فى بناء مادة كتابه على نوعين من المصادر ، وهما : مصدر المشاركة، ومصدر النقل من الكتب السابقة .

أ - المشاركة :

وقد اعتمد عليها الإمام المقريزى كثيراً فى كتابه حيث أدرك تلك الأحداث التى تناولها ، فكان الاطلاع عليها اطلاعًا شخصيًا مباشراً ، والشهادة المعاينة ، وقد استند إليها جميع المؤرخين فى كل ما سجلوا من أمور عصورهم ينصون على ذلك كلما أوردوا خبراً مما شاهدوا وعرفوا ، وينصون أحيانًا عليه فى مقدمة كتبهم .

يقول الإمام المقريزى : وسأذكر إن شاء الله تعالى ، من الغلوات الماضية ما يتضح به أنها كانت أشد وأصعب من هذه المحن التى نزلت بالناس فى هذا الزمان بأضعاف مضاعفة ، وإن كانت هذه المحنة مشاهدة وتلك خبراً " [1]. فنلاحظ ما ذكره المقريزى فى عبارته السابقة من تصريح واضح بأنه شاهد الأحداث التى كتب عنها التى كانت بالنسبة له محنته عظيمة شاهدها وعاشها .

ويقول الإمام المقريزى : " تفاقم الأمر وجل الخطب وعظم الرزء ، وعمت البلية وطمت ، حتى مات من أهل الإقليم بالجوع والبرد ما ينيف عن نصف الناس ، وعم الموتان حتى نفقت الدواب فى سنة ست وسنة سبع ، وعزّ وجودها ، وبلغت أثمانها إلى حدّ نستحى من ذكره ، ونحن الآن فى أوائل سنة ثمان وثمانمائة "[2] .

لقد ورد فى العبارة السابقة على لسان المقريزى كلمة " الآن " مما يعنى أن الإمام المقريزى شاهد الأحداث وعاشها وشارك فيها وعاناها وهذه دلالة واضحة أن المشاركة والمشاهدة والمعاينة مصدر من مصادر هذا الكتاب .

---

١ - انظر المخطوطة ، ص ٤ .

٢ - انظر المخطوطة ، ص ٢٦ .

يقول الإمام المقريزى : " الأسعار إذا نسبت إلى الدّرهم أو الدينار لا يكاد يوجد فيها تفاوت عما كنا نعهد قبل هذه المحن البتة ، إلا أشياء معدودة سبب غلائها أحد أمرين : الأول فساد نظر مَنْ أُسْند إليه النظر فى ذلك ، وجهله بسياسة الأمور ، وهو الأكثر فى الغالب ، والثانى الحاجة التى أصابت ذلك الشئ حتى قلّ ، كما حصل فى لحوم الأبقار بالموت الذريع الذى نزل بها فى سنة ثمان وثمانمائة " [١].

من خلال ما ورد ذكره على سبيل المثال لا الحصر دليل واضح على المصدر الأول الذى اعتمد عليه الإمام المقريزى فى بناء مادة كتابه " إغاثة الأمة بكشف الغمة " .

ب - المؤلفات السابقة :

تعدّ المؤلفات السابقة لأى مؤلف تعرض لذكر أمور سابقة عليه البنية الأساسية ، لذلك فالمؤلفات السابقة للإمام المقريزى تعد البنية الأساسية لكتاب " إغاثة الأمة بكشف الغمة " ، والمورد الرئيسى لمادته ، فمن خلال معرفة ثقافة الإمام المقريزى نستشعر مدى سعة اطلاعه وكثرة علومه علي الكتب السابقة التى تتصل بموضوع كتابه وغير كتابه أي تشتمل علي موضوعات أخرى شتى ، وكان اطلاعه واسعًا وأثره فى كتابه لا يقل عن أثر تحصيله الشخصى من خلال مصدر المشاهدة المعاينة ، وقد اعتمد على العديد من الكتب السابقة منها على سبيل المثال : كتاب أخبار مصر لإبراهيم بن وصيف شاه[٢] ، قال عنه المقريزى : وهو كتاب جليل الفائدة رفيع القدر [٣]، نقل منه الإمام المقريزى العديد من المواقع والمحن التى نزلت بالمصريين قبل عصره .

كما استخدم الإمام المقريزى القرآن الكريم والتوراة دون تصريح واضح ولكن عن طريق التلميح وهذا واضح فى كلامه إذ يقول : وهذا الغلاء دبر أمر البلاد فيه يوسف عليه السلام ، وقد ذكره الله سبحانه وتعالى فى القرآن العظيم ، وتضمنته التوراة ، واشتهر ذكره فى كتب الأمم الماضية والخالية [٤].

---

١ - انظر المخطوطة ، ص ٥١ .

٢ - انظر معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١/ ٨١ ، قال عنه : هو إبراهيم بن وصيف شاه مؤرخ له جواهر البحور ووقائع الدهور ، وأخبار الديار المصرية ، وأخبار مدينة السوس .

٣ - انظر المخطوطة ، ص ٥ .

٤ - انظر المخطوطة ، ص ٦ .

فعلى سبيل المثال يقول : " ثم وقع غلاء وجدب هلكت فيه الزروع والأشجار ، وفقدت فيه الحبوب والثمار ، وعمّ الموت الحيوانات كلها ، وذلك عند مبعث موسى عليه الصلاة والسلام إلى فرعون ، وخبر هذا الغلاء مشهور فى كتب الإسرائيليين وغيرهم ، وكفى إشارة إليه ودلالة عليه قوله سبحانه وتعالى : { وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ } (١)، وقوله تعالى : { وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } (٢)، تلك إشارة واضحة إلى استفادة الإمام المقريزى من القرآن الكريم وما ورد فيه من أخبار عن الغلاء الذى وقع زمن سيدنا يوسف عليه السلام .

كما اعتمد الإمام المقريزى على كتاب تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر الدمشقى حيث ذكر هذا المصدر فى نهاية نقله منه حيث قال : " ... حتى قيل أن أول مَنْ ضرب الدينار والدرهم آدم عليه الصلاة والسلام ، وقيل لا تصلح المعيشة إلا بهما ، رواه الحافظ ابن عساكر فى تاريخ دمشق (٣).

واعتمد الإمام المقريزى أيضًا على كتاب التاريخ الكبير للمسبحى حيث قال : " قال الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد المسبحى عفا الله عنه فى تاريخه الكبير : "وفى شهر ربيع الأول من سنة سبع وتسعين وثلثمائة ، تزايد أمر الدراهم القطع أو المزايدة ، فبيعت أربعة وثلاثون درهمًا بدينار ، ونزع الشعر ، اضطربت أمور الناس .. " (٤).

واعتمد الإمام المقريزى على كتاب " جنا النحل وحيا المحل " لحافظ المغرب محمد بن سعيد المغربى حيث قال : " وكتبتُ من خط حافظ المغرب محمد بن سعيد ما نصه : " فأخرج لى أحد هؤلاء التجار - يعنى تجاراً رآهم ببغداد لما رحل إليها - ورقة فيها خطوط بقلم الخطا ، وذكر أنها من ورق التوت فيها لين ونعمة ، وأن هذه الورقة إذا احتاج إنسان فى " خان بالق " من بلاد الصين لخمسة دراهم دفعها فيها ، وأن ملكها يختم لهم هذه الأوراق ، وينتفع بما يأخذ بدلاً عنها (٥).

---

١ - سورة الأعراف الآية (١٣٧) .

٢ - سورة الأعراف الآية (١٣٠) . وانظر المخطوطة ص ٦ ، ٧ .

٣ - انظر المخطوطة ، ص ٣٠ .

٤ - انظر المخطوطة ، ص ٣٧ .

٥ - انظر المخطوطة ، ص ٤٢ .

لقد اتحفنا الإمام المقريزى بذكر مصادره الغنية التى استوعب منها ما كتبه السابقون له فى مواضيعه ، لكن قضية النقل عن الكتب المؤلفة فى التاريخ شكلت نوعًا من الخلاف بين العاملين فى هذا الميدان ، فأتباع مدرسة الحديث وذوو التكوين الثقافى الدينى من أمثال ابن حجر العسقلانى والسخاوى على سبيل المثال لا الحصر ، لم يكونوا يستسيغون النقل عن أى مصدر دون سماعه سماعًا مباشراً أو التوثيق منه ، على الأقل حسب طرائق أهل الجرح والتعديل من صحة روايته وصدق حديثه ، فرجال هذه المدرسة يفهمون التاريخ على وجه مخصوص ، هو الذى يفهمه المحدثون والحفاظ وعلماء الرجال ، وعلى أساس من هذا الفهم للتاريخ ندرك السبب الذى من أجله غمز السخاوى من قناة المقريزى ، وعلى الطرف المقابل نجد المقريزى ومؤرخين آخرين يمثل وجهة نظر مدرسة أخرى لم ير أتباعها ضيراً فى التفلت من قيود رجال الحديث على التنقل من المصادر ، وقد دافع المقريزى عن هذه الطريقة فى النقل المباشر عن الكتب دونما حاجة إلى سماع ، وقد غدت هذه الطريقة التى كانت قد فشت بين المؤرخين منذ مطلع العصر المملوكى هى القاعدة المتبعة فى عهده ومن بعده بحجة أن التاريخ قد انفصل عن الشريعة .

ثانيًا : طرق الإسناد إلى المصادر :

لم تكن طريقة الإمام المقريزى فى الإسناد إلى المصادر واحدة فى مادة كتابه " إغاثة الأمة بكشف الغمة " ، وإنما كانت متنوعة ، كأن يصرح باسم المؤلف واسم كتابه الذى نقل عنه ، أو يهمل الإسناد إلى المصدر وينقل متتابعًا دون أن يصرح، أو عن طريق المشافهة على النحو التالى :

أ - الإسناد إلى المصدر مصرحًا باسم المؤلف واسم كتابه كأن يقول : " قد ذكر الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه فى كتاب أخبار مصر لما قبل الإسلام .... أن أول غلاء وقع بمصر كان فى زمن الملك السابع عشر من ملوك مصر قبل الطوفان ، واسمه أفروس بن مناوش " [١].

وقوله أيضًا عن مصدر آخر حيث يقول : وكتبتُ من خط حافظ المغرب محمد بن سعيد فى كتابه الذى سماه " جنا النحل وحيا المحل " .. "[٢].

---

١ - انظر المخطوطة ، ص ٥ .

٢ - انظر المخطوطة ، ص ٤٢ .

وقوله فى نهاية الخبر الذى نقله من تاريخ دمشق لابن عساكر بعد أن انتهى من ذكر ما نقل قال : ... رواه الحافظ ابن عساكر فى تاريخ دمشق [١].

وقوله : " فقال الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد المسبحى ، فى تاريخه الكبير ... " [٢].

من خلال هذا العرض لطريقة نقل الإمام المقريزى من مصادره ذاكراً اسم المؤلف واسم الكتاب يتضح لنا مدى اعتماده على المصادر السابقة فى تكوين المادة العلمية لهذا الكتاب .

ب - إهمال الإسناد إلى المصدر دون ذكر اسم المؤلف أو اسم الكتاب الذى نقل منه كأن يقول على سبيل المثال : " وفى أول شهر رجب سنة ٧٣٦هـ وقع الغلاء بالديار المصرية فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وعز القمح ، ووصل كل أردب إلى سعين درهمًا ، والقول إلى خمسين ، والخبز كل خمسة أرطال بدرهم .. "[٣].

جـ - طريقة المشافهة يقول : " وأخبرنى من لا أتهم أنه شاهد فى بعض مدن إقليم الصعيد أهلها يتعاملون فى محقرات المبيعات بالكودة ، وتسمى بمصر الودع ، كما يتعامل أهل مصر الآن بالفلوس " .

ويقول أيضًا : " وأخبرنى ثقة أن ببعض بلاد الهند يُشترى الكثير من المأكل بالعفص والبلح"[٤].

---

١ - انظر المخطوطة ، ص ٣٠ .

٢ - انظر المخطوطة ، ص ٣٧ .

٣ - انظر المخطوطة ، ص ٢٤ .

٤ - انظر المخطوطة ، ص ٤٢ .



المبحث السادس

المنهج التأريخى عند المقريزى

التأليف التأريخى فى عصر المقريزى :

من المعروف أن بغداد ظلت طيلة خمسة قرون عاصمة تربط عن طريق الخلافة الاسمية الشرق الإسلامى بالحوض الشرقى للبحر المتوسط والبحر الأحمر ، ثقافة وسياسة ومجتمعًا ، واقتصاداً انتهت مهمتها تلك بسقوطها بيد المغول ، فانتهت كقطب ارتباط سياسى وكمركز لقاء للثقافة الإسلامية ، ولكن هذا المركز غيّر اتجاهه من بغداد إلى دمشق والقاهرة فكلاهما ارتبط بنظام سياسى واحد استمر هذا الارتباط قرابة ثلاثة قرون ، فقد تسلم المماليك حكم مصر منذ سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٨م ، ثم أتموا وراثة السلطنة الأيوبية مع إماراتها المتفرقة جميعًا بعد انتصارهم على المغول فى معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م فجمعوا بين حلب والجزيرة ، إلى القاهرة ثم إلى الحجاز ، وتقاسمت دمشق والقاهرة مركز بغداد السابق ، كما توزعت هجرة العلماء المسلمين إليهما وتبادلاتهم بينهما بشكل مستمر ، وهكذا عرفت دمشق والقاهرة خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين عصراً من النهضة يمكن أن يعتبر بحق عصر النهضة الإسلامية الثانية، حيث وصلت إلى قمتها الثانية بعد القمة الأولى التى حققتها فى القرنين الثالث والرابع ، وإن تكن الثانية على المحافظة والاتباع بعد أن كانت الأولى على الإبداع .

لقد تجمع الفكر الإسلامى مرة أخرى فى مركز حيوى جديد مع وصول الحضارة العربية الإسلامية مرحلة نضجها الأخير ، ومع نكبة بغداد وجد لدى حملة الثقافة العربية الإسلامية نوع من الخوف على الإسلام وثقافته وتراثه ، دفعهم ذلك إلى تناول التراث بالتكرار والتلخيص وجمعه فى مجموعات شاملة واحدة بهدف انقاذه ، ومن هنا حفل هذا العصر بالموسوعات الأدبية ، والموسوعات الجغرافية البشرية والديوانية والتاريخية وموسوعات الرجال، ومن بينها فاز التاريخ بالنصيب الأوفى مما يدل على أن مصر غدت فى عصر علمى واسع، يدل عليه ذلك التراث الضخم سواء الأدبى أو العلمى أو الدينى، وليس ذلك فحسب بل امتد هذا النشاط العلمى إلى الفنون والصناعات اليدوية التى إن دلت فإنما تدل على الدقة

الفائقة والعبقرية الراقية ، وكذلك تشييد العمائر من مساجد ومدارس وأضرحة وحمامات ووكالات وغير ذلك [١]، وفى مجال الرسم والزخرفة على الخزف والمنسوجات والزجاج والبلور فضلاً عن الرسوم النباتية والأشكال الهندسية[٢]. وكذلك زخرفة المعادن والكتابة الزخرفية عليها مع الرسوم الهندسية وأوراق نباتية للحيوانات والطيور[٣]. لقد عبر فن الرسم والتصوير عن رقيه أيضًا فى عصر المماليك سواء على الزجاج والبلور أو أغلفة الكتب[٤].

وقد ساعد على هذا النشاط الحضارى والعلمى فى عصر سلاطين المماليك توافر المال الذى يعد الدعامة الأساسية لازدهار أى نشاط حضارى، وبجانب هذا المال الذى لا يعتبر الدعامة الوحيدة فى بناء الحضارات بل يوجد مع المال توافر البيئة الحضارية أى الأرض الطيبة ذات الإمكانات الحضارية الراسخة، ويوجد أيضًا الإنسان المنتج الإنسان الذى لديه الاستعداد ولديه القدرة على الإنتاج والإبداع . ، هذا التوافر المالى حمل عدداً من علماء المسلمين من كل مكان إلى النزوح إلى القاهرة حيث الثروة والحياة الطيبة ، وحيث فرص التدريس فى مدارسها خاصة أن سلاطين المماليك أكثروا من إنشاء المدارس لكى يظهروا شعورهم بالتقوى وتقربهم من العلماء والشعب ، ولكى يتخذوا من المدرسة أداة تضمن بقاء الحكم فى أيديهم وتساعدهم على دعم مركزهم فى أعين الشعب من ناحية أخرى[٥] ، وحيث المكتبات الزاخرة بآلاف الكتب والمخطوطات ، مع تحقيق عامل الأمن وتوافر الأمان فى ظل قوة المماليك[٦] .

فى هذا الجوّ العظيم الطيب حظى علم التاريخ بمكانة مرموقة خاصة أن عصر المماليك كان حافلاً بالحوادث الداخلية والخارجية ، غنيًا برجاله وأبطاله ، وهذا وذاك من الحوادث وسير الأبطال كان بحاجة إلى تسجيل وليس هناك أجدر من التاريخ لتسجيل عظيم هذه الأعمال من

- فنون الإسلام ، زكى محمد حسن ، ص ٧١ .

2 - Hobson : A guide to the Islamic Pottery of the Near East, p. 65 .

3 - Wiet : Objets en Cuivres, p. 272 .

4 - Wiet : Lampes en Verre Emaill, pp. 67 - 100 .

5 - I brahim Salama : L'Emseignement Islamique en Egypte, p. 60 - 64 .

- انظر الحديث باستفاضة عن المدارس والمكتبات عند المقريزى فى كتاب المواعظ والاعتبار ٢ / ٣٩٥ - ٣٩٧ .

انتصارات على الأعداء ورد هجماتهم وتسجيل الاصلاحات والأعمال والمنشآت ، مما أدى إلى تنشيط كتابة التاريخ وظهور مجموعة كبيرة من المؤرخين ، ولم يكن المماليك أنفسهم بعيدين عن هذا النشاط الحضارى والعلمى ، فكان من بينهم من يميل إلى التاريخ وأهله مثل الظاهر بيبرس[١]، وكذلك السلطان الغورى (ت : ٩٢٢هـ) صاحب المجالس العلمية والدينية التى كان يعقدها بقلعة الجبل ، وكان لعلم التاريخ فيها نصيب وافر[٢] . بل نستطيع أن نقول : إن دراسة التاريخ كونت جزءاً أساسيًا من ثقافة المماليك المصريين وتغلغلت فى كيانهم وحاولوا التأليف فيه حتى نبغوا في مجال التاريخ ودفعوا بلواء الكتابة التاريخية إلى مجالات التقدم والازدهار مثل : سيف الدين أبو بكر الدوادارى (ت ما بعد ٧٣٦هـ) ، وابن دقماق (٨٠٩هـ)، وابن تغرى بردى (ت ٨٧٤هـ) [٣]. ويمثل القرن التاسع الهجرى ذروة الازدهار بالنسبة للكتابة التاريخية فى عصر سلاطين المماليك، ففيه نضجت الحاسة التأريخية عند مؤرخى ذلك العصر ، واتضحت رؤيتهم للأحداث ، واتسعت آفاق الدراسة والبحث والمقارنة أمامهم ، واكتملت الصورة لأقصى ما بلغه مجتمعهم من تطور سياسى وحضارى ، وقد بلغت فلسفة التاريخ ، فى هذا القرن قمتها على يد العالم الجليل ابن خلدون ، معاصر المقريزى وأستاذه ، وقد صحب فلسفة التاريخ تيار النقد التاريخى فى صورة جديدة مغايرة للصورة المألوفة ، كما شهد هذا العصر عصر المقريزى هذا تتابع سلسلة من أبرز المؤرخين الذين يعتز بهم علم التاريخ على المستوى العالمى أمثال ابن حجر العسقلانى (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ) ، وبدر الدين العينى (ت ٨٥٥هـ) ، وأبو المحاسن بن تغرى بردى (٨١٢ - ٨٧٤هـ) ، وأبو الخير محمد السخاوى (٨٣١ - ٩٠٢هـ) ، ومحمد بن إياس (٨٥٢ - ٩٣٠هـ) ، وجلال الدين السيوطى (٨١٢ - ٨٧٤ هـ) ، وشيخ المؤرخين الإمام المقريزى (٧٦٦ - ٨٤٥ هـ) الذى لا يدانيه مؤرخ معاصر آخر .

---

١ - النجوم الزاهرة، لابن تغرى بردى ١٨٢/٧ .

٢ - مجالس الغورى ، لعبد الوهاب عزام ، ص ٤٩ .

٣ - انظر المماليك المصريون الذين لمعوا فى ميدان الفكر ، رسالة دكتوراه ، محمد محمد محمود ، بقسم التاريخ ، كلية دار العلم جامعة القاهرة لعام ١٩٧٩م ، ص ٢٥٥ ، ٢٦٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨٩ .

لكل هذه الأسباب السابقة ورثت القاهرة بغداد زعامتها للمدارس التاريخية الإسلامية فى العصر المملوكى وكان لها تميزها الإقليمى بالإضافة إلى مشاركتها المدارس الإقليمية الأخرى لهذا العصر فى الملامح العامة ، وقد عمل فى التأريخ فى العهد المملوكى موظفو الدواوين الذين اهتموا بسير الحكام والسلاطين وتعليم ناشئة الديوان صناعة الكتابة وأدواتها الثقافية ، والتى يشكل التاريخ جانبًا منها ، فى حين اتجه علماء الدين إلى التراجم وعلم الرجال . وقد عنى المؤرخون المصريون عناية واضحة بتاريخ مصر حتى أولئك الذين كان محتوى كتبهم التاريخية إسلاميًا عامًا ، فقد انطلقوا إلى البلاد الإسلامية من خلال مصر ومن زاويتها الإقليمية ، وبجانب تاريخ مصر ومن خلاله ومعه عُنى المؤرخون المصريون فى هذا العصر بكتابة التاريخ الإسلامى والعالمى على السواء ، كما برزت بوضوح عناية المؤرخين فى مصر بالتراجم أكثر بكثير من ذى قبل ، وأصبح علم الرجال الأكثر شأنًا فى التاريخ .

وإذا كانت كثرة التفاصيل التى يتناولها المؤرخون ويوردونها فى تواريخ الأحداث السياسية، وفى كتب التراجم والرجال قد أدْخلت فى التاريخ بصورة غير مباشرة العديد من ملامح التاريخ الحضارى ، فإن ذلك لم يكن المجال الوحيد الذى سجل المؤرخون من خلاله جوانب الحضارة فى عصورهم ، فإنهم قد طرقوا مواضيع مختلفة وجوانب شتى من القطاعات الاجتماعية ، كانت تصب كلها بصورة مباشرة أو غير مباشرة فى الإطار الحضارى .

فهناك عدد من المواضيع المطروقة المتنوعة تتعلق بالتعليم السياسى التى تقدم النماذج المثلى لسياسة الرعية ضمن إطار الشرع الإسلامى ، ومنها ما يتعلق بالتعليم الديوانى كمؤلفات النويرى (ت ٧٣٢ هـ) ، وابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٩ هـ) ، والقلقشندى (ت٨٢١ هـ) ، ومنها ما يتعلق بالأقاليم والممالك ، وطرق البريد ووسائله ومراكزه مثل زبدة كشف الممالك لابن شاهين الظاهرى[١] ، ومنها ما يتعلق بالتعليم العسكرى حيث ظهرت كتب عديدة فى الخيل وعدة السلاح ومعرفة الحروب وتدبرها ، كما تألفت كتب تتناول الطبقات الاجتماعية ، وأخرى حول أهل الذمة ، وحول الجوارى ، والحمقى ، والغلمان والمتصوفة والزهاد[٢] .

- هو خليل بن شاهين السيخى الصفوى الظاهرى ت ٨٧٣ هـ ، فقيه ومفسر ومؤرخ وأديب وشاعر . انظر معجم المؤلفين لكحالة ١/٦٨٤ .
- انظر العصر المماليكى فى مصر والشام ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، ص ٣٤٢ .

كما توجد مواضيع تتعلق بالمواقع وخططها وفضلها ككتاب الإمام المقريزى " المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار " حول خطط القاهرة ، وهناك مواضيع تتصل بالحياة العامة للناس ، ويتبين من ذلك أن الإمام المقريزى قد طرق فى مؤلفاته معظم هذه النواحى ، مما جعله يتبوأ مرتبة الصدارة فى العصر المملوكى .

المقريزى وكتابة التاريخ :

من المعروف أن عظمة الإمام المقريزى وشهرته وزعامته لمؤرخى العصر المملوكى لا تنبع من كثرة مؤلفاته العلمية فى التاريخ وتنوّع مواضيعها ، بقدر ما تنبع من منهجه فى كتابة التاريخ . خاصة وقد بلغت معه المدرسة التاريخية المصرية فى العصر المملوكى أوج عطائها فى القرن التاسع الهجرى ، حيث أقام منهجه على مجموعة من الأسس جاءت على النحو التالى :

أولاً : الأمانة العلمية فى عرض المادة العلمية : فالأمانة صفة لازمة للمؤرخ وهى ألزم له دون غيره من العلماء ، تتمثل هذه الأمانة فى المحافظة على الرواية التى يرويها عن الغير فيرويها كما هى، وأن يكون دقيقًا فيما يسجله عندما يروى بعض مشاهداته ، لأن هذه الرواية أو تلك ستكون مع الأيام سجلاً ومرجعًا يعتمد عليه اللاحقون ، وربما ضاع الأصل الذى استقى منه المؤرخ روايته ، وعندئذ تبقى العبارات التى سجلها المؤرخ مصدراً وشاهداً على التاريخ ، فالمؤرخ شاهد على الناس – الموتى والأحياء ، شاهد على الماضى والحاضر ، والشهادة فى الإسلام لها أصولها وآدابها ، كما أثبت ذلك القرآن الكريم ، يقول الله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } سورة البقرة الآية (٢٨٢) ، ويقول الله تعالى : {ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } سورة المائدة الآية (١٠٨) .

ثانيًا : التجرد من الأهواء : فبمقارنة كتابات الإمام المقريزى بكتابات غيره من المؤرخين المعاصرين له ، نجده أكثر اعتدالاً ، وأوفرهم دقة ، وأبعدهم عن الاستجابة للأهواء والميول والنزوات ، هذا بالإضافة إلى أنه فى كتابته للتراجم والسير تراه دائمًا متحكمًا فى قلمه ، محترمًا للصغير والكبير ، عفيفًا فى اللفظ والكلمة ، حتى فى نقده منضبطًا يخشى الله فيما يقول ، ولا يتخذ من التاريخ أداة لتجريح الناس .

ثالثًا : عدم التعصب لرأى أو التحيز لفكر : من المعروف أن العصر الذى عاش فيه المقريزى كثر فيه التحاسد بين العلماء وتعرض بعضهم لبعض الذم والإساءة، ولكن المقريزى ظل بعيداً عن الخوض فى أعراض الناس مكتفيًا عند شروعه فى تأليف كتاب بأن يدعو الله " أن يحلى هذا الكتاب بالقبول عند الجلة والعلماء، كما أعوذ من تطرق أيدى الحساد إليه والجهلاء ، وأن يهدينى فيه - وفيما سواه من الأقوال والأفعال - إلي سواء السبيل "[١] وأحيانًا يدعو بالتوفيق والصلاح لكل من تحمل المسئولية وتولى قيادة الأمور فى البلاد فيقول: " راجيًا من الله سبحانه أن يوفق من أسند إليه أمور عباده ، وملكه مقاليد أرضه وبلاده إلى ما فيه سداد الأمور ، وصلاح الجمهور ... وبالله المستعان على كل ما عز وهان وهو يقول الحق ويهدى إلى سواء السبيل " [٢].

رابعًا : التدقيق وحب الاستقصاء والرغبة فى معرفة أسباب الظواهر وعلل الأحداث : فيقول المقريزى عن نفسه بخصوص هذا الأساس الرابع من أسس منهجه فى كتابة التاريخ عند ذكره بعض الأحداث : " فكثر تعجبى من ذلك ، ومازلت أفحص عنه على عادتى فى الفحص عن أحوال العالم ، حتى وقفت على ... " [٣].إنها صفة متصلة فى الإمام المقريزى ندر وجودها عند غيره من المؤرخين ، فغيره من المؤرخين يسرد أحداث التاريخ مكتفيًا بما يصل إلى علمه عن طريق النقل والسماع ، وإذا كان المؤرخ أمينًا أسند الرواية إلى مَنْ نقلها عنه ، أما المقريزى فزيادة على ذلك يحرص على أن يقف أمام الرواية التاريخية ليناقشها ويفندها ،

١- المواعظ والاعتبار ، للمقريزى ٣/١ طبعة بولاق .

٢ - إغاثة الأمة بكشف الغمة ، للمقريزى الصفحة (٣) المخطوط .

٣- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى الجزء الرابع حوادث سنة ٨٢٦هـ .

مقارنًا إياها بغيرها ، مستقصيًا أسبابها ، محاولاً تعليلها ، وفي هذا كله تظهر الحاسة التاريخية المرهفة لدى المقريزي ، وقدرته على الاستيعاب وحسن العرض والتحليل والتفنيد والتعليل ، ويتضح هذا المنهج في كافة مؤلفات المقريزي كبيرها وصغيرها، خاصة كتاب «إغاثة الأمة بكشف الغمة »[١] .

خامسًا : عدم الإسراف في الاستطراد : أي الانتقال من موضوع إلى موضوع ثان ثم إلى ثالث لأتفه الأسباب وأوهى المناسبات ، في حين أن منهج البحث العلمي السليم يتطلب من الباحث تركيز الفكر في موضوع معين ، والوصول إلى الحقائق والنتائج عن أقصر الطرق ، وعدم تشتيت الذهن بمسائل أخرى بعيدة عن موضوع البحث الأساسي ، مهما تكن هذه المسائل على درجة من الأهمية والخطورة . إننا نلمس استقامة منهج الإمام المقريزي وعزوفه عن الاستطراد في جميع مؤلفاته الكبيرة والصغيرة ، ويبدو أنه أدرك ما تعاني منه الكتابة التاريخية من تطويل يفسد صورة التاريخ ، لذلك فالتزم الاعتدال والتمسك بالطريق الوسط ، فلا إطالة واستطراد ولا إيجاز ولا اختصار ، وهذا ما التزم به المقريزي في كتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » والكتب الأخرى .

سادسًا : العناية بمختلف طبقات الشعب وفئاته : من حيث أخبارهم في الوقت الذي يؤخذ على المؤرخين أنهم يتمشون مع الأوضاع التي تعتبر التاريخ ربيب الحكام والخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء والأعيان والمرموقين ، أما المقريزي فلم يكن باستطاعته أن ينزع نفسه من عصر نشأ وعاش فيه حيث يذكر في كتابته للتاريخ الحكام والسلاطين والأمراء ولا يهمل الإشارة إلى عامة الناس والشعب ، فلم يكن يكتب للخاصة وحدهم ، وإنما كان يكتب للعامة أيضًا ، خاصة أنه قد قسم المجتمع المصري في العصر المملوكي إلى عدة أقسام ولم يهمل فيها العامة[٢].

سابعًا : الابتعاد عن مداهنة الحكام : لقد ابتلى كثير من الكُتّاب بمداهنة الحكام والسلاطين والملوك حتى أصبحت هذه المداهنة آفة خطيرة ابتلى بها التاريخ على مرّ العصور ،

١- انظر المخطوطة ص ٩ ، ٢٥ ، حيث يعلل فيها المحن التي نزلت بالناس ، وانتقاده لسوء الأوضاع الاجتماعية .

٢ - انظر المخطوطة ، ص ٤٤ .

مما يجعل بعضهم يقلب الحق باطلاً والباطل حقًا ، وقد عاش المقريزى فى عصر اختلت فيه أمور طبقة المماليك الحاكمة ، واهتز نظامهم ، وفسدت أحوالهم ، وبدت صورتهم غير ما كانت عليه فى القرنين السابقين ، ولكنه لم يضعف أمام بريق الجاه ، ولم يصغر أمام السلاطين الذين عاصرهم والذين عرضوا عليه الوظائف والمناصب ، وقد آثر فى مرحلة معينة أن يعتزل ويبتعد عن الخدمة الحكومية ويترك المناصب للراغبين فيها ، واختار المقريزى أن يقضى المرحلة الأخيرة فى حياته عاكفًا فى بيته بالقاهرة على الاشتغال بالعلم والتأليف "[١] فلم يتـــرك داره إلا ليتجه إلى مكة حيث أقام مجاوراً بضع سنوات قليلة ، واصل خلالها الكتابة والتأليف ، وعاد بعدها إلى القاهرة مكبًا على حياته العلمية .

وبذلك لم يسمح المقريزى لنفسه أن يكون عبداً للسلطان أو أسيراً للوظيفة ، الأمر الذى جعله حراً فيما يكتبه ، وبالتالى فإنه لم يكن يتحرج من نقد الأوضاع القائمة ، وكشف النقاب عن أوجه الفساد فى جهاز الدولة ، وإلقاء المسئولية على عاتق السلاطين والحكام ، من ذلك إنه فى حوادث سنة ٨٣٢ هـ يتحدث عن جشع السلطان برسباى وتطرفه فى سياسة الاحتكار وإنزال المظالم بالتجار حتى حل بالناس بلاء لا يمكن حكايته [٢].

وفى حوادث سنة ٨٣٤هـ ينتقد بشدة الخلل الذى أصاب نظام الحكم وجهاز الحكومة فتزايدت المضرة لكثرة التناقض وعدم الثبات على الأمر واستخفاف العامة براعيها [٣]، وهكذا نلمس فى الإمام المقريزى قلمًا متطلقًا وفكراً حراً .

إن أهم ما امتاز به منهج المقريزى فى كتابة التاريخ هو عنايته بالظواهر الاجتماعية والاقتصادية ، بحيث يستطيع أن يتذوق القارئ اللماح فى كتاباته طعمًا جديداً ليس له نظير فى كتابات كثيرين من مؤرخى العصور الوسطى بوجه عام . ومع ذلك فالإمام المقريزى لديه نفسه الاستعداد والحاسة التى جعلته يطور تلك الجوانب ويجيد تطبيقها فى تسجيل الأحداث التاريخية ، كما نلمس عنده حاسة تاريخية مرهفة نابعة من داخله مكنته من ربط الأسباب بالنتائج ، ومن تفسير الروابط بين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والتطورات السياسية والإدارية .

---

١ - الضوء اللامع ، للسخاوى ٢ / ٢١ .

٢ - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، للمقريزى الجزء الرابع حوادث سنة ٨٣٢هـ .

٣ - المواعظ والاعتبار ، للمقريزى ١/ ٥٠ طبعة بولاق .

الموسوعية والتخصصية عند المقريزى :

كان الإمام المقريزى عميق الثقافة ، متسع المدارك ، أكثر من الكتابة والتصنيف حتى نال مكانة عظيمة بين علماء عصره ، مما جعل الكثير من الباحثين يصفونه من حيث مصنفاته العلمية بالموسوعية والتخصصية ، أي أن مؤلفاته منها كتب موسوعية ضخمة وأخرى تخصصية صغيرة .

أما الكتب التى تتسم بالموسوعية فقد عُنى فيها بالتاريخ العام ، وعُنى فيها بتاريخ مصر الإسلامى والسياسى ، فمن الكتب التى صنفها فى ثوب الموسوعية فى التاريخ العام كتاب "الخبر عن البشر " [١]، وكتاب " الدرر المضيئة فى تاريخ الدول الإسلامية " [٢]، وكتاب "إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأحوال والحفدة والمتاع "[٣]، والبعض الآخر ركز فيه المقريزى على تاريخ مصر الإسلامية ، وتراجم المشاهير من أهلها وأبنائها ، ومن هذا البعض كتاب " المقفى الكبير "[٤] فى تراجم أهل مصر والوافدين عليها ، وكتاب " درر العقود فى

١- كتاب " الخبر عن البشر " كتاب فى التاريخ العام ، قالت المصادر أن المقريزى جعله كالمدخل لكتابه "إمتاع الأسماع فيما للرسول من الحفدة والأتباع " ويذكر ابن تغرى بردى فى " المنهل الصافى " أنه فى أربعة مجلدات وعمل له مقدمة فى مجلد ، منه ستة أجزاء مخطوطة فى مكتبة أحمد الثالث برقم ٢٩٢٦ / ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ من ٨٥٨٩٩ إلى ٨٥٩٠٤ ، وهناك نسخة فى مكتبة فاتح باستامبول في ستة أجزاء بخط المؤلف ، مصورة فى دار الكتب بمصر تحت رقم (٩٤٧ تاريخ) فى ١٦ مجلداً . ونسخة ثالثة فى الأزهر رقم تاريخ ٤٣٩ (٦٧٣٣) أباظة الجزء الثانى فقط . انظر فى ذلك التاريخ العربى والمؤرخون ، شاكر مصطفى ١٤٦/٣ .

٢ - وهو كتاب يضم بين دفتيه من مقتل عثمان بن عفان إلى مقتل المستعصم ونهاية الخلافة العباسية سنة (٦٥٦هـ) ، وهو مخطوط فى كمبردج رقم ٤٩ فى ٢٧٣ ورقة كبيرة كتب بعد عهد المؤلف بقليل دون خاتمة وبه تزيينات .

٣ - وهو يتحدث فى شمائل النبى ﷺ والنبوات وآل الرسول والسيرة النبوية والهجرة والغزوات ، ومجموعة من الأخبار عن أحوال الرسول وأحكامه وأعماله ودقائق حياته وحديثه ، قد طبع فى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤١م بتحقيق محمود محمد شاكر ، وانظر التاريخ العربى والمؤرخون شاكر مصطفى ١٤٦/٣، والمعجم الشامل للتراث العربى المطبوع محمد صالحية ١٤٠/٥ .

٤ - وهو كتاب حافل فى تراجم الملوك والأمراء والعلماء المصريين أو من عرفتهم مصر من جميع الأقطار ، وقد جعله المقريزى على حروف المعجم ، وقد طبع ببيروت بدار العلم عام ١٩٧١م بتحقيق سهيل زكار ، وطبعة تونس عام ١٩٨٦م بتحقيق محمد اليعلاوى ، وطبعة بيروت دار المغرب الإسلامى عام ١٩٨٧م ، انظر التاريخ العربى والمؤرخون شاكر مصطفى ١٤٥/٣ ، والمعجم الشامل للتراث المطبوع محمد صالحية ١٤٥/٥ .

تراجم الأعيان المفيدة "[١]، وهذان الكتابان فى التراجم ، خصص أولهما لتراجم البارزين من أهل مصر ، والذين وفدوا عليها وأقاموا فيها منذ الفتح العربى الإسلامى ، والثانى خصصه المقريزى لتراجم المشاهير من معاصريه .

أما فى تاريخ مصر السياسى فنلاحظ أن الإمام المقريزى قد كتب فى تاريخ مصر السياسى ثلاثة كتب تغطى تاريخها منذ الفتح العربى حتى أيامه ، مثل كتاب " عقد جواهر الأسفاط فى تاريخ مدينة الفسطاط "[٢] ويعالج تاريخ مصر الإسلامية حتى بداية العصر الفاطمى ، والثانى كتاب " اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا "[٣] وقد عالج فيه تاريخ مصر الفاطمية ، أما الثالث فهو كتاب " السلوك لمعرفة دول الملوك " ، وقد أرخ فيه الإمام المقريزى لمصر منذ بداية الدولة الأيوبية حتى قبيل وفاته فى سنة ٨٤٥هـ ، وهذه الكتب الثلاثة الأخيرة التى خصصها المقريزى لعلاج تاريخ مصر السياسى فى العصور الإسلامية يكملها الكتاب الذى أفرده لعلاج تاريخ مصر العمرانى ، ونعنى به كتابه " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار "[٤] وهو موسوعة تاريخية سياسية ، اقتصادية ، اجتماعية ثقافية فنية .

---

١ - كتاب " درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة " ثلاث مجلدات ، ترجم فيه لأعيان عصره البارزين منهم علماء اليمن ، وقد نقل عنه السخاوى فى الضوء اللامع عدداً من التراجم وبخاصة المتصوفة من أهل اليمن وعدد تراجمه ٥٥٦ ترجمة ، ومن هذا الكتاب نسخة مخطوطة فى مجلدين نقلت عن نسخة بخط المؤلف سنة ٨٧٨هـ وتقع فى ٢٩٢ ورقة وهى فى مكتبة آل الجليلى الخاصة فى الموصل ، انظر التاريخ العربى والمؤرخون شاكر مصطفى ٣ / ١٤٨.

٢ - وهو أول كتاب كتبه المقريزى فى تاريخ مصر الإسلامى الأول ، ثم أتبعه بكتاب " اتعاظ الحنفا " فى تاريخ مصر زمن الفاطميين ليأتى من بعدهما " كتاب السلوك " فيغطى العهدين الأيوبى والمملوكى . ومنه نسخة مخطوطة فى برلين ضمن مجموعة خطية تحمل رقم ٩٨٤٥ . انظر التاريخ العربى والمؤرخون ، شاكر مصطفى ١٤٨/٣.

٣ - وهو أوفى مصدر في التاريخ الفاطمى ، يؤرخ أولاً للنسب الفاطمى ثم عن الفتح الفاطمى لمصر ثم خلفاء الفاطميين الواحد بعد الآخر حتى نهاية الدولة ، وقد طبع عدة طبعات منها طبعة مطبعة دار الأيتام الإسلامية - القدس - عام ١٩٠٩م ، وطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٨م . القاهرة ، بتحقيق جمال الدين الشيال - وطبعة أخرى له بدار التحرير للطباعة والنشر عام ١٩٦٧م. انظر التاريخ العربى والمؤرخون شاكر مصطفى ١٤٤/٣ ، والمعجم الشامل للتراث العربى المطبوع محمد صالحية ١٣٧/٥ ، ١٣٨ .

٤- وهو موسوعة تاريخية مشهورة طبعت أكثر من طبعة بباريس عام ١٨٢٦م ، وطبعة بولاق ١٨٥٣م وطبعة النيل ١٩٠٦م ، وطبعة المعهد الفرنسى بالقاهرة ١٩١١ - ١٩٢٨م ، وطبعة بيروت ١٩٥٩م ، وطبعة دار التحرير بالقاهرة ١٩٦٧م ، انظر المعجم الشامل للتراث العربى المطبوع محمد صالحية ١٤٥/٥ - ١٤٦ .

أما الكتب التى تتسم بالتخصصية الصغيرة ، فإنها رغم صغر حجمها كبيرة القيمة ، لأن كلاً منها عبارة عن رسالة قيّمة عالج فيها الإمام المقريزى مشكلة من مشاكل التاريخ ، أو جانبًا مهملاً من جوانبه أو طرفة من طرف المعرفة ، بحيث يسد كل منها ثغرة أحس بوجودها فى عالم الفكر والمعرفة ، وتتصف هذه الكتب الصغيرة بالتركيز والإيجاز ، ويغلب عليها أن يتعرض كل كتاب منها لمشكلة معينة فى التاريخ الإسلامى فمن بين هذه الكتب كتاب "النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم "[١] يعالج فيه مشكلة قديمة فى التاريخ ، وكتاب "الإلمام بأخبار مَنْ بأرض الحبشة من ملوك الإسلام " [٢]، وكذلك كتاب " الطرفة الغريبة من أخبار حضرموت العجيبة "[٣] يعالجان بعض الجوانب المهملة فى التاريخ الإسلامى ، أما كتاب "الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك "[٤] ، وكتاب " تراجم ملوك الغَرْب "[٥] فيعرِّفان بمجموعة من ملوك الإسلام ، ربط بينهم نشاط واحد أو ركن واحد من أركان الدولة الإسلامية البعيدة .

---

١ - هو رسالة صغيرة طبعت أكثر من طبعة ، طبعة ليدن عام ١٨٨٨م بعناية جيراردوس ، وطبعة مكتبة الأهرام - القاهرة عام ١٩٣٧م بعناية وتصحيح محمود عرنوس ، وطبعة النجف عام ١٩٤٩م بتحقيق على بن حسين الهاشمى ، وطبعة المكتبة الحيدرية بالنجف عام ١٩٦٦م تقديم محمد بحر العلوم ، انظر المعجم الشامل للتراث العربى المطبوع ، محمد عيسى صالحية - القاهرة ١٩٩٥م ٥ / ١٤٧ .

٢ - كتب المقريزى هذا الكتاب فى مكة عام ٨٣٩ هـ ، وحرره فى مصر عام ٨٤١ هـ بعد تدقيقه ، وقد تم طبعة أكثر من مرة ، طبعة القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر لعام ١٨٩٥م ، وطبعة القاهرة ، مطبعة الموسوعات لعام ١٩٠٠م ، انظر ذلك فى المعجم الشامل للتراث العربى المطبوع ، محمد عيسى صالحية ٥ / ١٣٩ - ١٤٠ .

٣ - هى رسالة كتبها وهو مجاور فى مكة سنة ٨٣٩هـ وقد طبعت مشروحة مصورة سنة ١٨٦٦م في بون بعناية المستشرق سكوى باللغتين العربية واللاتينية ، انظر التاريخ العربى والمؤرخون ، لشاكر مصطفى ١٤٧/٣.

٤- كتبه المقريزى سنة ٨٤١هـ وذكر فيه ٢٦ من هؤلاء الحجاج بدأهم بالرسول ﷺ ثم الخلفاء الراشدين ومَنْ بعدهم إلى أيامه فى خمسة أجزاء ، قد طبع بلجنة التأليف والترجمة ، والنشر بالقاهرة ١٩٩٥م ، تحقيق جمال الدين الشيال ، انظر المعجم الشامل للتراث العربى المطبوع ، محمد عيسى صالحية ٥ / ١٤١ .

٥ - من هذا الكتاب نسخ مخطوطة عديدة فى ليدن وفيينا ، انظر التاريخ العربى والمؤرخون ، شاكر مصطفى ١٤٩/٣ .

وهناك من هذه الكتب الصغيرة ما قصد به المقريزى إلقاء الضوء على بعض الأوضاع المعاصرة مثل كتاب " البيان والإعراب بمن نزل أرض مصر من الأعراب "[١] وهو يعرف بالقبائل العربية المنتشرة فى مصر على أيام المؤلف ، كما تناول الإمام المقريزى فى بعض كتبه الصغيرة جوانب من العلوم البحتة ، مثل كتابه " المقاصد السنية لمعرفة الأجسام المعدنية "، فهو يتكلم عن المعادن والأجسام المتولدة من الأبخرة والأدخنة المحتبسة فى الأرض ، ويفرق بين المعادن القابلة للطرق - وهى الذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد والأسراب والخارصين، والمعادن غير القابلة للطرق بسبب ليونتها كالزئبق ، أو الأجسام الصلبة التى تتعرض للكسر فى حالة الطرق ، مثل اليواقيت والشب والنوشادر .

كما يتعرض الإمام المقريزى لبعض الكتب الصغيرة والتى تتناول فى حديثها النحل وأنواعه ومراحل نموه وطباعه وألوانه وأحجامه ، ثم عن بيوت النحل أو خلاياه فى الجبال والسهول وأنواعها مثل كتاب " نحل عبر النحل "[٢].

كما تعرض أيضًا فى كتبه الصغيرة عن ربط الحياة الواقعية والاقتصادية بكلامه ، فإنه عندما يتحدث عن النحل فإنه يوضح القيمة الاقتصادية للنحل وللعسل كمورد هام من موارد الدولة ، وعن الشمع الذى يخرج من بيوت النحل الذى يستخدم فى الإضاءة . وهناك من الكتب الصغيرة ذات قيمة اقتصادية واجتماعية كبيرة مثل كتاب " إغاثة الأمة بكشف الغمة"[٣] حيث تضمنه المقريزى كثيراً من الآراء والنظريات التى سبق بها عصره بكثير ، كما يتعرض فيه لتاريخ المجاعات والأوبئة التى أصابت مصر وأهلها منذ القدم ، مما يدل على مدى عناية منهجه التاريخى بالظواهر الاقتصادية والاجتماعية هذه العناية أكسبت كتابته طعمًا جديداً ليس له نظير .

---

١ - وقد طبع هذا الكتاب أكثر من طبعة ، فقد طبع بعناية فرديناندو ستنفلد طبعة أجنبية ١٨٤٧م ، وطبعة القاهرة مطبعة المعارف لعام ١٩١٥م. ، وطبعة مكتبة عالم الكتب - القاهرة لعام ١٩٦١م تحقيق عبدالمجيد عابدين ، انظر فى ذلك المعجم الشامل للتراث العربى المطبوع ، محمد عيسى صالحية ٥ / ١٤٠ - ١٤١ .

٢ - وقد طبع هذا الكتاب فى مكتبة الخانجى - بالقاهرة عام ١٩٤٦م . انظر المعجم الشامل للتراث العربى المطبوع ، محمد عيسى صالحية ١٤٦/٥ - ١٤٧ .

٣- وهو الكتاب الذى نحن بصدد تحقيقه وعمل هذه الدراسة .

المقريزى وتحليل الظواهر الاقتصادية والربط بينها :

المتتبع لكتابات الإمام المقريزى من خلال كتاب " إغاثة الأمة بكشف الغمة "، يلاحظ أنه يسرد أخبار الأزمات الاقتصادية والغلوات التى حلت بمصر ، ومن خلال هذا السرد ومن بين سطوره نلاحظ مدى ما يتمتع به الإمام المقريزى من حاسة تاريخية مرهفة ، وقدرة عالية على تلمس الظواهر الاقتصادية وتحليلها والربط بينها ، فالإمام المقريزى لا يقتصر على السرد ، ولم يقف عند هذا الحدّ وإنما انتقد كثيراً من الأوضاع الاقتصادية التى التمسها فى عصره والتى لم يرض عنها واقتنع بأنها سبب الفساد والتردى، هذه الحاسة الاقتصادية بدت واضحة فى كتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » الذى دونّه من منطلق اقتصادى بحت وفى ظل ظروف اقتصادية قاسية ، وإنما يعلق بقدر ما يسمح به حجم كتابه الموجز على الأحداث مبديًا ما يرتبط بها من مؤشرات اقتصادية متنوعة ، ومن بين هذه التحليلات والتعليقات التى أبداها الإمام المقريزى على سبيل المثال لا الحصر :

* عندما يقصر ماء النيل يصحبه مباشرة الغلاء وارتفاع الأسعار ، وكانت أسعار صرف العملة أول ما يتأثر بهذه التطورات ، ويحدثنا المقريزى عن الغلاء الذى حدث سنة ٣٨٧هـ فيقول : " فارتفعت الأسعار ، ووقفت الأحوال فى الصرف ، فإن الدراهم المعاملة كانت تسمى يومئذ بالدراهم المزايدة والقطع ، فتعنت الناس فيها ، وكان صرف الدينار ستة وعشرين درهمًا منها ، فتزايد سعر الدينار إلى أن كان فى سنة ٣٩٧هـ كل أربعة وثلاثين درهمًا بدينار ، وارتفع السعر وزاد اضطراب الناس ، وكثر عنتهم فى الصرف " [١].

* كما نلاحظ من العادة فى كل زمان ومكان ، أن التجار والباعة يستغلون فرصة الغلاء لتحقيق مكاسب ضخمة ، والمقريزى يصف لنا الغلاء الذى حدث فى سنة ٦٩٦هـ فى أيام السلطان العادل كتبغا (١٢٩٤ - ١٢٩٦ م) فيقول : " وكثرت أرباح التجار والباعة ، وازدادت فوائدهم ، فكان الواحد من الباعة يستفيد فى اليوم المائة والمائتين ويصيب الأقل من السوقة ربحًا فى اليوم ثلاثين درهمًا ، وكذلك كانت مكاسب أرباب الصنائع ، واكتفوا بذلك ،

---

١ - انظر المخطوطة ، ص ٩ .

طول الغـلاء "[1] فلم يفت المقريزى أن يوضح مدى ما أصاب هؤلاء المستغلين من بلاء أنزله الله بهم - عقوبة لهم - حتى " أصيب جماعة كثيرة ممن ربح فى الغلال من الأمراء والجند وغيرهم فى مدة الغلاء ، إما فى نفسه بآفة من الآفات ، أو بإتلاف ماله الإتلاف الشنيع ، حتى لم ينتفع به "[2].

* إن المتتبع لهذه الغلوات يجد أنها بلغت درجة من القسوة والشدة حتى جعلت الناس يأكلون القطط والكلاب ، ويذكر الإمام المقريزى ذلك فيقول : ؛ قَلّتْ الكلاب ، فبيع الكلب ليؤكل بخمسة دنانير "[3]، ثم يقول : " أكل الناس بعضهم بعضًا ، وتحرز الناس ، فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ، ومعهم سلب وحبال فيها كلاليب ، فإذا مرّ بهم أحد ألقوها عليه ونشلوه فى أسرع وقت وشرحوا لحمه وأكلوه " [4]، ثم يصف المقريزى الغلاء الذى حدث فى سنة ٥٩٦هـ فيقول : " وعُدم القوت حتى أكل الناس صغار بنى آدم من الجوع ، فكان الأب يأكل ابنه مشويًا ومطبوخًا ، والمرأة تأكل ولدها " [5]. ولكن أقول إن فى كلام الإمام المقريزى هذا مبالغة ، ومبالغة غير مقبولة ، فلعله يريد أن يبين لنا مدى قسوة تلك الأزمات ، ومدى ما أحدثته الغلوات بالناس .

* فى نفس الوقت يبين الإمام المقريزى أن هذه النكبات الاقتصادية لابد وأن تكون آفات سماوية ، بمثابة عقوبة إلهية للبشر بسبب بعدهم عن الله عز وجل ، وعدم التزامهم بشرعه وإتيان فرائضه فيقول : " إنما تحدث من آفات سماوية ، إذا خالفوا أمره ، وأتوا محارمه ، أن يصيبهم بذلك جزاء بما كسبت أيديهم " [6]، ويبدو أن هذا التعليل كان بمثابة التفسير الأول والأولى الذى حاول به المعاصرون - حكامًا ومحكومين - تعليل المحن التى نزلت بهم ، ولذلك

١- انظر المخطوطة ، ص ٢٢ .

٢ - انظر المخطوطة ، ص ٢٣

٣ - انظر المخطوطة ، ص ١٥ .

٤ - انظر المخطوطة ، ص ١٥ .

٥ - انظر المخطوطة ، ص ١٧ ، ١٨ .

٦- انظر المخطوطة ، ص ٢٥ .

كثيراً ما كان الناس فى تلك الأزمات يعلنون توبتهم ، فيكثرون من الصلاة ، كما يلجأ الحكام إلى إصدار الأوامر بإراقة الخمور وتحريم تعاطيها فى مختلف أنحاء البلاد ، إظهاراً للتوبة"[١].

* إن المسئول الأول عن هذه المحن هم الحكام ، فالشعب لم يعفهم من المسئولية ، والدليل على ذلك أنه فى كثير من الأحيان والحالات تثور الرعية[٢] كما حدث فى أيام الغلاء سنة ٧٩٨هـ أن هدد العوام المحتسب وكانت السلاطين تخشى غضبتهم ، فقد لجأ بعض السلاطين عند حدوث غلاء إلى الأمر بجمع الفقراء وذوى الحاجات وتوزيعهم على الأغنياء والأمراء ، بحيث يلتزم كل غنىّ وكل أمير بإطعام عدد منهم معين [٣]، وفى الغلاء الذى حدث سنة ٧٧٦هـ أمر السلطان الأشرف شعبان ، بجمع الفقراء ، ووزعهم على الأمراء ومياسير التجار"[٤]. ولا شك فى أن احتكار سلاطين المماليك لبعض السلع والغلات الهامة مثل التوابل والبخور أدى إلى ارتفاع أثمانها ارتفاعًا فاحشًا ، وقد بلغت سياسة الاحتكار هذه أشدها على عهد السلطان الأشرف برسباى (٨٢٥ هـ / ١٤٢٢م - ٨٤١ هـ / ١٤٣٨م)[٥].

* لقد كان المقريزى شديد الإيمان بأن الكوارث الاقتصادية هى عادة الله عز وجل فى الخلق إذا خالفوا أمره وأتوا محارمه ، ومع ذلك ذكر أن كل أزمة من الأزمات وكل كارثة من الكوارث كان وراء حدوثها نقص النيل وعدم وفائه ومع ذلك أرجع الأمر أيضًا فساد الخطط السلطانية ، وغلاء الأطيان ورواج الفلوس وطغيان العملة النحاسية على العملة الذهبية ، مما جعل الإمام المقريزى يكتب كتابه " إغاثة الأمة بكشف الغمة " .

إذا كان الجانب الاقتصادى قد ظهر جليًا فى كتابات الإمام المقريزى فإن الجانب الاجتماعى فى كتاباته لا يقل شأنًا ولا أهمية ، ولما كانت الأوضاع الاجتماعية مرتبطة بأحكام الدين وآدابه من ناحية ، وبالظروف الاقتصادية من ناحية أخرى ، فإننا نجد الإمام المقريزى ينتقد

---

١ - انظر كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى ، حوادث ٧٠٩هـ ، ٧٨١هـ ، ٨٣١هـ .

٢ - انظر المخطوطة ، ص ٧ .

٣ - انظر كتاب السلوك للمقريزى ، ٢٤٢/٣ - ٢٤٣ .

٤ - انظر المخطوطة ، ص ٢٥ .

5 - Wiet : L'Egypte Arabe, p. 578 .

سوء أرضاع المجتمع من خلال سرده التاريخى ، ومن خلال معالجته للجوانب الاقتصادية .

لذلك وضع الإمام المقريزى تقسيمًا للمجتمع المصرى فى عصر المماليك فجعل أهل مصر سبعة أقسام : المماليك وهم أهل الدولة ، وأهل اليسار من التجار ، وأولى النعمة من ذوى الرفاهية، والباعة ومتوسطو الحال من التجار ، ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة وأهل الفلح ، والفقراء وهم جلّ الفقهاء وطلاب العلم ، والكثير من أجناد الحلقة وأرباب الصنائع والأجراء أصحاب المهن ، وأخيراً ذوو الحاجة والمسكنة وهم : " السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم " (١).

---

١ - انظر المخطوطة ، ص ٤٤

المبحث السابع

النقد التاريخى عند الإمام المقريزى

لم يكن الإمام المقريزى فى مادته التأريخية مجرد ناقل عن مصادره ، أو راصداً لها من خلال مشاهداته وما سمعه ، وإنما كان إلى جانب ذلك مؤرخًا ناقداً ، تنوعت جوانب النقد لديه، لتتمثل فى كشفه عن العامل الرئيسى والهدف الحقيقى من كتابة هذا الكتاب ، ووصفه للحوادث بتفرد عظيم له السبق فى هذا العمل ، وتفسير الحوادث بالكشف عن علتها وبيان أسبابها ، وتهكمه وسخريته على التصرف فى بعض الحوادث ، والإفصاح عن عاطفته تجاه بعض الأحداث ، ومواطن العبر والعظة فى الأحداث ، وذلك على النحو التالى :

أولاً : الكشف عن العامل الرئيسى والهدف الحقيقى من الكتاب :

يمثل هذا العامل ما له من قيمة اقتصادية واجتماعية كبيرة ، حيث ضمنه الإمام المقريزى كثيراً من الآراء والنظريات التى سبق بها عصره بكثير ، وفى هذا الكتاب يتعرض المقريزى لتاريخ المجاعات والأوبئة التى أصابت مصر وأهلها منذ القدم ، وحتى المجاعة الشديدة التى عاصرها (٧٩٦ – ٨٠٨ هـ) والتى فقد فى الطاعون الذى صحبها ابنته الوحيدة سنة ٨٠٦هـ، ويبدو أن هذه المحنة التى ابتلى بها المقريزى جعلته يتحمس لتأليف الكتاب المذكور "إغاثة الأمة بكشف الغمة " إذ يقول عن نفسه : " تيسر لى ترتيب هذه المقالة وتهذيبها فى ليلة واحدة من ليالى المحرم سنة ثمان وثمانمائة "[1].

فهو دراسة ناقدة تحليلية ، يغلب عليها الطابع الاقتصادى الاجتماعى ، ومن خلال هذه الدراسة ينتقد المقريزى كثيراً من الأوضاع القائمة فى الدولة وما يرتبط بها من سوء تصرفات الحكام ، ويرجع الأزمات الاقتصادية التى تحل بالبلاد إلى تلك الأوضاع والتصرفات ، وفى الوقت نفسه نرى المقريزى يحلل تلك الأزمات تحليلاً اقتصاديًا يجمع بين العمق والإيجاز ، ويشرح ما لها من آثار اقتصادية واجتماعية ، مما يجعل من كتابه هذا ظاهرة فكرية لها أهميتها وخطورتها فى عصر سلاطين المماليك .

---

١ – انظر المخطوطة ، الصفحة الأخيرة .

لقد استهدف الإمام المقريزى من هذا الكتاب توضيح حقيقتين كبيرتين ، الأولى : بيان الأسباب التى نشأ منها كل المصائب والكوارث ، وكيف تمادى بالبلاد والعباد هذا المصاب الشنيع ، والثانية : بيان ما يزيل ويقضى على هذا الداء ويرفع هذا البلاء عن مصر والمصريين.

هذه الأزمة التى دفعته إلى الكتابة ليست الأولى من نوعها في تاريخ مصر وأهلها ، وليست بحالة من الأحوال أشد وأقصى من غيرها ، وإن بدت فى نظر المعاصرين إذ يقول : "القليل من المشاهدة أرسخ من الكثير من الخبر ، إذ مقاساة اليسير من الشدة أشق على النفس من تذكر الكثير مما سلف منها .. " [١].

ثانيًا : وصف الحوادث بالتفرد فيها :

يلمس الباحث صفة متأصلة فى الإمام المقريزى عندما يكتب وهى التدقيق والرغبة فى معرفة أسباب الظواهر وعلل الأحداث ، لذلك يسمو الإمام المقريزى فوق مستوى كثيرين غيره من المؤرخين السابقين والمعاصرين ، فكثيراً ما يقف أمام الرواية أو الخبر ليناقش ويفند ، مستقصيًا أسبابها ، محاولاً تعليلها .

لقد تفرّد الإمام المقريزى وتمتع بحاسة اقتصادية اجتماعية ظهرت واضحة من خلال كتابه هذا ، وتفسيره للروابط بين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والتطورات السياسية والإدارية، من يقظة وسرعة بديهة ، وقدرة فائقة على الالتقاط والربط والتعليل ، فكان الإمام المقريزى متفرداً فى ذلك إذ يقول : " أفرد كتابًا يتضمن ما حلّ بهذا النوع الإنسانى من المحن والكوائن المجيحة ، منذ آدم عليه السلام ، وإلى هذا الزمن الحاضر ، فإنى لم أر لأحد فى ذلك شيئًا مفرداً "[٢].

ثالثًا : تفسير الحوادث بالكشف عن العلة :

استطاع الإمام المقريزى أن يكشف عن السبب أو الأسباب من خلال تفسيره للأزمات التى وقعت وأحدثت المجاعات بمصر وأهلها ، ومع أنه يؤمن بأن المحن والكوارث الاقتصادية هى "سُنّة الله تعالى فى الخلق ، إذا خالفوا أمره وأتوا محارمه ، ومن خان عهد الله وأمانته فيما

انظر المخطوطة ، ص ٣ .

انظر المخطوطة ، ص ٥ .

استرعاه من أمور عباده بإظهار الفساد وإهلاك العباد ، ولم يصغ إلى الحق ، وفساد نظر مَنْ أُسند إليه النظر فى ذلك ، وجهله بسياسة الأمور "(١) ، وقد أرجع الإمام المقريزى حدوث الأزمة فى مصر وأهلها إلى ثلاث علل هى :

العلة الأولى : انتشار الرشوة فى ولاية الخطط السلطانية والمناصب العامة ، ومن هذه المناصب ما هو عظيم القدر كبير المقام كالوزارة والقضاء ، وتولى نيابة الأقاليم وولاية الحسبة، الأمر الذى جعل ولايتها " لكل جاهل ومفسد وظالم وباغ " وكان يكفى أن يتوصل أحد هؤلاء إلى بعض رجال حاشية السلطان ويعده بمال للسلطان على ما يريده من الأعمال ، حتى يتسلم ما كان يرغب فيه من منصب عظيم على وجه السرعة ، وغالبًا ما يتولى منصبه الجديد وليس معه من المال ما يؤديه للسلطان وحاشيته وفاءً لوعده ، فيضطر إلى الاستدانة ، ويمد يده إلى أموال الرعية ، ويتعسف فى أثقالها بالالتزامات ليحصل على ما يريد ، فإذا كان صاحب الوظيفة متوليًا عملاً من أعمال الريف ، فإنه يثقل كواهل الفلاحين بما يفرضه عليهم من ضيافات سنية وتقادم جليلة من الخيول والرقيق وغير ذلك ، ثم يمضى الإمام المقريزى فى تفسيره وتعليله فيقول : " إنه لما دهى أهل الريف بكثرة المغارم وتنوع المظالم ، اختلت أحوالهم وهجروا الأرض ، فقلت مجابى البلاد ومتحصلها لقلة ما يزرع بها ، ولخلو أهلها ورحيلهم عنها ، لشدة الوطأة من الولاة عليهم ، لذلك يعتبر المقريزى هذا السبب أصل الفساد" (٢).

العلة الثانية : اعتبر المقريزى غلاء الأطيان هو السبب الثانى لهذه الأزمة التى عاصرها سنة ٨٠٦ هـ حيث أن خدم الأمراء ووكلائهم " أحبُّوا مزيد القربة منهم ، ولا وسيلة أقرب إليهم من المال ، فاستحضروا مستأجرى أراضى الأمراء من الفلاحين وضاعفوا عليهم قيمة الإيجارات عامًا بعد عام ، حتى أن إيجار العزاق - بعد حوادث هذه الأزمنة - صار عشرة أمثال مَا كان عليه قبلها ، وهكذا تضاعفت تكاليف الزراعة فى الوقت الذى اشتدت وطأة الأمراء وأصحاب الاقطاعات على أهل الفلح وكثرت المغارم فى عمل الجسور وغيرها فخرب بما ذكرنا معظم القرى وتعطلت أكثر الأراضى من الزراعة ، فقلت الغلال وغيرها مما تخرجه الأرض ، لموت أكثر الفلاحين وتشردهم فى البلاد من شدة السنين وهلاك الدواب "(٣).

---

١ - انظر المخطوطة ، ص ٥٠ ، ٥١ .

٢ - انظر المخطوطة ، ص ٢٧ .

٣ - انظر المخطوطة ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

العلة الثالثة : رواج الفلوس ، ويعنى بالفلوس هنا العملة النحاسية الصغيرة التى كثر استخدامها فى ذلك العصر حتى طغت على غيرها من الدنانير الذهبية والدراهم الفضية ، يقول الإمام المقريزى : "سُنة الله فى خلقه وعادته المستمرة منذ كانت الخليفة إلى أن حدثت هذه الحوادث " [١]، هى أن يكون الذهب والفضة فقط قاعدة التعامل بين الناس ، وبعد دراسة مفصلة يأتى بها الإمام المقريزى عن أصل النقود وتطورها قبل الإسلام، وفى ظل الإسلام[٢] يختص مصر بفصل خاص ، يستهله بالقول بأن الذهب ظل قاعدة التعامل الاقتصادى فى مصر[٣]، وأما الفضة فكانت تستخدم فى مصر حليًا وأوانى ، وقد يضرب منها الشىء القليل للمعاملات اليومية المحدودة التى تحتاج إليها البيوت وقد تزايد أمر الدراهم الفضية منذ أيام الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، ومنذ ذلك الوقت ضربت الفضة نقوداً فى مصر ، وازداد تداول الدراهم الفضية ، وهكذا حتى عهد السلطان الكامل محمد الأيوبى ، فضرب سنة ٦٢٢هـ دراهم مستديرة أطلق عليها اسم الكاملية ثلثاها فضة والثلث نحاس ، ولم تلبث هذه الدراهم أن حلت محل الذهب فى التعامل ، وانتشر استعمالها فى مصر والشام بقية العصر الأيوبى ، ثم فى عصر المماليك ، وصارت المبيعات الجليلة تباع وتقوم بها وإليها تنسب عامة أثمان المبيعات وقيم الأعمال ، وبها يؤخذ خراج الأرضين وأجرة المساكن وغير ذلك [٤].

وأما الفلوس النحاسية فيذكر الإمام المقريزى أنها خصصت للمحقرات من الأشياء ، أى للتعامل فى الأشياء التافهة التى لا تسمو فى قيمتها إلى أن تباع بدرهم أو بجزء منه ، وقد كثر ضرب الفلوس منذ أيام الكامل الأيوبى ، بحيث كان الدرهم الكاملى يصرف بثمانية وأربعين فلسًا ، ومع تتابع الأزمات ، أكثر سلاطين المماليك من ضرب الفلوس ، فكثرت وخف وزنها حتى صار التعامل بها منذ سنة ٦٩٥هـ يتم بالميزان ، بحيث يكون الرطل منها بدرهمين، وكان هذا أول ما عُرف بمصر من وزن الفلوس والمعاملة بها وزنًا لا عدداً"[٥].

---

١ - انظر المخطوطة ، ص ٢٩ .

٢ - انظر المخطوطة ، ص ٣٨ ، ٤٥ .

٣ - انظر المخطوطة ، ص ٣٨ .

٤ - انظر المخطوطة ، ص ٤٠ .

٥ - انظر المخطوطة ، ص ٤٣ .

وهكذا حتى كانت أيام السلطان الظاهر برقوق ، فأكثر من ضرب الفلوس النحاسية ، وبعث إلى بلاد الفرنجة لجلب النحاس الأحمر لضربها ، واتخذ الإسكندرية دار ضرب لعمل الفلوس ، فكثرت الفلوس بأيدى الناس كثرة بالغة ، وراجت رواجًا صارت من أجله هى النقد الغالب فى البلد .

هذه هى العلل الثلاث التى علل بها المقريزى للأزمة الاقتصادية التى تعرضت لها مصر ، والتى دوَّن كتابه " إغاثة الأمة بكشف الغمة " تحت وطأتها ، وبتحليل الأسباب التى ذكرها الإمام المقريزى فى كتابه لتلك الأمة ، نجد أنه جمع بين أمرين هما : الأزمة الاقتصادية التى تعرضت لها البلاد سنة ٨٠٦هـ ، أما الأمر الثانى فهو اختلال أوضاع الدولة إداريًا واقتصاديًا الأمر الذى جعل الأزمة لا تنفرج رغم زوال سببها الطبيعى المرتبط بنهر النيل .

أما العلل الثلاث التى ذكرها المقريزى ، وفسر فى ضوئها سوء الأوضاع سنة ٨٠٨هـ ، فترجع فى جوهرها إلى الفساد الذى أخذ يدب فى جسم الدولة بعد أن انحل نظامها ، وفقدت اتزانها ودبت الشيخوخة المبكرة فى جسمها . فيقول المقريزى ما نصه : " وبعد ، فإنه لما طال أمد هذا البلاء المبين – يعنى أزمة ٨٠٦ – ٨٠٨هـ وصل فيه بالخلق أنواع العذاب المهين ، ظن كثير من الناس أن هذه المحن لم يكن فيما مضى مثلها ، ولا مرَّ على زمن شبهها ، ومن تأمل هذا الحادث من بدايته إلى نهايته ، وعرفه من أوله إلى غايته ، علم أن ما بالناس سوى تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد ، لا أنه كما مرَّ من الغلوات وانقضى من السنوات المهلكات ، إلا أن ذلك يحتاج إلى إيضاح وبيان ويقتضى إلى شرح وتبيان [١] .

رابعًا : التهكم من التصرف فى الأحداث :

من خلال كتاب إغاثة الأمة للإمام المقريزى نلاحظ في كثير من المواضع والصفحات تهكمه على بعض الأمور والأحداث ، وذلك على النحو التالى : يقول الإمام المقريزى : " لما طال أمد هذا البلاء المبين ، وحل فيه بالخلق أنواع العذاب المهين ، ظن كثير من الناس أن هذه المحن لم يكن فيما مضى مثلها ولا مرَّ فى زمن شبهها ، وتجاوزوا الحد فقالوا لا يمكن زوالها ، ولا

---

١ – انظر المخطوطة ، ص ٢ ، ٣

يكون أبداً عن الخلق انفصالها وذلك أنهم قوم لا يفقهون ، وبأسباب الحوادث جاهلون ، ومع العوائد واقفون ، ومن روح الله آيسون "[١].

نلاحظ من خلال الفقرة السابقة مجموعة كلمات تدل على تهكم الإمام المقريزى من تصرف بعض الناس مثل كلمة " لا يفقهون ، جاهلون ، واقفون ، آيسون " .

ويقول : فأهل الدولة لو ألهموا رشدهم ، ونصحوا أنفسهم ، لعلموا أنهم لم ينلهم ربح البتة بزيادة الأطيان ، ولا بغلاء سعر الذهب الذى كان أصل هذا البلاء ، وسبب هذه المحن ، بل هم خاسرون " .

ويقول : " فالبائس لغباوته يزعم أنه استفاد ، وفى الحقيقة إنما خسر "[٢].

ويقول : " وأما باعتبار ما دهى الناس من كثرة الفلوس فأمر لا أشنع من ذكره ، ولا أفظع من هوله ، فسدت به الأمور ، واختلت به الأحوال ، وآل أمر الناس بسببه إلى العدم والزوال ، وأشرف من أجله الإقليم على الدمار والاضمحلال "[٣].

خامسًا : الإفصاح عن عاطفته تجاه بعض الأحداث :

نلاحظ من خلال هذا الكتاب عاطفة الإمام المقريزى الدينية القوية ، والمجلة لمصر وأهلها ، ومدى خوفه عليها وشفقته عليها وعلى أهلها ، وتظهر هذه العاطفة من خلال أقواله التالية : " اعلم زيدك الله بروح منه ووفقك إلى الفهم عنه ، أنه لم تزل الأمور السالفة كلما كانت أصعب على من شاهدها ، كانت أظرف عند من سمعها "[٤]، ويقول : " اعلم حاط الله نعمتك وتولى عصمتك ، أنّ الغلاء والرخاء مازالا يتعاقبان فى عالم الكون والفساد ، منذ برأ الله الخليقة فى سائر الأقطار وجميع البلدان والأمصار "[٥].

---

١ - انظر المخطوطة ، ص ٢ .

٢ - انظر المخطوطة ، ص ٤٢ .

٣ - انظر المخطوطة ، ص ٤٩ .

٤ - انظر المخطوطة ، ص ٣ .

٥ - انظر المخطوطة ، ص ٤ ، ٥ .

ويقول : " اعلم تولى الله أمرك بالحياطة والهداية ، ولا أخلاك من الكفاية والعناية أن الغلاء الذى حلّ بالخلق منذ كانت الخليقة ، فيما نُقل من أخبارها بسائر البلاد فى قديم الزمان وحديثه ، على ما عُرف من أحوال الوجود وطبيعة العمران ، وعُلم من أخبار البشر ، إنما يحدث من آفات سماوية فى غالب الأمر ، مثل قصر جرى النيل بمصر ، وعدم نزول المطر ، أو آفة تصيب الغلال من سمائم تحرقها أو رياح تهيّفها ، أو جراد يأكلها ، وما شابه ذلك ، هذا عادة الله تعالى فى الخلق ، إذا خالفوا أمره وأتوا محارمه ، أن يصيبهم بذلك جزاء بما كسبت أيديهم " (١).

ويقول : " لعمرى لا يجهل قدر هاتين الفائدتين الجليلتين ، ويجحد حق هاتين النعمتين العظيمتين ، من له أقل حظ من تمييز ، وأنزر نزر من شعور ، إلا مَنْ قصد أن يخون عهد الله وأمانته فيما استرعاه من أمور عباده ، بإظهار الفساد ، وإهلاك العباد ، والله لا يهدي كيد الخائنين " (٢).

سادسًا : مواطن العبر والعظات فى الأحداث :

يقول الإمام المقريزى : " لا تزال الحال المستقبلة تُتصوّر فى الوهم خيراً من الحالة الحاضرة ، لأن ملالة الحالة الحاضرة تزيّن فى الوهم الحالة المستقبلة ، فلذلك لا يزال الحاضر أبداً منقوصًا حقه مجحوداً قدره ، لأن القليل من شرّه يرى كثيراً ، إذ القليل من المشاهدة أرسخ من الكثير من الخير ، وإذ مقاساة اليسير من الشدة أشق على النفس من تذكر الكثير مما سلف منها"(٣).

ويقول : واعلم أن المسموع الماضى لا يكون أبداً موقعه من القلوب موقع الموجود الحاضر فى شيء من الأشياء ، وإن كان الماضى كبيراً والحاضر صغيراً ، لأن القليل من المشاهدة أكثر من الكثير بالسماع " (٤).

---

١ - انظر المخطوطة ، ص ٢٥ .

٢ - انظر المخطوطة ، ص ٥٠ .

٣ - انظر المخطوطة ، ص ٣ .

٤ - انظر المخطوطة ، ص ٤ .

ويقول : " اعلم أن منْ ملكته العوائد واسترقته المألوفات ، وقيدته رعونات نفسه حتى وقف على ما عهد ، ولم يتراء إلى معرفة ما غاب عنه ، ولا تصور سوى ما أحس" [١].

ويقول عما ينزل بالناس من البلاء أنه : " سوء التدبير من الحكام ، وأن الله ابتلاهم بالقلة والذلة جزاء بما كسبت أيديهم وليذيقهم بعض الذى عملوا ولعلهم يرجعون " [٢].

نخلص مما سبق من دراسة المقريزى وكتابه إلى النتائج التالية :

١ - النهضة التى حدثت فى العصر المملوكى وطرقت جميع جوانب النشاط الحضارى وأسهمت فيه كان السبب فيها ثلاثة عناصر تضامنت مع بعضها البعض ، عنصر المال الذى مكن المماليك من إقامة المنشآت والمؤسسات والمشاريع، وتشجيع العلماء ، وعنصر البيئة الحضارية، ويقصد بها الأرض الطيبة ذات الإمكانات الحضارية الراسخة وذات المناخ المناسب الذى يساعد على الإنتاج والموقع الوسط الذى يجعل منها بابًا مفتوحًا على الحضارات الأخرى ، وعنصر الإنسان ، وهذا العنصر البشرى البناء هو الذى يملك الاستعدادات والقدرة على الإنتاج والإبداع .

٢ - موسوعية وتخصصية المقريزى ، أما كتبه التى تتسم بالموسوعية فإنها تموج بتفاصيل التاريخ وأعمال الخلفاء والسلاطين والملوك وتراجم المشاهير من الحكام والأمراء والعلماء والتجار ، أما كتبه التى تتسم بالتخصصية فإنها تتصف بالتركيز والإيجاز ، وأن كل كتاب منها يشتمل على موضوع محدد أو مشكلة بعينها فى التاريخ الإسلامى أو فى الأوضاع المعاصرة اقتصادية كانت أو اجتماعية أو غير ذلك .

٣ - سبق المقريزى عصره بتضمن كتابه " إغاثة الأمة " كثيراً من الآراء والنظريات التى تتعلق بالناحية الاقتصادية أو الاجتماعية ، أو بسوء تصرف الحكام .

٤ - يحلل المقريزى الأزمات الاقتصادية التى حلت بمصر تحليلاً اقتصاديًا يجمع بين العمق والإيجاز ويشرح ما لها من آثار اقتصادية واجتماعية .

---

١ - انظر المخطوطة ، ص ٥٠ .

٢ - انظر المخطوطة ، ص ٥٣ .

٥ - لم تنبع زعامة المقريزى لمؤرخى عصره من كثرة مؤلفاته وإنما نبعت هذه الزعامة من خلال المنهج التأريخى الذى سلكه وألزم نفسه به من أمانة علمية وتجرد من الهوى وعدم التعصب ، كما ألزم نفسه بالدقة والرغبة فى معرفة أسباب الظواهر وعلل الأحداث ، وأن كتاباته تشمل الخاصة والعامة دون أى مداهنة للحكام .

٦ - اعتنى المقريزى فى منهجه التأريخى بالظواهر الاجتماعية والاقتصادية لما لديه من حاسة تاريخية واستعداد عقلى ونفسى نابع من داخله مكنه هذا الإحساس وهذا الاستعداد من ربط الأسباب بالنتائج ، ومن تفسير الروابط بين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والتطورات السياسية والإدارية فى البلاد .



المبحث الثامن

وصف المخطوطة والعمل فى التحقيق

وصف المخطوطة :

اعتمدت فى تحقيق هذا الكتاب ونشره على ثلاث نسخ مخطوطة من مؤلفات الإمام المقريزى الصغرى ، النسخة الأولى : نسخة مكتبة ولى الدين بجامع بايزيد باستانبول (رقم ٣١٩٥) وقد كتبت فى سنة (١١٠١هـ) وقد جعلتها النسخة الأم - الأصلية - للنشر والتحقيق ، ذلك لحسن خطها ووضوحه ، وقد رمزت إليها بالحرف «أ» فى هامش التحقيق .

أما النسخة الثانية : فهى نسخة دار الكتب المصرية برقم (٧٧ مجاميع) ومن حيث تاريخ كتابتها فهو غير مذكور ، ولم يعلم متى كتبت أو نسخت ، وخطها غير واضح ، رديئة الكتابة ، غامضة القراءة أحيانًا ، ولكن بهوامشها تعليقات وفيها سقطات من المتن ، أدخلتها فى المتن بين معقوفتين وقد رمزت إليها بالحرف « ب » فى هامش التحقيق .

وأما النسخة الثالثة : فهى نسخة مكتبة الجامعة بكامبردج بانجلترا تحت رقم (٧٤٦ -٢)، وقد كتبت فى سنة (١١١٢هـ) ، وهى من حيث القيمة والدرجة أقل من سابقتيها من جميع الوجوه ، وقد رمزت إليها بالحرف (جـ) فى هامش التحقيق .

فمن حيث النسخة الأولى التى اعتمدت عليها فى التحقيق فقد جاء عدد صفحاتها ٥٣ صفحة من المقدمة إلى الخاتمة ، وعدد سطور الصفحة الواحدة (٢١) سطراً ، وكل سطر يحتوى على (١٠ - ١٢ كلمة) ، وقد جاء فى الصفحة الأولى صفحة العنوان ختم كبير مكتوب به "وقف شيخ الإسلام ولى الدين أفندى بن المرحوم الحاج مصطفى أغا بن المرحوم الحاج حسين أغا" .

وجاء بالصفحة الأخيرة من هذه النسخة " ووافق الفراغ من تسويدها فى اليوم التاسع عشر من شعبان المكرم سنة (١١٠١هـ) على يد أفقر العباد محمد الشهير بالقطرى ، إمام جامع الوزير وخطيبه ، ببندر جدّة المحروس .

عملي في التحقيق :

نظراً لما سبق بيانه عن أهمية هذا الكتاب وتفرده بموضوعه ، ومدى ما حققه الإمام المقريزى من فائدة فى هذا الكتاب سواء من الناحية الاقتصادية أو الناحية الاجتماعية ، أو من ناحية ما زينه بتعليقاته وتحليلاته ، فقد استخرت الله عز وجل فى تحقيقه ونشره ، وقيامى بعمل دراسة علمية حول الإمام المقريزى ، وحول هذا الكتاب على نحو ما سبق بيانه ، ولست أدعى الكمال فى هذا العمل ، ولكنه جهد المقل ، وما كان فيه من خير فالحمد والشكر لله رب العالمين وحده على توفيقه ، وما كان فيه من خلل أو نقص فمنى ومن الشيطان ، واستغفر الله العظيم من هذا وذاك ، وجاء هذا العمل على النحو التالى :

١ - قمت بدراسة نسخ المخطوطة دراسة متأنية وقراءتها من المقدمة إلى الخاتمة ثم قمت بتحديد النسخة الأم المعتمدة فى التحقيق وهى النسخة « أ » نسخة استانبول التى هى برقم (٣١٩٥) .

٢ - قمت بنسخ النسخة الأم التى جعلتها موضع النظر فى التحقيق ، مع الالتزام بقواعد الرسم الإملائى ، وتوضيح معالم النص ، فكتبته بحسب معانيه ، وذلك بأن أوقفت الكتابة عند انتهاء المعنى أو النقل ، ثم بدأت بسطر مستقل منفصل عنه إلى آخر النص .

٣ - استعملت النقط والفواصل والخطوط والشارحات ، وعلامة التعجب وعلامة الاستفهام والأقواس المزهرة للايات القرآنية ، والأقواس العادية وغير ذلك من علامات الترقيم .

٤ - أشرت فى بداية صفحات المخطوطة بوضع رقم الصفحة داخل المتن بين معقوفتين .

٥ - المقابلة بين النسخ المخطوطة الثلاث ، حتى أصل إلى اختيار الصيغة الصحيحة ما أمكن ذلك وإثبات الفروق التى تظهر بهامش الصفحات مع وضع رموز النسخ الخطية التى استخدمتها فى التحقيق .

٦ - بيان مواضع الآيات القرآنية من السور والآيات فى الحاشية ووضع الآيات داخل المتن بين القوسين المزهرين ، مع مراعاة طبع الآيات القرآنية برسم المصحف .

٧ - إضافة بعض الألفاظ فى بعض المواضع التى يقتضيها السياق وجعلته بين معقوفتين، وأشرت إلى ذلك فى الحاشية .

٨ - إذا وجدت اختلافًا بين النسخ فى بعض الألفاظ أشرت إلى هذا الاختلاف إذا كان له أهمية .

٩ - شرحت المفردات العربية الواردة فى النص شرحًا موجزاً مستعينًا بمعجم لسان العرب أو مختار الصحاح ، أو الوافى للشيخ البستانى .

١٠ - علقت باختصار على بعض الأسماء والنسب والألقاب التى أتوقع أنها تحتاج إلى بيان .

١١ - ضبطت الأسماء والنسب التى يخشى على كثير من القراء قراءتها قراءة غير سليمة.

١٢ - خرجت الأحاديث النبوية من خلال كتب الحديث ، وعزوت كل حديث إلى الكتاب الذى يتضمنه .

١٣ - علقت على كثير من الأخبار والمواقف التى تحتاج إلى ذلك ولا يصح السكوت عنها.

١٤ - بيّنت موقع البلدان والأماكن ما أمكن ذلك من خلال معجم البلدان لياقوت الحموى وعزوت ذلك برقم الجزء ورقم الصفحة .

١٥ - قمت بعمل الفهارس اللازمة التى تخدم الدراسة والتحقيق كفهرس لآيات القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية والأعلام والبلدان وغير ذلك .

لقد بذلت فى هذا العمل أقصى ما استطعت من جهد ، وأرجو الله أن ينفع به الإسلام والمسلمين ، والله الموفق للصواب لا شريك له ولا ربّ سواه ولا حول ولا قوة إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .



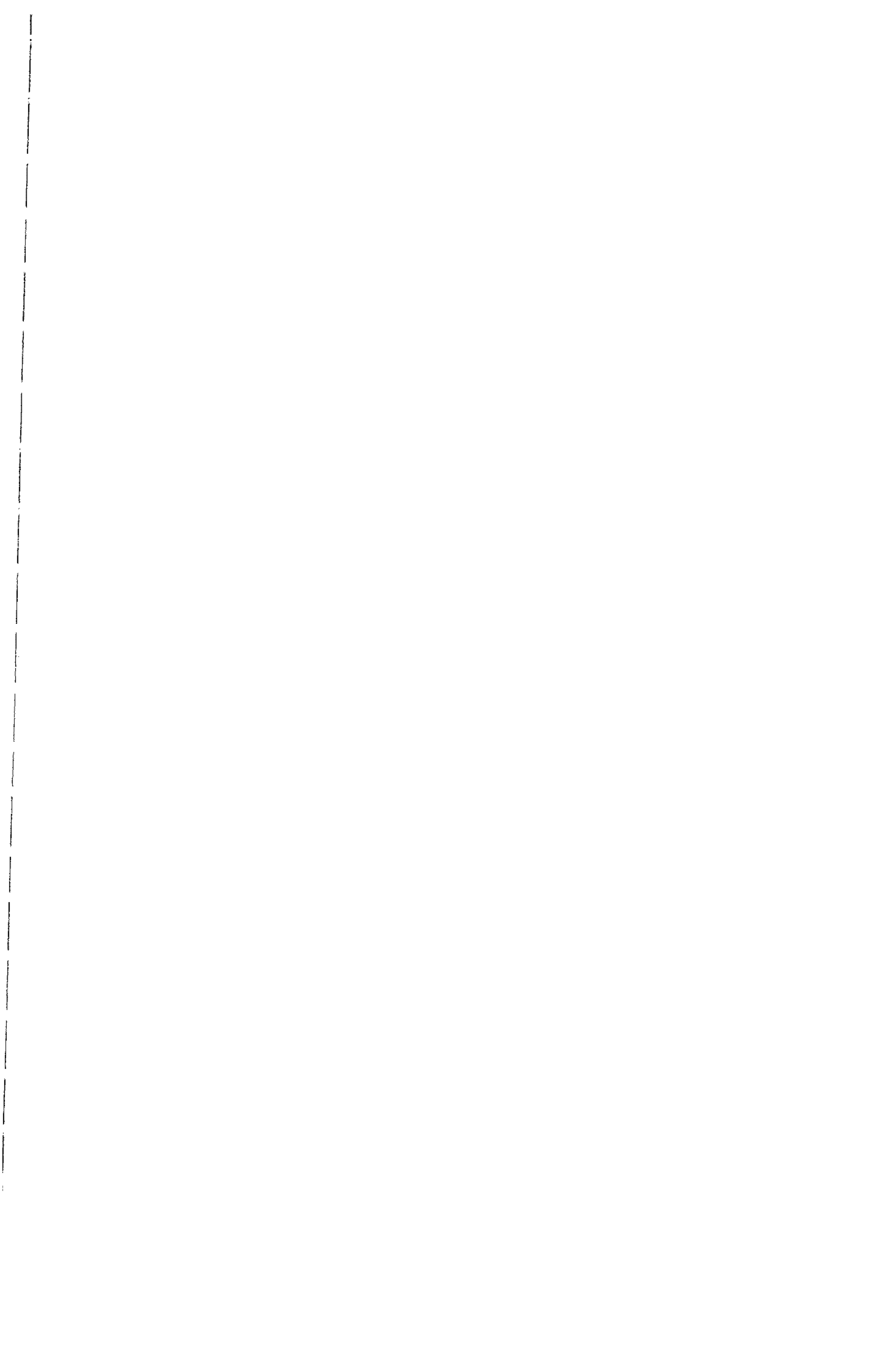


الصفحة الأولى - صفحة العنوان - نسخة مكتبة
ولى الدين بجامع بايزيد - باستامبول (٣١٩٥)

الصفحة الثانية - أول الكتاب - نسخة مكتبة
ولى الدين بجامع بايزيد - باستامبول

القسم الثانى

تحقيق
كتاب « إغاثة الأمة بكشف الغمة »
لتقى الدين أحمد بن على المقريزى
ت ٨٤٥ هـ



مقدمة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

بسم الله الرحمن الرحيم

[ص / ٢] وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم ، الحمد لله ، مصرِّف الأمور بحكمته، ومجريها كيف يشاء بقدرته ، أنعم على قوم فأوقفهم على ما خفى من بديع صنعته، ووفقهم لاتباع ما درس من شريعته ، وآتاهم بيانًا وحكمًا ، وألهمهم معارف وعلمًا ، وأيدهم فى أقوالهم ، وسددهم فى أفعالهم ، حتى بينوا للناس أسباب ما نزل من المحن ، وعرفهم كيف الخلاص مما حل بهم من جليل الفتن ، وأضل آخرين فأكثروا فى الأرض الفساد ، وأملى لهم[١] حتى أهلكوا بطغيانهم العباد والبلاد ، واستدرجهم من حيث لا يشعرون ، فهم فى ضلالهم يعمهون، وبباطلهم يفرحون ، ولعباد الله يذلون ، وعن عبادة ربهم يستكبرون [٢] .

أحمدُه حمد عبدٍ قدَّر أنْعُم الله عليه فعجز عن شكرها ، وعلم أن الأمور من الله ومرجعها إلى الله ، فاعتمد عليه فى تيسير عسرها .

وصلى الله على نبينا محمَّد الذى هدى الله به العباد ، وأزال بشِرعته الجور والفساد ، وعلى آله وأصحابه ، وأوليائه وأحبابه ، صلاة لا ينقطع مددها ولا يُحصى عددها .

وبعد فإنه لما طال أمر[٣] هذا البلاء المبين ، وحلّ فيه بالخلق أنواع العذاب المهين ، ظنّ كثير من الناس أن هذه المحن لم يكن فيما مضى مثلها ولا مرّ فى زمن شبهها . وتجاوزوا الحد فقالوا لا يمكن زوالها ولا يكون أبداً عن الحق انفصالها ، وذلك أنهم قوم لا يفقهون ، وبأسباب

---

١ - أملى لهم : أى أملْى الله لهم أمهلهم وطوّل لهم . مختار الصحاح لمحمد بن أبى بكر الرازى (ملى) .

٢ - لجأ المقريزى إلى الاقتباس من ألفاظ القرآن ومعانيه ، وزين أسلوبه وحسّنه بذلك كما فى الآيات الآتية : قال تعالى : " فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إن كيدى متين " سورة القلم الآيتان (٤٤ - ٤٥) ؛ وقال تعالى : " ... فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون " سورة يونس الآية (١١) ؛ وقال تعالى : " ... حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون " سورة الأنعام آية (٤٤) ؛ وقال تعالى : " إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون " سورة الصافات آية (٣٥) .

٣ - فى نسخة (ب) : أمَدُ ، وما أثبته من نسخة «أ» الأصل ، ونسخة « جـ» .

الحوادث جاهلون ، ومع العوائد واقفون ، ومن روح الله آيسون . ومن تأمل هذا الحادث من بدايته إلى نهايته ، وعرفه[١] من أوله إلى غايته ، علم أن ما بالناس سوى سوء تدبير الزعماء والحكام [ص / ٣] وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد ، إلا أنه كما مر من الغلوات [٢]. وانقضى من السنوات[٣] المهلكات. إلا أن ذلك يحتاج إلى إيضاح وبيان ، ويقتضى إلى شرح وتبيان . فعزمت على ذكر الأسباب التى نشأ منها هذا الأمر الفظيع ؛ وكيف تمادى بالبلاد والعباد هذا المصاب الشّنيع ، وأختم القول بذكر ما يزيل هذا الداء ويرفع البلاء . مع الإلماع بطرف من أسعار هذا الزمن ، وإيراد نبذ مما غبر عن الغلاء والمحن ، راجيًا من الله سبحانه أن يوفق من أسند إليه أمور عباده ، وملّكه مقاليد أرضه وبلاده ، إلى ما فيه سداد الأمور ، وصلاح الجمهور ، إذ [الأمور][٤] كلها - [قلّها][٥] وجلها - إذا عزفت أسبابها سهُل على الخبير صلاحها . وبالله المستعان على كل ما عزّ وهان ، [وهو يقول الحق ويهدى إلى سواء السبيل] [٦].

---

١ - ما أثبته من نسختى «ب » و «جـ » ، أما نسخة « أ » فكان نصّها : " وعرف أوله غايته ". وهو كلام ناقص غير مفهوم .

٢ - الغلوات : مفردها الغلاء والغالى ، والغلاء نقيض الرّخص . انظر لسان العرب لابن منظور "غلا " .

٣ - فى نسخة « أ » السنون . وهو خطأ نحوىّ ، ولعله تحريف من الناسخ وما تم إثباته من نسختى « ب ، جـ » .

٤ - ما بين المعقوفتين زيادة يقتضيها السياق من نسختى «ب » و « جـ » .

٥ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة «ب » و « جـ » وهى : " إذ الأمور قلّها وجلّها " .

٦ - ما بين المقوفتين زيادة من نسخة « جـ » ، وهو غير موجود فى نسختى « أ » و « ب » .

مقدمة حكمية تشتمل على قاعدة كلية

اعلم ، أيّدك الله بروح منه ، ووفقك إلى الفهم عنه ، أنه لم تزل الأمور السَّالفة كلما كانت أصعب على من شاهدها ، كانت أظرف عند [من][1] سمعها . وكذلك لا تزال الحال المستقبلة تُتَصوَّر في الوهم خيراً من الحالة الحاضرة ، لأن مَلالة الحالة الحاضرة تزينّ في الوهم الحالة المستقلة . فلذلك لا يزال الحاضر أبداً منقوصًا حقه ، مجحوداً قدره ، لأن القليل من شرّه يُرَى كثيراً ، إذ القليل من المشاهدة أرسخ من الكثير من الخبر ، وإذ مقاساة اليسير من الشدة أشق على النفس من تذكُّر الكثير مما سلف منها . مثال ذلك شخص أرَّقته البراغيث ليلة ، فتذكر بذلك ليالي ماضية أرقته فيها حرارة الحمّى : فغير ذي شكّ أن تَوهّم تلك الحمّى ، وتذكّر تلك الأيام الماضية ، أخفّ عليه من دبيب البراغيث علي جسمه في وقته ذلك . ولا جرم أن هذا الحال ، وإن كان هكذا موقعه في[2] الوقت الحاضر من الحس ، فليس كذلك حكمه في الحقيقة، لأنه لا يقدر أحد أن يثبت القول بأن دبيب البراغيث على الجسم وقرصها أنكى من حرارة الحمّى ، وأن السّهر في حال الصحة أشد من السّهر على [ص / ٤] أسباب المنية .

ولما كانت الحالتان هكذا في التمثيل ، وجب علينا أن نسلّم للقائلين الذين ضاقوا ذرعًا بحوادث زمنهم على ما زعموه من أن هذه الحوادث صعبة عليهم ، ولا نسلّم [لهم][3] ما جاوزوا به الحد [4]، من [ادعائهم أنها في المقارنة والقياس أصعب من التي مضت ، مثاله][5] لو أن رجلاً قام من فراشه ، وهو بمصر في أيام الشتاء سحراً ، وبرز[6] إلى رحاب داره ، فرأى الأمطار نازلة ، والأرض بالماء قد امتلأت ، فقال هذا يوم شديد البرد ، لكان ذلك من قوله غير مردود ولا مُنْكر ، لأنه قال بما وجد في نفسه ، وبما جرت عادة الناس أن يقولوه ،

---

١ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » ونسخة «جـ» .

٢ – في نسختي « أ » و « جـ» "من" ، وما أثبته من نسخة «ب» وهو ما يتناسب مع السياق ويتفق مع اللغة .

٣ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة «ب» ونسخة «جـ» .

٤ – في نسخة «أ» " الحق " ، وما أثبته من نسخة «ب» ، ونسخة «جـ» .

٥ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة «ب» ونسخة «جـ» ، وهذه الزيادة ليست موجودة بنسخة « أ » .

٦ – في نسختي «أ» و «جـ» " مر " ، وما أثبته من نسخة « ب » .

فإن عجز عن احتمال ما وصل إلى جسمه من البرد ، ورجع إلى فراشه فالتحف ، وقال هذا اليوم برده أشد من البرد الواقع ببلاد الروم والترك ، لم تَجُزْ هذه المقالة ، وعُدَّ قائلها فى الضعف واللين والغَرارة[1] بمنزلة بُنيّات الخدُور[2]، وربات الحجول[3]. بل نخرجه عن لحافه[4]، ونريه الأطفال وكيف يمرون فى تلك المياه ويلعبون بها ، فيعلم إذا رأى ذلك أن الذى أطنب فيه من الشكاية لزمانه ليس لإفراط شدة الزمان ، لكنه لضعف صبره وقلة احتماله .

وسأذكر ، إن شاء الله تعالى ، من الغلوات الماضية ما يتضح به أنها كانت أشد وأصعب من هذه المحن التى[5] نزلت بالناس فى هذا الزمان بأضعاف مضاعفة ، وإن كانت هذه المحنة مشاهدة ، وتلك خبراً .

واعْلم أنّ المسموع الماضى لا يكون أبداً موقعه من القلب موقع الموجود الحاضر فى شىء من الأشياء ، وإن كان الماضى كبيراً والحاضر صغيراً ، لأن القليل من المشاهدة أكثر من الكثير بالسماع . والله يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولو الألباب ، [والله يقول الحق وهو يهدى السبيل][6] .

---

١ - الغَرارة : بفتح الغين - الغفلة . لسان العرب لابن منظور " غرر " .

٢ - بُنيّات : مفردها " بُنيّة " وهى تصغير لكلمة « ابنة » فجاءت كلمة " بُنيّات " جمع لكلمة " بُنيّة " ، وكلمة " الخدور " جمع مفردها " الخِدْرُ " وهو السّتر الذى يمدّ للجارية فى ناحية البيت ، لسان العرب لابن منظور " خدر " .

٣ - الحُجُول : جمع مفردها " الحَجْل " وهو القيد ، فالمقصود بربّات الحجول أى صاحبات القيود ، أى التى تمشى فى القيد ببطء شديد ، انظر لسان العرب لابن منظور " حجل " .

٤ - فى نسخة «أ» : " بل يخرجه من لحافه وزيّه بالأطفال ... " وما أثبته من نسخة « ب » وما يتفق مع السياق .

٥ - فى نسخة « أ » " الذى " وما أثبته من نسختى « ب » و « جـ » وهو الصحيح .

٦ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « جـ » ، وهو غير موجود بنسختى « أ » و « ب » . وانظر سورة الأحزاب الآية (٤) .

الفصل الأول

في إيراد ما حل بمصر من الغلوات

وحكايات يسيرة من أنباء تلك السنوات

اعْلم [حاط][1] الله نعمتك وتولى عصمتك ، أن الغلاء والرخاء مازالا يتعاقبان في عالم الكون والفساد ، منذ [ص / ٥] برأ الله الخليقة في سائر الأقطار وجميع البلدان والأمصار ، وقد دون نقلة الأخبار ذلك ، وبسطوا خبره في كتب التاريخ ، وعزمي إن شاء الله تعالى ، أن أفرد كتابًا يتضمن ما حل بهذا النوع الإنساني من المحن والكوارث المجيحة [٢]، منذ آدم عليه السلام ، وإلى هذا الزمن الحاضر ، فإني لم أر لأحدٍ في ذلك شيئًا مفرداً [٣]. وأذكرُ هنا جليل ما حلّ بمصر خاصة من الغلاء فقط ، على سبيل الاختصار ، والإضراب عن التطويل والإكثار[٤]، فأقول وبالله أستعين فهو المعين :

" غلاء في زمن أفروس بن مناوش "[٥]

قد ذكر الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه في كتاب " أخبار مصر "[٦] لما قبل الإسلام – وهو كتاب جليل الفائدة رفيع القدر – أن أول غلاء وقع بمصر كان في زمن الملك السابع عشر من

---

١ – ما بين المعقوفتين أثبته من نسخة « جـ » وهو غير موجود في نسختي « أ » و « ب » . و " حاط الله نعمتك " : أي حفظها وتعهدها . لسان العرب لابن منظور " حوط " .

٢ – المجيحة : المهلكة ، وجاح : بمعنى أهلك ، جاح الله ماله : أهلكه بالجائحة ، والجائحة : المصيبة العظمى. لسان العرب لابن منظور " جوح " .

٣ – في نسخة « أ » " منفرداً " ، وما أثبته من نسخة « ب » وهو الأفضل .

٤ – في نسخة « أ » " الإكرار " ، وما أثبته من نسخة « ب » ونسخة « جـ » .

٥ – انظر الحديث عنه في صبح الأعشى للقلقشندي ٣ / ٤٠٨ ، ٤٠٩ .

٦ – يوجد في هامش الصفحة بنسخة « أ » مقابل هذا الاسم بنفس خط المتن ما نصه : " لإبراهيم بن وصيف شاه كتاب جليل كثير الفوائد في أخبار مصر " . ولعلّ المقصود بهذا الكتاب المذكور هو كتاب " جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور " وقد ظهر هذا الكتاب إلى النور مطبوعًا ومحققًا ، وقد نشرته مكتبة الدار الثقافية للنشر في عام ٢٠٠٤م ، انظر شيئًا من ترجمته في معجم المؤلفين لعمر كحالة ٨١/١ .

ملوك مصر قبل الطوفان ، [واسمه أفروس بن مناوش الذى كان طوفان][1] نوح عليه الصلاة والسلام فى زمنه ، على قول[2] ابن هرجيب بن شهلوف [3]. وكان سبب الغلاء ارتفاع الأمطار، وقلة ماء النيل ، فعقمت أرحام[4] البهائم ، ووقع الموت فيها لما أراده الله سبحانه وتعالى من هلاك العالم بالطوفان .

" غلاء فى زمن فرعان بن مسور "

ثم وقع فى زمن فرعان بن مسور [5]، وهو التاسع عشر من ملوك مصر قبل الطوفان . وسببه أن الظلم والهرج[6] كثرا حتى لم ينكرهما أحد ، فأجدبت الأرض ، وفسدت الزروع ، وجاء بعقب ذلك الطوفان ، فهلك الملك فرعان وهو سكران . وهو أول من يسمى [باسم][7] فرعان[8] .

---

١ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » ونسخة « جـ » وقد عُرف عن أفروس بن مناوش أنه كان عالمًا فاضلاً فى علم السحر والطلسمات عادلاً فى حق الرعية ، حسن السيرة ، وكان له أعاجيب فى كل فن ، قيل : إنه بنى قبة على شاطئ النيل من نحاس أصفر ، طولها خمسون ذراعًا وعرضها مثل ذلك ، وجعل حولها أطيارًا من ذهب وفضة إذا دخل الريح فى جوفها صفّرت بأصوات مطربة بلغات شتى ، واستمر أفروس فى الملك حتى هلك . انظر جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور لابن وصيف شاه ، ص ١٩ ، ٢٠ .

يقول القلقشندى : ملك أفروس بن مناوش أربعًا وستين سنة ، وفى أيامه حصل القحط العظيم ، وسلطت الوحوش والتماسيح على الناس ، وأعقمت الأرحام حتى يُقال إن الملك تزوج ثلثمائة امرأة يبغى الولد فلم يُولد له ، وذلك مقدمة الطوفان . انظر كتاب صبح الأعشى للقلقشندى ٤٠٨/٣ .

٢ - أى أن أفروس بن مناوش بن هرجيب من شهلوف ، وقيل : سهلوق . انظر صبح الأعشى للقلقشندى ٤٠٨/٣.

٣ - فى نسخة « ب » : شهلوق .

٤ - عقمت الأرحام : أى لا تلد ، ومصدره : العَقْمُ والعُقْمُ بفتح العين وضمها . انظر لسان العرب لابن منظور " عقم " .

٥ - فى نسخة « ب » فرعان بن مسود .وقال القلقشندى فى صبح الأعشى ٤٠٨/٣ : وفى زمنه كان الطوفان وهلك فيمن هلك .

٦ - الهرج : أى الفتنة ، وهذا ما يتناسب مع الموقف .

٧ - فى هامش الصفة بنسخة «أ» مقابل هذه الكلمة مكتوب : " أول منْ يُسمى فرعان " . .

٨ - ذكر القلقشندى : وهو أول منْ لُقب بلقب الفراعنة ، انظر صبح الأعشى ٤٠٨/٣ .

" غلاء فى زمن أتريب بن مصريم "

ثم وقع غلاء فى زمن أتريبل بن مصريم[١] ، ثالث عشر ملوك مصر بعد الطوفان . وكان سببه أن ماء النيل توقف جريه مدة [مائة][٢] وأربعين سنة ، فأكل الناس البهائم حتى فنيت كلها ، وصار الملك " أتريب " ماشيًا ، ثم أضعفه الجوع حتى لم يبق به حركة سوى أن يبسط كفيه ويقبضهما من الجوع .فلما اشتد الأمر عليه ، وطال احتباس النيل ، وشمل الموت أهل الإقليم ، كتب " أتريب " إلى " لاذو[٣] بن سام بن نوح عليه السلام " بذلك ، فكتب " لاذو " إلى أخيه " أرفخشذ بن سام "[٤] فلم يجبه بشىء ، حتى بعث الله " هوداً عليه السلام " [ص/٦]، فكتب إليه " أتريب " يلتمس منه الدعاء برفع ما نزل بأرض " مصر " . فأجابه "هود عليه السلام " : إنى أدعو لكم فى يوم كذا فانتظروا فيه جرى النيل . فلما كان ذلك اليوم جمع " أتريب " من بقى بمصر من الرجال والنساء ، وهم قليل عددهم ، فدعوا الله تعالى، وضجوا واستغاثوا إليه ، وكان ذلك عند انتصاف النهار فى يوم الجمعة . فأجرى الله سبحانه وتعالى النيل فى تلك الساعة ، إلا أنه لم يكن عندهم ما يزرعونه ، فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى "هود عليه السلام " أن ابعث إلى " أتريب " بمصر أن يأتى لحف جبلها[٥]، وليحفر بمكان كذا . فكتب " هود" إلى " أتريب " بعمله ، فجمع قومه وحفروا ، فإذا عقود قد عقدت بالرصاص ، وتحتها غلال كأنها وضعت حينئذ ، وهى باقية فى سنبلها لم تدرس . فمكثوا ثمانية شهور فى نقلها ، وزرعوا منها وتقوتوا نحو خمس سنين ، فأخبره أخوه

---

١ - تنسب إليه مدينة " أتريب " القديمة وهى على القرب من بنها العسل من أعمال الشرقية بالوجه البحرى ، وهو الذى بناها . انظر صبح الأعشى للقلقشندى ٣/٣٨١ ، ٤٠٩ ، والمواعظ والاعتبار للمقريزى ١/٢٨٣ ، ٢٨٤ .

٢ - ما بين المعقوفتين أثبتها من نسخة « ب » كما يوجد بهامش الصفحة فى نسخة « أ » العبارة التالية : " عدم جريان النيل أربعين سنة " .

٣ - فى نسختى « ب » و « جـ » : " لاوز " وما أثبته من نسخة « أ » .

٤ - انظر شيئًا من ترجمة : لاذو بن سام وأخيه أرفخشذ بن سام فى مروج الذهب للمسعودى ١/٣٧ - ٣٩.

٥ - يوجد بهامش الصفحة فى نسخة «أ» فقط هذه العبارة ونصها : " غريبة جداً تذكر " .

"صا[١] بن مصريم[٢] " أن أولاد قابيل بن آدم عليه السلام لما انتشروا فى الأرض وملكوها ، علموا أن حادثة ستحدث فى الأرض ، فبنوا هذا البناء ، ووضعوا فيه هذه الغلال ، فزرعت مصر وأخصبت حتى بيع كل أردب بدانق[٣] ، ودام الرخاء مدة مائتى سنة .

غلاء فى زمن نهراوس .. وقيل اسمه الريان بن الوليد بن درمع العمليقى

ثم وقع الغلاء فى زمن الملك الثانى والثلاثين من ملوك مصر بعد الطوفان . وهو الثانى من ملوك العمالقة ، والثالث من الفراعنة فى قول مؤرخى القبط . واختلف في اسم الملك ، فقيل أن اسمه نهراوس ، وقيل : بل اسمه الريان بن الوليد بن درمغ العمليقى [٤]، وهذا الغلاء دبر أمر البلاد فيه يوسف عليه السلام . وقد ذكره الله سبحانه وتعالى فى القرآن العظيم ، وتضمنته التوراة ، واشتهر ذكره فى كتب الأمم الماضية والخالية ، فأغنى عن ذكره .

- فى نسخة «أ» : صابر بن مصريم ، ولعله تحريف من الناسخ وما أثبته من نسخة «ب» وقد ذكره القلقشندى "صا" ضمن الملوك الذين ملكوا البلاد بعد الطوفان . انظر صبح الأعشى ٣/٤٠٩ ، وذكر المقريزى : أنه " صار" الذى تنسب إليه مدينة " صا " شرقى الفرقة الغربية من النيل وبها الآثار العظيمة. انظر المواعظ والاعتبار ١/٢٩٤ .
- قال القلشندى : صا بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام ، أحد ملوك مصر بعد الطوفان ، وهو الذى بنى مدينة «صا» بالبر الغربى من النيل . صبح الأعشى ٣/٣٨٥ .
- الدانق : لفظ قديم فى اللغة الفارسية القديمة ، واللغة الإرمينية أيضًا وقد أبقى عليه العرب فى الجاهلية واستعملوه للدلالة على وزن معين ، وفى النقد أيضًا ، وقد استعمل فى العصر الإسلامى كوحدة نقدية قيمتها تساوى سدس الدرهم والدرهم فى حينه وحدة من الفضة قيمته تساوى ١٠,٧ من الدينار الإسلامى المعـرب الذى يزن ٤,٢٥ جرام ذهب . انظر فى ذلك : القاموس الإسلامى لأحمد عطية الله ، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ١٩٦٣ ، ٢/٣٣٢ . وانظر معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية لمصطفى عبدالكريم الخطيب – مؤسسة الرسالة – بيروت ١٩٩٦م ، ص ١٧٥ .
- قال القلقشندى : ثم ملكها " الريان بن الوليد بن دومع ، والقبط تسمية «نهراوس » وهو الفرعون الثالث عند القبط ، ونزل مدينة عين شمس ، وكانت الملوك قبله تنزل مدينة منف ، وفى أيامه وصل سيدنا يوسف عليه السلام إلى مصر . انظر صبح الأعشى ٣/٤١١ .

" غلاء عند مبعث موسى عليه السلام إلى فرعون "

ثم وقع غلاء وجدب[١] هلكت فيه الزروع والأشجار ، وفقدت فيه الحبوب[٢] والثمار ، وعمّ الموتُ الحيواناتِ كلها ، وذلك عند مبعث موسى عليه الصلاة والسلام إلى فرعون . وخبر هذا الغلاء مشهور فى كتب الإسرائيليين وغيرهم ، وكفى إشارة إليه ، ودلالة عليه ، قوله سبحانه وتعالى [ص / ٧] : { وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ }[٣] ، وقوله {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ }[٤].

ثم وقع بالأرض ، قبل مبعث النبىّ ﷺ ، أنواع من البلاء والمحن[٥] عمت المعمورة من الأرض، وخصّ مصر منها كثير من الغلاء ، ذكرناه فى موضعه .

" غلاء فى زمن إمارة عبد الله بن عبد الملك بن مروان "

ثم جاء الله سبحانه بالإسلام ، فكان أول غلاء وقع بمصر فى سنة سبع وثمانين من الهجرة . والأمير يومئذ بمصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان [٦] ، من قبل أبيه ، فتشاءم به الناس ، لأنه أول غلاء ، وأول شدة رآها المسلمون بمصر[٧].

---

١ – فى نسخة «أ» : " الغلا والجدب " ، وما أثبته من نسخة « ب » وهو الأصح والذى يتفق مع السياق اللغوى .

٢ – فى نسخة «أ» : الحيوانات ، وما أثبته من « ب » وهو المقصود لاتّساقه مع لفظ " الثمار " التالى له ، وبدليل ورود لفظ " الحيوانات " فى آخر الجملة .

٣ – سورة الأعراف ، آية (١٣٧) .

٤ – سورة الأعراف ، آية (١٣٠) .

٥ – فى « أ » " من أنواع البلاد والمحن عمّت المعمور ... " ، وما أثبته من نسخة « ب » وهو الأصح .

٦ – وهو أول من أمر بالدواوين فنسخت بالعربية ، وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية . انظر ولاة مصر لمحمد بن يوسف الكندى ، تحقيق حسين نصار ، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠١ ، ص ٨٠ .

٧ – قال محمد بن يوسف الكندى : وفى ولايته غلت الأسعار بمصر وترعت فتشاءم به المصريون ، وهى أول شدّة رأوها . انظر ولاة مصر ص ٨٠ ؛ وفى زمن ولاة مصر فى عهد الدولة العباسية فى ولاية يزيد بن حاتم المهلبى الذى ولى الديار المصرية سنة ١٤٤ هـ للخليفة أبى جعفر المنصور ، ففى سنة ١٤٧هـ حصل فى أيامه غلاء عظيم بسبب عدم زيادة النيل وشرّقت الأراضى وانتهت زيادة النيل إلى ستة عشر ذراعًا . انظر جواهر البحور ووقائع الدهور لابن وصيف شاه ، ص ٤٩ .

" غلاء في زمن إمارة أونوجور بن الإخشيد "

ثم وقع غلاء في الدولة[١] الإخشيدية[٢] في محرم سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة ، والأمير يومئذ أبو القاسم وأونوجور بن الإخشيد[٣] ، فثارت[٤] الرعية ، ومنعوه من صلاة العتمة[٥] في الجامع العتيق[٦] .

ثم وقع غلاء في سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة[٧] ، فكثر الفار في أعمال مصر ، وأتلف الغلات والكروم وغيرها . ثم قصر [مد] النيل ، فنزع[٨] السعر في شهر رمضان . وفي سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة ، عظم الغلاء ، حتى بيع القمح كل ويبتين[٩] ونصف بدينار ، ثم طلب فلم يوجد ، وثارت الرعية وكسروا منبر الجامع بمصر .

---

١ - في نسخة « أ » : " ثم وقع الغلا في دولة الإخشيد " ، وما أثبته من نسخة « ب » وهو أكثر انسجامًا مع المتن .

٢ - تنسب الدولة الإخشيدية إلى الإخشيد وهو اللقب الذي منحه الخليفة العباسي الراضي بالله لمحمد بن طغج في سنة ٣٢٦ هـ وقيل في سنة ٣٢٧هـ . انظر مصر في عصر الإخشيديين لسيدة إسماعيل كاشف ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، طبعة ١٩٨٩م ، ص ٥٥ .

٣ - في نسخة « أ » كافور ، وهو خطأ ، والذي أثبته من نسخة « ب » وهو الصحيح ، لأنه من المعروف أن حكم " أونوجور " امتد من ٣٣٤ إلى ٣٤٩ هـ ، وأما حكم كافور فقد بدأ سنة ٣٥٥هـ . انظر ولاة مصر للكندي ص ٣١١ ، ٣١٤ .

٤ - في نسخة « أ » : " فمنعته " وما أثبته من نسخة « ب » .

٥ - العتمة : الثلث الأول من الليل بعد غيبوبة الشفق ، أو وقت صلاة العشاء . انظر لسان العرب لابن منظور " عتم " .

٦ - الجامع العتيق هو جامع عمرو بن العاص

٧ - في نس أ » : " وفي سنة ٣٤١ هـ إحدي وأربعين وثلاثمائة كثر الفار وما أثبته من نسخة «ب » .

٨ - نزع السعر : أي ارتفع السعر .

٩ - الويبة : مكيال للحبوب ، سعته سدس الأردب ، وقيل : من المكاييل ، قدره : أربعة وعشرون مداً ، انظر معجم الألفاظ التاريخية لمحمد أحمد دهمان ، طبعة دار الفكر - دمشق ١٩٩٠م ، ص ١٥٦ .

" غلاء فى زمن إمارة على بن الإخشيد "

[ثم وقع الغلاء فى الدولة الإخشيدية أيضًا ، واستمر تسع سنين متتابعة . وابتدأ فى سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة . والأمير إذ ذاك على بن الإخشيد (١)، وتدبير الأمور إلى الأستاذ أبى المسك كافور الإخشيدى](٢). وكان سبب الغلاء أن ماء النيل انتهت زيادته إلى خمسة عشر ذراعًا وأربعة أصابع ، فنزع السعر بعد رخص ، فما كان بدينار واحد صار بثلاثة دنانير، وعز الخبز فلم يوجد ، وزاد الغلاء حتى بلغ القمح كل ويبتين بدينار . وقصر مد النيل فى سنة ثلاث وخمسين ، فلم يبلغ سوى خمسة عشر ذراعًا [وأربعة](٣) أصابع ، واضطرب فزاد مرة ونقص أخرى حتى صار [فى النصف](٤) من [شهر](٥) بابه إلى قريب من ثلاثة عشر ذراعًا. ثم زاد قليلاً وانحط سريعًا ، فعظم البلاء ، وانتقضت الأعمال لكثرة الفتن ، ونهبت الضياع والغلات وماج الناس فى مصر بسبب السّعر ، فدخلوا الجامع العتيق بالفسطاط فى يوم جمعة ، وازدحموا عند المحراب ، فمات رجل وامرأة فى الزحام ، ولم تُصَلَّ الجمعة يومئذ ، وتمادى الغلاء إلى سنة أربع وخمسين (٦)، وكان مبلغ الزيادة أربعة عشر ذراعًا وأصابع ، [وفى سنة أربع وخمسين نفسها كان مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعًا وأصابع] (٧). وفى سنة خمس وخمسين كان مبلغ الزيادة أربعة عشر ذراعًا وأصابع (٨). [ص / ٨] وقصر مدّه وقلّت

---

١ – تولى هذا الأمير الحكم فى مصر سنة ٣٤٩ – ٣٥٥ هـ ، بعد أخيه أونوجور ، انظر النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٣ / ٣٢٥ .

٢ – ما بين المعقوفتين وارد فى نسختى « ب » و « جـ » وساقط من نسخة « أ » .

٣ – ما بين المعقوفتين زيادة يقتضيها السياق من كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى طبعة القاهرة ١٩٣٢م، ٣ / ٣٣٩ .

٤ – ما بين المعقوفتين أثبته من نسخة « ب » دون غيرها .

٥ – ما بين المعقوفتين أثبته من نسخة « ب » .

٦ – قال ابن تغرى بردى : وفى سنة ٣٤٥ هـ كان يبلغ الزيادة فى أمر النيل ستة عشر ذراعًا وخمسة عشر إصبعًا ، انظر النجوم الزاهرة ٣/٣٤٣ .

٧ – ما بين المعقوفتين أثبته من نسخة « أ » دون غيرها . قال ان تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ٣/٣٤٣ : "وخمسة عشر إصبعًا " .

٨ – قال ابن تغرى بردى : ومبلغ الزيادة أربعة عشر إصبعًا . النجوم الزاهرة ٤/١٣ .

جريته . وفى سنة ست وخمسين لم يبلغ النيل سوى اثنى عشر ذراعًا وأصابع [١]، ولم يقع مثل ذلك فى الدولة الإسلامية ، وكان على إمارة مصر حينئذ الأستاذ كافور الأخشيدى[٢] ، فعظم الأمر من شدة الغلاء .

ثم مات كافور ، فكثر الاضطراب وتعدّدت الفتن . وكانت حروب كثيرة بين الجند والأمراء قُتل فيها خلق كثير ، وانتهبت أسواق البلد ، وأحرقت مواضع عديدة ، فاشتد خوف الناس ، وضاعت أموالهم ، وتغيرت نيّاتهم ، وارتفع السعر ، وتعذر وجود الأقوات حتى بيع القمح كل ويبة بدينار ، واختلف العسكر ، فلحق الكثير منهم بالحسن بن عبد الله بن طغج[٣] وهو يومئذ بالرملة[٤]. وكاتب الكثير منهم المعز لدين الله الفاطمى [٥]. وعظم الإرجاف بمسير القرامطة إلى مصر . وتوترت الأخبار بمجئ عساكر المعز من المغرب وإلى أن دخلت سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة . ودخل القائد جوهر[٦] بعساكر الإمام المعز لدين الله[٧]، وبنى القاهرة

---

١ - قال ابن وصيف شاه : ووقع غلاء عظيم بسبب توقف البحر ، فإنه لم يبلغ فى زيادته غير اثنى عشر ذراعًا وتسعة عشر إصبعًا ، ثم إنه هبط فشرقت الأرض ، ووقع غلاء بسبب ذلك . انظر جواهر البحور ص٦٨ .

٢ - هو أبو المسك كافور الحبشى الأسود الخادم الإخشيدى صاحب الديار المصرية اشتراه الإخشيد وتقدم عنده حتى صار من أكبر قواده لعقله ورأيه وشجاعته ، وقد توفى سنة ٣٥٦ هـ ، انظر شذرات الذهب لابن العماد ٣ / ٢١ ، ٢٢ .

٣ - يوجد بهامش الصفحة فى نسخة « أ » مقابل هذا الاسم العبارة التالية : " طغج بضم الطاء المهملة والغين المعجمة وبعدهما جيم " .

٤ - الرّملة : مدينة عظيمة بفلسطين ، وكانت رباطًا للمسلمين ، انظر معجم البلدان لياقوت الحموى ٦٩/٣ .

٥ - قال المقريزى : ولما مات كافور نزلت محن شديدة كثيرة بمصر من الغلاء والفناء والفتن ، فاتضع خراجها إلى أن قدم جوهر القائد من بلاد المغرب بعساكر مولاه المعز لدين الله الفاطمى . انظر المواعظ والاعتبار ٩٩/١ طبعة مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة .

٦ - هو جوهر بن عبد الله الرومى ، الذى بنى مدينة القاهرة والجامع الأزهر ، وكان كثير الإحسان ، شجاعًا ، توفى سنة ٣٨١هـ ، ولم يبق بمصر شاعر إلا رثاه ، وكان بناؤه للقاهرة فى سنة ٣٥٨ هـ ، وفرغ من بناء جامع الأزهر الشريف سنة ٣٦١هـ . انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان لابن خلكان ١١٨/١ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢٨/٤ ، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ٩٨/٣ .

٧ - هو معد (المعز لدين الله) بن إسماعيل المنصور بن القائم بن المهدي عبيد الله الفاطمى صاحب مصر وإفريقية ، أحد الخلفاء فى هذه الدولة ولد بالمهدية فى المغرب سنة ٣١٩هـ وبويع بالخلافة سنة ٣٤١هـ . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان لابن خلكان ١٠١/٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٥٢/٣ .

المعزية ، وكان مما نظر فيه أمر الأسعار ، فضرب جماعة من الطحانين وطِيف بهم ، وجمع سماسرة الغلات بمكان واحد ، وتقدّم ألاّ تباع الغلات إلا هناك فقط ، ولم يجعل لمكان البيع غير طريق واحدة . فكان[١] لا يخرج قدح قمح إلا ويقف عليه سليمان بن عزة المحتسب ، واستمر الغَلاء إلى سنة ستين ، فاشتد فيها الوباء ، وفشت الأمراض ، وكثر الموت حتى عجز الناس عن تكفين الأموات ودفنهم ، فكان من مات يطرح فى النيل ، فلما دخلت سنة إحدى وستين انحل السعر فيها ، وأخصبت الأرض ، وحصل الرخاء .

" غلاء فى زمن الحاكم بأمر الله "

ثم وقع الغلاء فى أيام الحاكم بأمر الله[٢] ، وتدبير [أبى محمد][٣] الحسن بن عمار[٤] ، وذلك فى سنة سبع وثمانين وثلاثمائة . وكان سببه قصور النيل . فإن الزيادة بلغت ستة عشر ذراعًا وأصابع ، فنزع السعر ، وطلب القمح فلم يقدر عليه . واشتد خوف الناس ، وأخذت النساء من الطرق ، وعظم الأمر ، وانتهى سعر الخبز إلى أربعة أرطال[٥] بدرهم . ومشت الأحوال بانحطاط السعر بعد ذلك .

فلما كانت سنة خمس وتسعين [ص / ٩] وثلاثمائة، توقف النيل حتى كسر الخليج فى آخر مسرى ، والماء على خمسة عشر ذراعًا وسبعة أصابع ، وانتهت الزيادة فى ستة عشر

---

١ – فى نسخة « أ » : بمكان ، وما أثبته من نسخة « ب » .

٢ – هو الحاكم بأمر الله الفاطمى أبو على منصور بن العزيز بالله ت ٤١٠ هـ ، انظر اتعاظ الحنفا للمقريزى ٣/٢ .

٣ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٤ – الحسن بن عمار هو أحد الوصيين الذين عينهم الخليفة العزيز ، وهو على فراش الموت ، من أجل العناية بولده وخليفته الحاكم بأمر الله ، وقد أخذ الحسن بن عمار لقب أمين الدولة ، قال ابن تغرى بردى : استدعى الخليفة العزيز أبا محمد الحسن بن عمار الكتامى الملقب بأمين الدولة ثم خاطبه فى أمر ولده الملقب بالحاكم ، ثم استدعى ولده المذكور وخاطبه أيضًا بذلك . انظر النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١٢٢/٤.

٥ – الرطل : معيار يوزن به ، يختلف وزنه باختلاف البلاد ، فهو فى مصر اثنتا عشرة أوقية ، وفى بعض بلاد الشام خمسة عشر أوقية . انظر معجم المصطلحات والألقاب التاريخية لمصطفى عبد الكريم الخطيب، ص ٢١٠ .

ذراعًا وأصابع ، فارتفعت الأسعار ، ووقفت الأحوال فى الصرف. فإن الدراهم المعاملة[١] كانت تسمى يومئذ بالدراهم المزايدة[٢] والقطع . فتعنت الناس فيها ، وكان صرف الدينار بستة وعشرين درهمًا منها[٣] . فتزايد سعر الدينار [إلى أن كان فى سنة سبع وتسعين كل أربعة وثلاثين درهمًا[٤] بدينار][٥] ، وارتفع السعر ، وزاد اضطراب الناس ، وكثر عنتهم فى الصرف ، وتوقفت الأحوال من أجل ذلك . فتقدم الأمر بانزال عشرين صندوقًا من بيت المال[٦] مملوءة دراهم فُرّقت فى الصيارف ، ونودى فى الناس بالمنع من المعاملة بالدراهم القطع والمزايدة، وأن يحملوا ما بأيديهم منها إلى دار الضرب[٧]، وأجّلوا ثلاثًا . فشق ذلك على

---

١ – المقصود بالدراهم المعاملة هنا ما كان منها مضروبًا حسب قوانين الدولة ، القائمة ، متداولاً بين الناس بقيمته الرسمية . انظر صبح الأعشى للقلقشندى ٣/ ٤٣٩ .

٢ – فى نسخة « أ » : الزايدة ، وما أثبته من نسخة « ب » ونسخة « جـ » .

٣ – الدينار : لفظ معرّب عن اليونانية : ديناريوس ، والدينار عملة ذهبية إسلامية صكت فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان سنة ٨٦هـ تحت اسم الدينار العربى الإسلامى ، ليحل محل العملات البيزنطية والفارسية التى كانت تتعامل بها الدولة ، وذلك ضمن سياسة التعريب التى من ضمنها تعريب الجهاز المالى ، كان وزنه ٤,٢٥ جرام من الذهب . انظر القاموس الإسلامى لأحمد عطية الله ٢/ ٤٢٤ .
وانظر معجم المصطلحات والألقاب التاريخية لمصطفى عبد الكريم الخطيب ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

٤ – أما الدرهم : فهو نوع من أنواع العملات المعدنية التى تداولها العرب المسلمون منذ بداية العصر الإسلامى ، وهو مصكوك من الفضة والنحاس ، يعود أقدمها إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وكان وزنه ٢,٩٧ جرام . انظر القاموس الإسلامى لأحمد عطية الله ٢/ ٣٦٤ ، ومعجم المصطلحات والألقاب التاريخية لمصطفى عبد الكريم الخطيب ، ص ١٧٩ .

٥ – ما بين المعقوفتين ساقط من « أ » وما أثبته من نسختى « ب » و « جـ » .

٦ – كان مقر بيت المال فى مصر منذ الفتح الإسلامى بالجامع العتيق ، وينسب بناؤه إلى أسامة بن زيد التنوخى ، وهو صاحب الخراج فى ولاية عبد الملك بن رفاعة على مصر (٩٣ – ٩٨ هـ) ، انظر المواعظ والاعتبار للمقريزى ٢/ ٢٤٩ .

٧ – بنيت دار الضرب بالقاهرة فى زمن الخليفة الآمر الفاطمى بجهة القشاشين قرب الجامع الأزهر ، وقد تولى بناءها الوزير المأمون بن البطائحى ، وسميت بالدار الآمرية . انظر وصف هذه الدار وغيرها من دور الضرب بالإسكندرية وقوص وصور وعسقلان فى صبح الأعشى للقلقشندى ٣/ ٣٦٥ ، ٤/ ٤٦١ ، وفى المواعظ والاعتبار للمقريزى ١/ ٤٠٦ ، ٤٤٥ .

الناس لإتلاف أموالهم ، فإنه كان يدفع فى الدرهم الواحد من الدراهم الجدد[١] أربعة دراهم من الدراهم القطع والمزايدة [٢]. وأمر أن يكون الخبز ، كل اثنى عشر رطلاً بدرهم من الدراهم الجدد، وأن يصرف الدينار بثمانية عشر درهمًا [منهـا] [٣]. وضرب عدة من الطحانين والخبازين بالسياط [٤]. وشهروا من أجل ازدحام الناس على الخبز ، فكان لا يباع إلا مبلولاً ، وقصر مد النيل حتى انتهت الزيادة إلى ثلاثة عشر ذراعًا وأصابع ، فارتفعت الأسعار . وبرزت الأوامر لمسعود الصقلبى ، متولى الستر ، بالنظر فى أمر الأسعار ، فجمع خُزّان الغلال والطحانين والخبازين . وقبض على ما بالساحل من الغلال ، وأمر أن لا تباع [إلاَّ][٥] للطحانين ، وسعر القمح كل تليس[٦] بدينار إلا قيراط ، والشعير عشر ويبات بدينار ، والحطب عشر حملات بدينار ، وسعَّر سائر الحبوب والمبيعات ، وضرب جماعة بالسياط وشهرهم ، فسكن الناس بوجود الخبز، ثم كثر ازدحامهم عليه ، وتعذر وجوده فى العشايا[٧] . فأمر أن لا يباع القمح إلا للطحانين ، وشدّد فى ذلك ، وكبست عدة حواصل ، وفُرِّق ما فيها من القمح على الطحانين بالسعر ، واشتد الأمر ، فبلغ الدقيق كل حملة بدينار ونصف ، والخبز ستة أرطال بدرهم . وتوقف النيل عن الزيادة ، فاستسقى الناس مرتين ؛ وارتفع السعر ، فبلغت الحملة من الدقيق ستة دنانير . وكُسرَ الخليج ، والماء على خمسة عشر ذراعًا فاشتد الأمر وبلغ القمح كل تليس أربعة دنانير ، والأرز كل ويبة بدينار ، ولحم البقر رطل ونصف بدرهم ، ولحم الضأن رطل بدرهم ، والبصل عشرة أرطال بدرهم ، والجبن ثمانى أواق بدرهم ، وزيت الأكل ثمانى أوراق بدرهم ، وزيت الوقود رطل بدرهم .

---

١ - الدراهم الجدد : كان هذا اللفظ يستعمل دائمًا للدلالة على ما يستجد ضربه من النقود بأنواعها فى عهد من العهود ، تمييزًا لها فى الغالب من النقود العتق . انظر صبح الأعشى للقلقشندى ٤٦٣/٣ .

٢ - فى نسخة « أ » : " الزيادة " وما أثبته من نسخة « ب » .

٣ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٤ - فى نسخة « أ » : السيوط . وما أثبته من النسخ الأخرى حيث المفرد (سوط) وتجمع على : سياط وأسواط ، فقط انظر لسان العرب لابن منظور " سوط " .

٥ - ما بين المعقوفتين زيادة من « ب » .

٦ - التليس : كيس من الصوف أو الخوص ، ذو سعة معينة .

٧ - العشايا : جمع عشية ، أى آخر النهار ، لسان العرب لابن منظور " عشى " .

وبلغت زيادة النيل فى سنة ثمان وتسعين [أربعة عشر ذراعًا وأصابع فلحقت الناس من ذلك شدائد . وتمادى الحال إلى سنة تسع وتسعين] [١]. فكسر الخليج فى خامس عشر توت ، والماء فى خمسة عشر ذراعًا ، فنقص فى تاسع عشر توت وانحط . فعظم الأمر ، وكظّ[٢] الناس الجوع ، فاجتمعوا بين القصرين ، واستغاثوا بالحاكم[٣] فى أن ينظر لهم ، وسألوه أن لا يهمل أمرهم ، فركب حماره وخرج من باب البحر ، ووقف وقال : « أنا ماض إلى جامع راشدة[٤]، فأقسم بالله لئن عدت فوجدت فى الطريق موضعًا يطؤه حمارى مكشوفًا من الغلة لأضربن رقبة كلٍّ من يقال لى أن عنده شيئًا منها ، ولأحرقن داره وأنهبن ماله » ثم توجّه وتأخّر إلى آخر النهار ، فما بقى أحد من أهل مصر والقاهرة وعنده غلة حتى حملها من بيته أو منزله وشونها فى الطرقات ، وبلغت أجرة الحمار فى حمل النقلة الواحدة ديناراً ، فامتلأت عيون الناس ، وشبعت نفوسهم .

وأمر الحاكم بما يحتاج إليه فى كل يوم ، ففرضه على أرباب الغلات بالنسيئة [٥]، وخيّرهم فى أن يبيعوا بالسعر الذى يقرره بما فيه الفائدة المحتملة لهم ، وبين أن يمتنعوا فيختم على غلاتهم ولا يمكنهم من بيع شىء منها إلى حين دخول الجديدة ، فاستجابوا لقوله ، وأطاعوا أمره ، وانحلّ السعر ، وارتفع الضرر ، ولله عاقبةُ الأمُور .

" غلاء فى زمن الخليفة المستنصر "

ثم وقع غلاء فى خلافة المستنصر[٦] ، ووزارة الوزير الناصر لدين الله أبى محمد الحسن بن

---

١ – ما بين المعقوفتين زيادة من « ب » دون غيرها من النسخ .

٢ – كظّ الناس الجوع : أى ملأهم غيظًا ، انظر لسان العرب لابن منظور " كظظ " .

٣ – فى نسخة « أ » ونسخة « جـ » : للحاكم ، وما أثبته من نسخة « ب » .

٤ – يقع هذا الجامع فى جنوبى الفسطاط ، ويحمل اسم قبيلة راشدة التى نزلت فى هذا المكان أبان الفتح العربى الإسلامى لمصر ، وقد بناه الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٣هـ ، انظر صبح الأعشى للقلقشندى ٣٤١/٣ ، والمواعظ والاعتبار للمقريزى ٢٨٢/٢ .

٥ – النسيئة : التأخير والتأجيل ، يقال : باعه بالنسيئة أى بتأخير دفع الثمن . انظر لسان العرب لابن منظور " نسئ " .

٦ – فى نسخة « أ » المستعين " وليس بين الخلفاء الفاطميين من تلقب بهذا اللقب ، والصحيح ما أثبته من نسخة « ب » ، وقد ذكره المقريزي فى اتعاظ الحنفا ٢ / ١٨٤ هو المستنصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر أبى الحسن على بن الحاكم بأمر الله ت ٤٨٧هـ .

على بن عبد الرحمن اليازورى (١)، وسببه قصر النيل ، فى سنة أربع وأربعين وأربعمائة ، وليس بالمخازن السلطانية شئ من الغلات . فاشتدت المسغبة . وكان سبب خلو المخازن أن الوزير [ص / ١١] لما أضيف إليه القضاء فى وزارة أبى البركات ، كان ينزل إلى الجامع بمصر فى يومى السبت والثلاثاء من كل جمعة ، فيجلس فى الزيادة(٢) منه للحكم ، على رسم من تقدّمه(٣) ، وإذا صلّى العصر رجع إلى القاهرة .

وكان فى كل سوق من أسواق مصر ، على أرباب كل صنعة من الصنائع عريف يتولى أمرهم . والأخبار بمصر فى أزمنة المساغب(٤) متى بردت لم يرجع منها إلى شيء لكثرة ما يُغشّ بها (٥)، وكان لعريف الخبازين دكان يبيع الخبز بها ، ومحاذيها دكان آخر لصعلوك يبيع الخبز بها أيضًا ، وسعره يومئذ أربعة أرطال بدرهم وثمن ، فرأى الصعلوك أن خبزه قد كاد يبرد ، فأشفق من كساده ، فنادى عليه أربعة أرطال بدرهم ، ليرغب الناس فيه ، فانثال الناس عليه حتى بيع كله لتسامحه ، وبقى خبز العريف كاسداً ، فحنق العريف لذلك ، ووكل به عونين من الحسبة أغرماه عشرة دراهم ، فلما مر قاضى القضاة أبو محمد اليازورى إلى الجامع استغاث به (٦)، فأحضر المحتسب وأنكر عليه ما فعل بالرجل . فذكر المحتسب أن

---

١ - بلغ هذا الوزير نفوذاً واسعًا وحظوة عظيمة ، حتى أن المستنصر سأله أن يقرن اسمه باسمه على السكة ، فكان ذلك لمدة شهر ، ولُقب هذا الوزير بلقب الناصر للدين ، فكان ينقش على السكة :

ضربت فى دولة آل الهدى   من آل طه وآل ياسين

مستنصر بالله جلّ اسمه   وعبده الناصر للدين

إنظر حسن المحاضرة للإمام السيوطى ٢/٢٠٢ . طبعة عيسى الحلبى القاهرة ١٩٦٨ .

٢ - الزيادة فى المسجد هى ما أضيف إلى البناء الأصلى من جديد ، وهذا اللفظ يستعمل فى بعض الأحيان بمعنى الباب ، وقد كان لجامع دمشق باب اسمه الزيادة .

٣ - يقول المقريزى فى اتعاظ الحنفا ٢/٢٢٤ : على رسم من تقدمه من القضاة .

٤ - أزمنة المساغب : أزمة المجاعات ، فالسغب هو الجوع ، والمسْغَبة أى المجاعة . انظر : لسان العرب لابن منظور « سغب » .

٥ - فى « أ » يعسى به ، وفى « ب » : يعشر به ، وفى « جـ » : يغشى به .

٦ - فى نسخة « أ » : فاستغاثت ، وما أثبته من نسختى « ب » و « جـ » .

العادة جارية باستخدام عرفاء فى الأسواق على أرباب البضائع ، ويقبل قولهم فيما يذكرونه ، فحضر عريف الخبازين بسوق كذا ، واستدعى عونين من الحسبة ، [فوقع الظن أنه أنكر شيئًا اقتضى ذلك][1]، فأحضر الوزير الخباز وأنكر عليه ما فعله ، وأمر بصرفه عن العرافة ، ودفع إلى الصعلوك ثلاثين رباعيًا[2] من الذهب ، فكاد عقله يختلط من الفرح . ثم عاد الصعلوك إلى حانوته ، فإذا عجنته قد خبزت ، فنادى عليها خمسة أرطال بدرهم ، فمال الزبون إليه ، وخاف من سواه من الخبازين بَرْدَ أخبازهم فباعوا كبيعه ، فنادى ستة أرطال بدرهم فأدتهم الضرورة إلى أتباعه . فلما رأى أتباعهم له قصد نكاية العريف وغيظه بما يرخص من سعر الخبز ، فأقبل يزيد رطلاً رطلاً ، والخبازون يتبعونه[3] فى بيعه خوفًا من البوار[4] ، حتى بلغ النداء عشرة أرطال بدرهم . وانتشر ذلك فى البلد جميعه ، وتسامع الناس به ، فتسارعوا إليه . فلم يخرج قاضى القضاة من الجامع إلا والخبز [ص / ١٢] فى جميع البلد عشرة أرطال بدرهم . وكان يُبتاع للسلطان فى كل سنة غلة بمائة ألف دينار وتجعل متجراً ، فلما رجع اليازورى إلى القاهرة وداره بها ، مَثل بحضرة السلطان ، وعرفه ما منّ الله به فى يومه من أرخاص السعر ، وتوفر الناس على الدعاء له ، وأن الله - جلت قدرته - فعل ذلك وحلّ أسعارهم بحسن نيته فى عبيده ورعيته ، وإن ذلك بغير موجب ولا فاعل له ، بل بلطفه تعالى واتفّاق غريب ، وأن المتجر الذى يقام بالغلة فيه مضرة على المسلمين ، ربما انحط السعر عن مشتراها فلا يمكن بيعها ، فتتغير بالمخازن وتتلف ، وأنه يقيم متجراً لا كلفة على الناس فيه ، ويفيد أضعاف فائدة الغلة ، ولا يخشى عليه من تغير ولا انحطاط سعر ، وهو الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل ، وشبه ذلك ، فأمضى السلطان له[5] ما رآه ، واستمر ذلك ، ودام الرخاء [مدة سنين][6].

---

١ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٢ - أشار المقريزى فى كتاب له " شذور العقود ص ٢٤ " إلى هذا النوع من النقد ، فقال إن الخليفة المأمون العباسى هو الذى استحدثه وسماه بذلك ، وأنه ضرب منه دراهم ودنانير .

٣ - فى نسخة « أ » : يبيعونه ، وما أثبته من نسخة « ب » .

٤ - البوار : الهلاك ، بار فلان يبور بوراً أى هلك ، وأباره الله : أهلكه . لسان العرب لابن منظور "بور".

٥ - فى نسخة « أ » : فأمضى له ذلك ، وما أثبته من نسخة « ب » .

٦ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » وساقط من باقى النسخ ، وانظر اتعاظ الحنفا للمقريزى ٢٢٥/٢.

ثم قصر النيل بعد خمس سنوات من نظره ، فى سنة سبع وأربعين ، وليس فى المخازن إلا جراياتُ مَنْ فى القصور ، ومطبخ السلطان ، وحواشيه لا غير . فورد على الوزير أبى محمد ما كثر به فكره ، ونزع السعر إلى ثمانية دنانير التليس ، واشتدُّ الأمر على الناس ، وصار الخبز طرفة . فدبر الوزير البلد بما أمسك به رمق الناس ، وهو أن التجار حين إعسار المعاملين[١] ، وضيق الحال عليهم فى القيام للديوان بما يجب عليهم من الخراج ، ومطالبة الفلاحين بالقيام به ، وصاروا[٢] يبتاعون منهم غلاتهم قبل إدراكها بسعر فيه ربح لهم ، ثم يحضرون[٣] إلى الديوان ويقومون للجهبذ[٤] عنهم بما عليهم ، ويثبت ذلك فى روزنامج[٥] الجهبذ مع مبلغ الغلة وما قاموا به . فإذا صارت الغلال فى البيادر[٦] حملها التجار إلى مخازنهم .

فمنع الوزير أبو محمد من ذلك ، وكتب إلى عمال عامة النواحي باستعراض روزنامجات الجهابذة ، وتحرير ما قام به التجار عن المعاملين ومبلغ الغلة الذى وقع الابتياع عليه ، وأن يقوموا للتجار بما وزنوه للديوان ، ويربحونهم فى كل دينار ثمن دينار تطيبًا لنفوسهم[٧] ، وأن

---

١ – المقصود بلفظ " المعاملين " هنا ، هم : عمال النواحي والجهات التابعة لديوان الخراج ، ويطلق لفظ المعاملين أيضًا على الباعة ، كالخباز والبقال والقصاب . انظر صبح الأعشى للقلقشندى ٥/٤٦٢ .

٢ – فى نسخة « أ » : " وصاروا " .

٣ – فى نسخة « أ » : " يحْضروا ... ويقوموا " .

٤ – الجهبذ : هو كاتب برسم الاستخراج والقبض ، وكتب الوصلات ، وعمل المخازيم والختمات وتواليها ، ويطالب بما يقتضيه تخريج ما يرفعه من الحساب اللازم له لا الحاصل ، وهذا اللفظ قديم الاستعمال فى مصطلح الدواوين الإسلامية ، وقد أبدل بلفظ الصيرفى بعدئذ أيام الدولة الفاطمية . انظر قوانين الدواوين لابن مماتى ص ٩ .

٥ – الروزنامج : لفظ فارسى معناه السجل اليومى ، انظر معجم فاهنك فارسى أمروز ، تأليف غلام حسين صدرى أفشار ، الطبعة الثانية . إيران ١٣٧٥ هـ ، ص ٦١٠ .

٦ – البيادر : جمع " بيدر " ، وهو المكان الذى تكوَّم فيه الغلال بعد درسها . انظر لسان العرب لابن منظور " ب د ر " .

٧ – فى نسخة « أ » ويربحونهم فى كل دينارين دينار بطيبة أنفسهم " ، وما أثبته من نسخة « ب » وهى الأقرب إلى الصحة .

يضعوا ختومهم على المخازن [١]، ويطالعوا[٢] بمبلغ ما يحصل [ص / ١٣] تحت أيديهم فيها ، فلما حصل عنده علم ذلك ، جهز المراكب ، وحمل الغلال من النواحى إلى المخازن السلطانية بمصر ، وقرر ثمن التليس ثلاثة دنانير بعد أن كان بثمانية دنانير . وسلم إلى الخبازين ما يبتاعونه لعمارة الأسواق ، ووظف ما يحتاج إليه البلدان القاهرة ومصر ، وكان ألف تلّيس دوار[٣] فى كل يوم، لمصر سبعمائة وللقاهرة ثلاثمائة. فقام بالتدبير أحسن[٤] قيام، مدة عشرين شهراً، إلى أن أدركت غلة السنة الثانية ، فتوسع الناس بها ، وزال عنهم الغلاء ، وما كادوا يتألمون لحسن التدبير .

فلما قتل الوزير أبو محمد لم تر الدولة صلاحًا ، ولا استقام لها أمر وتناقضت عليها أمورها ، ولم يستقر لها وزير تحمد طريقته ، ولا يرضى تدبيره ، وكثرت السعاية فيها ، فما هو إلا أن يستخدم الوزير حتى يجعلوه سوقهم[٥] ويوقعوا به الظن[٦] ، حتى ينصرف ولم تطل مدته، وخالط السلطان الناس ، وداخلوه بكثرة المكاتبة . فكان لا ينكر على أحد مكاتبته . فتقدم منه سفساف ، وحظى عنده عدة أوغاد . وكثروا حتى كانت رقاعهم أرفع من رقاع الرؤساء والجلة . وتنقلوا فى المكاتبة إلى كل فن ، حتى أنه كان يصل إلى السلطان فى كل يوم ثمانمائة رقعة ، فتشبهت عليه الأمور ، وانتقضت الأحوال ، ووقع الاختلاف بين عبيد الدولة ، وضعفت قوى الوزراء عن تدبيرهم لقصر مدتهم . وأن الوزير ، منذ يخلع عليه إلى أن ينصرف ، لا يفيق من التحرز ممن يسعى عليه عند السلطان ، وتقف عليه الرجال [٧]، فما يكون فيه فضل عن الدفاع عن نفسه ، فخربت أعمال الدولة ، وقل ارتفاعها[٨]، وتغلب

---

١ - فى نسخة « أ » : " المخابز " وما أثبته من نسخة « ب » و « جـ » .

٢ - فى نسخة « أ » : " ويطلبوا " ، وما أثبته من نسخة « ب » .

٣ - تلّيس : التَلّيس والتَلّيسة : كيس الحساب ، ويقال : وضع الدفتر فى التليسة أى فى الكيس . انظر معجم الوافى لعبد الله البستانى « ت ل س » .

٤ - فى نسخة « أ » : " الحسن " وما أثبته من نسخة « ب » .

٥ - فى نسخة « أ » : " سوتهم " ، وفى نسخة « جـ » : " سرقهم" ، وما أثبته من نسخة « ب » .

٦ - فى نسخة « أ » : " ويوقعوا به الطير عليه " وما أثبته من نسخة « ب » .

٧ - يوجد بهامش الصفحة فى نسخة « أ » فى المقابل : " اللهم عافنا " .

٨ - الارتفاع هو مبلغ ما يتحصل من المال لديوان من دواوين الدولة ، أو هو مجموع الأموال الديوانية كلها . انظر نهاية الأرب للنويرى ٨ / ٢٧٥ - ٧٧ ، ٢٩٧ .

الرجال على معظمها ، واستصفوا نواحى ارتفاعها ، حتى انتهى ارتفاع الأرض[١] السفلى إلى ما لا نسبة له من ارتفاعها الأول ، وكان قبل سنى هذه الفتنة ستمائة ألف دينار تحمل[٢] دفعتين ، فى غرة رجب وغرة محرم . فاتضع الارتفاع ، وعظمت الواجبات ، ووقع اصطلاح الأضداد على السلطان [ص / ١٤] ، وواصلوا اقتضاءه قيوضهم [٣]، فيوفيهم[٤] واجباتهم ولازموا بابه ، ومنعوه لذاته وتجرؤوا على الوزراء ، واستخفوا بهم وجعلوهم غرضًا لسهامهم ، فكانت[٥] الفترات ، بعد صرف من ينصرف منهم ، أطول من مدة نظر أحدهم .

فطغى الرجال ، وتجرؤوا حتى خرجوا من طلب الواجبات إلى المصادرة ، فاستنفدوا أموال الخليفة ، وأخْلَوا منها خزائنه ، وأحوجوه إلى بيع أعراضه ، فاشتراها الناس بالقيم العادلة ، وكان الرسل يعترضون ما يباع ، فيأخذ من له درهم واحد ما يساوى عشرة دراهم ، ولا يمكن مطالبته بالثمن .

ثم زادوا فى الجرأة حتى صاروا إلى تقويم ما يخرج من الأعراض ، فإذا حضر المقوِّمون أخافوهم ، فيقوِّمون ما يساوى ألفًا بمائة وما دونها . ويعلم المستنصر وصاحب بيت المال بذلك، ولا يتمكنون من استيفاء الواجب عليهم . فتلاشت الأمور ، واضْمَحل الملك ، وعلموا أنه لم يبق ما يلتمس إخراجه لهم ، فتقاسموا الأعمال ، وأوقعوا التباسهم على ما زاد عن الارتفاع ، وكانوا ينتقلون فيها بحكم[٦] غلبة من تغلب صاحبه عليها ، ودام ذلك بينهم سنوات خمسًا أو ستًا . ثم قصر النيل ، فنزعت الأسعار نزوعًا بدد شملهم ، وفرّق إلفهم ، وشتت كلمتهم ، [وأوقع الله العداوة والبغضاء بينهم] [٧]، فقتل بعضهم بعضًا حتى أباد خضراءهم وعفّى آثارهم ، { فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا } [٨].

---

١ - لعل المقصود من هذا التعبير : " أسفل الأرض " أى الوجه البحرى الحالى .

٢ - فى نسخة « أ » : " كل " وما أثبته من نسخة « ب » وهو الصحيح .

٣ - القيض : المثل والبديل . لسان العرب لابن منظور " قيض " .

٤ - فى نسخة « أ » ونسخة « جـ » : " فيومهم بيومهم وأحيانهم " والصحيح ما أثبته من نسخة « ب » .

٥ - فى نسخة « أ » : " وكانت " .

٦ - فى نسخة « أ » : " حكم " وما أثبته من نسخة « ب » .

٧ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » ونسخة « جـ » .

٨ - سورة النمل الآية (٥٢) .

" غلاء ثان فى زمن المستنصر "

ثم وقع فى أيام المستنصر الغلاء الذى فحش أمره [١]، وشنع ذكره ، وكان أمده [٢] سبع سنين . وسببه ضعف السلطنة ، اختلال أحوال المملكة ، واستيلاء الأمراء على الدولة ، واتصال الفتن بين العربان وقصور[٣] النيل ، وعدم من يزر ما شمله الرى . وكان ابتداء ذلك فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة . فنزع السعر ، وتزايد الغلاء ، وأعقبه الوباء حتى تعطلت الأراضى من الزراعة . وشمل الخوف ، وخيفت السبل براً وبحراً ، وتعذر السير إلى الأماكن إلا بالخفارة الكثيرة وركوب الغرر [٤]. واستولى الجوع لعدم القوت ، حتى بيع رغيف خبز فى النداء ، بزقاق القناديل من الفسطاط ، كبيع الطرف بخمسة عشر ديناراً [ص / ١٥] ، وبيع الأردب من القمح [بثمانين ديناراً] [٥]. وأكلت الكلاب والقطط حتى قلت الكلاب ، فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير ، وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضًا . وتحرز الناس، فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ومعهم سلب وحبال فيها كلاليب ، فإذا مر بهم أحد ألقوها عليه ، ونشلوه فى أسرع وقت وشرحوا لحمه وأكلوه . ثم آل الأمر إلى أن باع المستنصر كل ما فى قصره من ذخائر وثياب [وأثاث][٦] وسلاح وغيره ، وصار يجلس على حصير ، وتعطلت دواوينه ، وذهب وقاره . وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن : «الجوع ! الجوع ! » ، تردن المسير إلى العراق ، فتسقطن عند المصلى ، وتمتن جوعًا .

---

١ – قال ابن وصيف شاه : ثم وقع فى زمن المستنصر غلاء عظيم ، يعادل الغلاء الذى وقع فى زمن سيدنا يوسف عليه السلام ، فأقام الغلاء سبع سنين متوالية ، والنيل لم تصل زيادته ، إلى أكثر من اثنى عشر ذراعًا وأحد عشر إصبعًا ، ثم إن الناس أكل بعضهم بعضًا ، وبيع الأردب القمح بثمانين ديناراً ، ثم اشتد الأمر حتى بيع كل إردب بمائة وعشرين ديناراً ، ثم بيع كل رغيف فى زقاق القناديل بخمسة عشر ديناراً، وبعض الناس أكل الميتة والكلاب والقطط . انظر جواهر البحور ، ص ٨٣ .

٢ – فى نسخة « أ » : " مدة " وما أثبته من نسخة « ب » .

٣ – مثل هذه الأسباب التى يعرضها المقريزى تجعله يتفرد بها ، فليس من المألوف فى كتب المؤرخين فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب ، وهذا مما يجعل المقريزى صاحب مكانة خاصة بين المؤرخين ، مما يجعل للرسائل الصغيرة التى كتبها المقريزى قيمة واضحة فى فهم تاريخ مصر .

٤ – الغرر : التعرض للخطر ، وركوب الغرر هو الإقدام على شئ مع التعرض للخطر . انظر لسان العرب لابن منظور " غ ر ر " .

٥ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٦ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

[واحتاج المستنصر حتى باع حلية قبور آبائه][1] . وجاءه الوزير يومًا على بغلته ، فأكلتها العامة ، فشنق طائفة منهم ، فاجتمع عليهم النسا فأكلوهم . وأفضى الأمر إلى عدم المستنصر القوت . وكانت الشريفة بنت صاحب السبيل[2] تبعث إليه فى كل [يوم][3] من فتيت ، من جملة ما كان لها من البر والصدقات فى تلك الغلوة ، حتى أنفقت مالها كله ، وكان يجلّ عن الإحصاء ، فى سبيل البر ، ولم يكن للمستنصر قوت سوى ما كانت تبعث به إليه ، وهو مرة واحدة فى اليوم والليلة .

ومن غريب ما وقع ، أن امرأة من أرباب البيوتات أخذت عقداً لها قيمته ألف دينار ، وعرضته على جماعة فى أن يعطوها به دقيقًا . وكل يعتذر إليها ويدفعها عن نفسه إلى أن يرحمها بعض الناس ، وباعها به تلّيس دقيق بمصر ، وكانت تسكن بالقاهرة ، فلما أخذته أعطت بعضه لمن يحميه من النهابة فى الطريق . فلما وصلت إلى باب زويلة تسلمته من الحماة له ومشت قليلاً ، فتكاثر الناس عليها وانتهبوه نهبًا ، فأخذت هى أيضًا مع الناس من الدقيق ملء يديها لم يُنبْها غيره . ثم عجنته وشوته ، فلما صار قرصة أخذتها معها ، وتوصّلت إلى أحد أبواب القصر ، ووقفت على مكان مرتفع ، رفعت القرصة على يدها بحيث يراها الناس ، ونادت بأعلى صوتها : " يا أهل القاهرة ! ادعوا لمولانا المستنصر الذى أسعد الله الناس بأيامه، وأعاد عليهم[4] بركات حسن نظره حتى تقومت على هذه القرصة بألف دينار " [ص/١٦] .

فلما اتصل به ذلك امتعض[5] له ، وقدح فيه[6]، وحرك منه ، وأحضر الوالى وتهدده وتوعده ، وأقسم له بالله جلت قدرته أنه إن لم يظهر الخبز فى الأسواق وينحل السعر ، ضرب

---

١ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٢ – صاحب السبيل : مثل هذه الوظيفة غير وارد فى باب الإدارة الحكومية زمن الفاطميين بكتاب صبح الأعشى للقلقشندى ٤٦٨/٣ .

٣ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٤ – فى نسخة « أ » : " عليها " . والصحيح ما أثبته من نسخة « ب » ونسخة « جـ » .

٥ – امتعض له : غضب له وشقّ عليه ، انظر فى ذلك لسان العرب لابن منظور " م . ع . ض " .

٦ – قدح فيه : طعن فيه ، وعابه ، وتنقّصه . انظر لسان العرب لابن منظور " ق . د . ح " .

رقبته ، وانتهب ماله . فخرج من بين يديه ، وأخرج من الحبس قومًا وجب عليهم القتل . وأفاض عليهم ثيابًا واسعة وعمائم مدورة وطيالس سابلة [١]، وجمع تجار الغلة والخبازين والطحانين . وعقد مجلسًا عظيمًا . وأمر بإحضار واحد من القوم ، فدخل فى هيئة عظيمة ، حتى إذا مثل بين يديه قال له : " ويلك ! أما كفاك أنك خنت السلطان ، واستوليت على مال الديوان ، إلى أن خربت الأعمال ومحقت الغلال ، فأدى ذلك إلى اختلال الدولة وهلاك الرعية؟ اضْرب رقبته ! " . فضربت فى الحال ، وتركه ملقى بين يديه . ثم أمر بإحضار آخر منهم ، فقال له : " كيف جسرت على مخالفة الأمر لما نهى عن احتكار الغلة ، وتماديت فى ارتكاب ما نهيت عنه ، إلى أن تشبه به سواك ، فهلك الناس ؟ اضْرب رقبته ! " ، [فضربت فى الحال][٢]. واستدعى آخر ، فقام إليه الحضارون من التجار والطحانين والخبازين وقالوا : "أيها الأمير ! فى بعض ما جرى كفاية ، ونحن نخرج الغلة ، وندير الطواحين ، ونعمر الأسواق بالخبز، ونرخص الأسعار على الناس ، ونبيع الخبز رطلاً بدرهم " . فقال : " ما يقنع الناس[٣] منكم بهذا " ، فقالوا : " رطلين " ، فأجابهم بعد الضراعة ، ووفوا بالشرط . وتدارك الله الخلق وأجرى النيل ، وسكنت الفتن ، وزرع الناس وتلاحق الخير ، وانكشفت الشدة ، وفرجت الكربة[٤] . وخبر هذه الغلوات مشهور[٥] ، وفى هذا القدر كفاية من التعريف بها[٦] ، والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون .

---

١ - المقصود بذلك الملابس التى كان يرتديها تجار القاهرة فى ذلك العهد ، كما يفهم من هذا السياق أن هذه الملابس كانت مما يميز التجار من غيرهم من أصناف السكان بالقاهرة .

٢ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « جـ » فقط .

٣ - فى نسخة « ب » : " السلطان " ،وما أثبته من نسخة « أ » ونسخة « جـ» .

٤ - الكربة : الغمُّ الذى يأخذ بالنفس . انظر لسان العرب لابن منظور " ك . ر . ب " .

٥ - فى نسخة « أ » : " مشهورة " وما أثبته من نسختى « ب » و « جـ » .

٦ - يعرف هذا الغلاء باسم " الشدة العظمى " وقد شبهها غير واحد من المؤرخين بأيام القحط التى بلغت سبع سنوات أيام سيدنا يوسف عليه السلام . انظر المواعظ والاعتبار للمقريزى ١/ ٣٣٥ - ٣٣٨ ، ومحمد عبد الله عنان فى مصر الإسلامية ، ص ٨٨ - ٩٠ .

" غلاء فى زمن الخليفة الآمر بأحكام الله "

ثم وقع غلاء فى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله[١] ، ووزارة الأفضل[٢]، بلغ القمح فيه كل مائة أردب بمائة وثلاثين ديناراً . فتقدم الخليفة إلى القائد أبى عبد الله بن فاتك - الملقب بعد ذلك بالمأمون البطائحى[٣] - أن يدبر الحال . فختم على مخازن الغلات ، وأحضر أربابها وخيرهم فى أن تبقى غلاتهم تحت الختم إلى أن يصل المغل الجديد ، أو يفرج عنها[٤] وتباع [ص / ١٧] بثلاثين ديناراً كل مائة أردب . فمن أجاب أفرج عنه ، وباع بالسعر المذكور ، ومن لم يجب أبقى الختم على حواصله[٥] . وقدر ما يحتاج إليه الناس فى كل يوم من الغلة ، وقدر الغلال التى أجاب التجار إلى بيعها بالسعر المعين ، وما تدعو إليه الحاجة بعد ذلك بيع من غلات الديوان على الطحانين بالسعر . فلم يزل الأمر على ذلك إلى أن دخلت الغلة الجديدة، فانحلت الأسعار ، واضطر أصحاب الغلة المخزونة إلى بيعها خشية من السوس ، فباعوها بالنزر اليسير ، وندموا على ما فاتهم [من البيع][٦] بالسعر الأول [٧].

---

١ - الآمر بأحكام الله أبو على منصور بن المستعلى بالله ، وهو السابع من الخلفاء الفاطميين ولد سنة ٤٩٠هـ وتوفى سنة ٥٢٤ هـ ، انظر المزيد من ترجمته فى : وفيات الأعيان لابن خلكان ٥/٢٩٩ - ٣٠٢، واتعاظ الحنفا للمقريزى ٢٩/٣ وما بعدها ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٥ / ١٧٠ - ١٨٥ ، وجواهر البحور لابن وصيف شاه ، ص ٨٦ .

٢ - الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، وكان حسن التدبير فحْل الرأى ، وهو الذى دبّر دولة الآمر بأحكام الله . انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٢ / ٤٤٨ .

٣ - هو أبو عبد الله محمد بن الأمير نور الدين أبى شجاع فاتك بن الأمير مجد الدولة المعروف بالمأمون ابن البطائحى . انظر اتعاظ الحنفا للمقريزى ٣٨/٣ وما بعدها .

٤ - فى نسخة « أ » " أو يفرج الله تعالى عنهم " ، وما أثبته من نسخة « ب » .

٥ - فى نسخة « أ » : " أبقى الختم عليه " ، وما أثبته من نسخة « ب » .

٦ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٧ - قال ابن وصيف شاه : ووقع الغلاء فى أيام الآمر بأحكام الله ، حتى وصل القمح كل أردب ثلاثين ديناراً، ثم تراجع الأمر بسياسة الوزير البطائحى ، فإنه كان مدبراً تدبيراً لم يدبره غيره من الوزراء . انظر جواهر البحور ، ص ٨٦ .

" غلاء فى زمن الحافظ لدين الله "

ثم وقع غلاء شنيع ، وقحط ذريع ، فى أيام الحافظ لدين الله [١]، ووزارة الأفضل بن وحش [٢]. ألا أنه لم يستمر ، فإن الأفضل المذكور كان قد ركب إلى الجامع العتيق بمصر ، وأحضر كل من يتعلق به ذكر الغلة ، وأدب جماعة من المحتكرين ومن يزيد فى الأسعار ، ووظف عليهم القيام بما يحتاج إليه فى كل يوم . وباشر الأمر بنفسه ، وأخذ فيه بالحد ، فلم يسع أحد خلافه . ولم يزل الحال كذلك إلى أن مَنَّ الله تعالى بالرخاء ، وكشفت عن الناس ما نزل بهم من البلاء . { إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } [٣].

" غلاء فى زمن الفائز بنصر الله "

ثم وقع غلاء أيام الفائز [٤]، بوزارة الصالح طلائع بن رُزِّيك [٥]، بلغ فيه الأردب خمسة

---

١ - هو أبو الميمون عبد المجيد ، الملقب الحافظ ، ابن أبى القاسم محمد بن المستنصر بويع بالقاهرة يوم مقتل ابن عمه بالقاهرة الآمر بأحكام الله ، وهو الخليفة الثامن من الخلفاء الفاطميين ، ولد فى عام ٤٦٦ هـ وقيل ٤٦٧ هـ وقد توفى سنة ٥٤٣ هـ وقيل ٥٤٤ هـ . انظر المزيد من ترجمته فى : وفيات الأعيان لابن خلكان ٣ / ٢٣٥ - ٢٣٧ ، جواهر البحور لابن وصيف شاه ص ٨٧ ، اتعاظ الحنفا للمقريزى ٣ / ١٣٥ - ١٩٢ ، المواعظ والاعتبار للمقريزى ٣٥٧/١ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢٣٧/٥ وما بعدها ، وشذرات الذهب لابن العماد ١٣٨/٤ .

٢ - فى نسخة « ب » : " وخشى " ، وما أثبته من نسخة « أ » ، وقد اختلفت المصادر فى ذكر هذا الاسم ، فالإمام السيوطى فى حسن المحاضرة ١١٨/٢ يذكره : " رضوان بن الوحشى " ، وابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة يذكره : " رضوان بن ولخشى " ٥ / ٢٤١ ، ٢٨١ .

٣ - سورة يوسف الآية (١٠٠) .

٤ - هو الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن الظافر بأمر الله أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد ولد ٥٠٥هـ وتوفى سنة ٥٥٥ هـ ، وللمزيد من ترجمته انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٩١/٣ ، واتعاظ الحنفا للمقريزى ٢١٣/٣ ، وجواهر البحور لابن وصيف شاه ص ٨٨ - ٩٠ .

٥ - هو طلائع بن رُزِّيك الملقب بالملك الصالح أبى الغارات ، وزير عصامى ، أصله من الشيعة الإمامية ، دخل مصر وولى وزارة الخليفة الفائز الفاطمى سنة ٥٤٩ هـ ، واستقل بأمر الدولة ، ونعت بصفات سيئة وبالملك الصالح فارسى المسلمين نصير الدين ، وكان شجاعًا حازمًا ، وقيل كان مديراً جواداً ، صادق العزيمة ، ولد فى ٤٩٥ هـ وتوفى سنة ٥٥٦ هـ ، وقيل غير ذلك " ، انظر المزيد من ترجمته فى : وفيات الأعيان لابن خلكان ٢ / ٥٢٦ ، والمواعظ والاعتبار للمقريزى ٢٩٣/٢ ، ودول الإسلام للذهبى ٥١/٢ .

دنانير لقصور ماء النيل[١] عن الوفاء . وكان بالأهراء[٢] من الغلات ما لا يحصى ، فأخرج جملة كثيرة[٣] من الغلال وفرقها على الطحانين ، وأرخص سعرها ، ومنع من احتكارها ، وأمر الناس ببيع الموجود منها ، وتصدق على جماعة من المتجملين[٤] والفقراء بجملة كثيرة ، وتصدق سيف الدين حسين[٥] ، وغيره من الأمراء وأرباب الجهات[٦] بالقصر ، ما نفس عن الناس ولم يستمر الحال في ذلك سوى مدة يسيرة ، حتى فرج الله ، وهجم الرخاء .

" غلاء في زمن السلطان العادل الأيوبي "

ثم وقع الغلاء في الدولة الأيوبية ، وسلطنة العادل أبي بكر بن أيوب[٧] ، في سنة [ست و][٨] تسعين وخمسمائة . وكان سببه توقف النيل عن الزيادة وقصوره عن العادة [٩]. فانتهت

---

١ – ذكر ابن تغرى بردى أن من بين أسباب الغلاء أيضًا – بجانب قصور ماء النيل ، سيرة طلائع بن رزيك المذمومة ، فقال : احتكر الغلات فغلت الأسعار ، وقتل أمراء الدولة خيفة منهم ، فكان سبب خراب الديار. انظر النجوم الزاهرة ٥/٣٣٩ .

٢ – الأهراء : هي الأماكن التي تخزّن بها الغلال والأتبان الخاصة بالخليفة أو السلطان ، احتياطًا لأمثال الطوارئ الاقتصادية الواردة بالمتن ، وكانت لا تفتح إلا عند الضرورة ، وهي غير الشون ، فهذه يوضع بها ما يستهلك طول السنة من غلال وأحطاب وأتبان . انظر كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ١/٥٠٨ .

٣ – في نسخة « أ » : " يسيرة " ، وما أثبته من نسخة « ب » وهو الأقرب إلى الصحة .

٤ – المقصود بكلمة " المتجملين " : الفقراء الذين لا يظهرون المسكنة والذل على أنفسهم . انظر لسان العرب لابن منظور " ج . م . ل " .

٥ – كان هذا الأمير ابن أخي الوزير طلائع بن رزيك ، انظر النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٥/٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ .

٦ – أرباب الجهات : أهل اليسر والغنى ، ومفردها : جهة ، وكذلك الضرائب الديوانية كالجهة المفردة ، انظر صبح الأعشى للقلقشندي ٣ / ٤٥٨ – ٤٦٠ ، والسلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ١ / ٣٧٣ .

٧ – هو الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن الأمير نجم الدين أيوب بن شادي ، انظر في ترجمته : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، لابن واصل الحموي تحقيق جمال الدين الشيال ، طبعة القاهرة ١٩٥٣م ، ١٥٥/٥ ، والسلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، وسعيد عبد الفتاح عاشور ، طبعة القاهرة ، ٢٩٩/١ ، والذيل على الروضتين ، لأبي شامة المقدسي شهاب الدين عبدالرحمن ابن إسماعيل ، طبعة بيروت الثانية ١٩٧٤م ، ص ١٥٤ ، والكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري على ابن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني ٦٣٠ هـ طبعة بيروت الثانية ، مكتبة الكتاب العربي لعام ١٩٦٧م ، ٩ / ٣٧٨ – ٣٧٩ .

٨ – ما بين المعقوفتين زيادة من « ب » .

٩ – أضاف المقريزي في كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك ١٥٦/١ تفصيلات ضافية بصدد هذا الغلاء ، وما أعقبه في السنوات التالية من قحط ووباء .

الزيادة إلى اثنى عشر ذراعًا وأصابع ، فتكاثر مجئ الناس من القرى إلى القاهرة من الجوع ، ودخل فصل الربيع ، فهب هواء أعقبه وباء وفناء وعدم القوت حتى أكل [ص / ١٨] الناس صغار بنى آدم من الجوع ، فكان الأب يأكل ابنه مشويًا ومطبوخًا ، والمرأة تأكل ولدها ، فعوقب جماعة بسبب ذلك ، ثم فشا الأمر وأعيا الحكام . فكان يوجد بين ثياب الرجل والمرأة كتف صغير أو فخذة أو شيء من لحمة ، ويدخل بعضها إلى جاره ، فيجد القدر على النار ، فينظرها حتى تتهيأ ، فإذا هى لحم طفل ، وأكثر ما يوجد ذلك فى أكابر البيوت . ووجدت لحوم الأطفال بالأسواق والطرقات مع الرجال والنساء مختفية . وغُرِّق[١] فى دون شهرين ثلاثون امرأة بسبب ذلك.

ثم تزايد الأمر حتى صار غذاء الكثير من الناس لحوم بنى آدم بحيث ألفوه ، وقل منعهم منه لعدم القوم من جميع الحبوب وسائر الخضروات وكل ما تنبته الأرض . فلما كان آخر الربيع احترق ماء النيل فى برمودة[٢] حتى صار المقياس فى بر مصر ، وانحسر الماء عنه إلى بر الجيزة ، وتغير طعم الماء وريحه . ثم أخذ الماء فى الزيادة قليلاً قليلاً إلى السادس عشر من مسرى[٣] ، فزاد أصبعًا واحداً ، ثم وقف أيامًا ، وأخذ في زيادة قوية أكثرها ذراع إلى أن بلغ خمسة عشر ذراعًا وستة عشر أصبعًا ، ثم انحط من يومه . فلم تنتفع به البلاد لسرعة نزوله وكان أهل القرى قد فنوا ، حتى أن القرية التى كان فيها خمسمائة نفس لم يتأخر بها سوى اثنين أو ثلاثة . ولم تعمر الجسور ولا مصالح البلاد لعدم البقر ، فإنها فقدت حتى بيع الرأس الواحد من البقر بسبعين ديناراً ، والهزيل بستين ديناراً . وجافت[٤] الطرق كلها ، بمصر والقاهرة ، وسائر دروب النواحى بجميع الأقاليم ، من كثرة المَوَتان[٥]، وما زرع على قلته أكلته الدودة ، ولم يمكن رده لعدم التقاوي والأبقار .

- فى نسخة « ب » : " حرق " ، وما أثبته من نسخة « أ » و « جـ » .
- برمودة: اسم الشهر الثامن من السنة الشمسية عند الأقباط وقت دخوله السادس والعشرين من شهر آزار – مارس من شهور السنة الميلادية . انظر معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ، مصطفى عبد الكريم ، ص ٧٥.
- مسرى : اسم الشهر الثانى عشر من شهور السنة القبطية يوافق دخوله يوم الرابع والعشرين من تموز – يوليو ، وآخره ٢٧ آب – أغسطس من شهور السنة الميلادية . انظر معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ، مصطفى عبد الكريم ، ص ٣٩٦ .
- جافت : أنتنت ، والجيفة : جثة الميت المنتنة ، والجمع جِيَف وأجياف ، لسان العرب لابن منظور " ج . ى. ف " .
- المَوَتان : الموت ، وأرض لم يجر فيها أحياء بعد . انظر معجم الوافى للبستانى " م . و . ت " .

واستمر أكل لحوم الأطفال ، وعدم الدجاج جملة . وكانت الأفران إنما يوقد فيها بأخشاب البيوت ، وكانت جماعة من أهل الستر يخرجون فى الليل ويتحطبون من المساكن الخالية ، فإذا أصبحوا باعوها ، وكانت الأزقة كلها بالقاهرة ومصر لا يرى فيها من الدور المسكونة إلا القليل . وكان الرجل بالريف ، فى أسفل مصر وأعلاها [ص / ١٩] يموت وبيده المحراث ، فيخرج أخر للحرث فيصيبه ما أصاب الأول . واستمر النيل ثلاث سنين متوالية لم يطلع منه إلا القليل ، فبلغ الأردب من القمح ثمانية دنانير ، وأطلق العادل للفقراء شيئًا من الغلال ، وقسم الفقراء على أرباب الأموال ، وأخذ منهم اثنى عشر ألف نفس ، وجعلهم فى مناخ[١] القصر ، وأفاض عليهم القوت ، وكذلك فعل جميع الأمراء وأرباب السعة والثراء . وكان الواحد من أهل الفاقة إذا امتلأ بطنه بالطعام بعد طول[٢] الطوى سقط ميتًا ، فيدفن منهم كل يوم العدة الوافرة ، حتى أن العادل قام فى مدة يسيرة بمواراة نحو[٣] مائتى ألف وعشرين ألف ميت، فإن الناس كانوا يتساقطون فى الطرقات من الجوع ، ولا يمضى يوم حتى يؤكل عدة من بنى آدم .

وتعطلت الصنائع ، وتلاشت الأحوال ، وفنيت الأقوات والنفوس حتى قيل : سنة سبع افترست أسباب الحياة . فلما أغاث الله الخلق بالنيل ، لم يوجد أحد يحرث أو يزرع [٤]، فخرج الأجناد بغلمانهم وتولوا ذلك بأنفسهم ، ولم تزرع أثر البلاد لعدم الفلاح . وعدمت الحيوانات جملة ، فبيع فروج[٥] بدينارين ونصف ، ومع ذلك كانت المخازن مملوءة غلالاً ، والخبز متيسر الوجود يباع كل رطل بدرهم ونصف . وزعم كثير من أرباب الأموال أن هذا الغلاء كسنىّ يوسف عليه السلام ، وطمع أن يشترى بما عنده من الأقوات أموال أهل مصر ونفوسهم ، فأمس الغلال وامتنع من بيعها ، فلما وقع الرخاء ساست كلها[٦] ، ولم ينتفع بها

---

١ – المناخ هنا بمعنى المكان المخصص لأنواع الجمال السلطانية وهو هنا بمعنى مخزن الغلال ، كالأهراء والشثون. لسان العرب لابن منظور " ن . ى . خ " .

٢ – فى نسخة « أ » : حلول الطول " ، وما أثبته من نسخة « ب » ، وكذلك من نسخة « جـ » .

٣ – فى نسخة « أ » : " فى مدة يسيرة لمواراة بعض من مات نحو مائتى ألف وعشرين ... " وما أثبته من نسخة « ب » .

٤ – فى نسخة « أ » : " يحرث ولا يزرع " .

٥ – الفرُّوج : فرخ الدجاجة ، والجمع فراريج . لسان العرب لابن منظور " ف . ر . ج " .

٦ – ساست : أى اعتراها السوس . لسان العرب لابن منظور " س . و . س " .

[فرماها] [١]. وأصيب كثير ممن اقتنى المال من الغلال ، فبعضهم مات عقب ذلك شر ميتة ، وبعضهم أجيح فى ماله ، إن ربك لبالمرصاد ، [وهو الفعال لما يريد] [٢].

" غلاء فى زمن السلطان العادل كُتْبُغا "

ثم وقع غلاء بالدولة التركية ، بسلطنة العادل كتبغا [٣]، فى سنة ست وتسعين وستمائة ، وذلك أن بلاد بَرْقة[٤] لم تمطر ، وجفت الأعين منها [ص / ٢٠] ، وعم أهلها الجوع لعدم القوت ، فخرج منها نحو من ثلاثين ألف نفس بعيالهم وأنعامهم يريدون مصر[٥]. فهلك معظمهم جوعًا وعطشًا ، ووصل اليسير منهم فى جهد وقلة ، وتأخر الوسمى[٦] ببلاد الشام حتى فات أوان الزرع ، فاستسقوا ثلاثًا فلم يسقوا . ثم اجتمع الكافة وخرجوا للاستسقاء . وضجوا وابتهلوا إلى الله سبحانه وتعالى ، فأغاثهم وسقاهم حتى رجعوا فى المياه إلى البلد ، ووقف النيل بمصر عن الزيادة ، فتحركت الأسعار ، وتأخر المطر ببلاد القدس والساحل حتى فات أوان الزرع، وجفت الآبار ، ونصب ماء عين سلوان [بالقدس] [٧]. وكان مبلغ ماء النيل فى هذه السنة ، أعنى سنة أربع وتسعين ، ستة عشر ذراعًا وسبعة عشر أصبعًا ، ونزل سريعًا ،

---

١ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٢ - ما بين المعقوفتين ساقط من نسخة « أ » ونسخة « ب » وما أثبته من نسخة « جـ » .

٣ - هو كُتْبُغا بن عبد الله المنصورى زين الدين الملقب بالملك العادل ، من ملوك دولة المماليك البحرية بمصر والشام ، ولد سنة ٦٣٩ هـ ومات سنة ٧٠٢ هـ . انظر بدائع الزهور لابن إياس ١/١٣٣ تحقيق محمد مصطفى ، طبعة القاهرة بدون تاريخ ، والسلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى ١ / ٨٠٦ - ٨٢٦ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٨ / ٥٥ ، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ت ٧٦٤ هـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٥١م ، ٢/١٣٨ .

٤ - بَرْقة : مدينة تقع بين الإسكندرية وإفريقية ، وبينها وبين الإسكندرية مسيرة شهر ، ومن الفسطاط إلى برقة مائتان وعشرون فرسخًا . انظر معجم البلدان لياقوت الحموى ١/٣٨٨ .

٥ - لعلَّ السبب فى خروج ذلك العدد من برقة إلى مصر من دون غيرها من خضراء البلاد المجاورة ، أن برقة كانت تابعة لمصر فى ظل الحكم المماليكى ، يقطعها السلطان تارة لأمرائه من المماليك ، وتارة لرؤساء العرب الظاعنين هناك . انظر صبح الأعشى للقلقشندى ٣/٣٩١ - ٣٩٢ .

٦ - الوسمى : مطر الخريف ، ومن معانيه أيضًا محصول الذرة الأول .

٧ - ما بين المعقوفتين ساقط من « أ » و « ب » وأثبته من نسخة « جـ » ولعل المقريزى خص « عين سلوان » لكونها عينًا مباركة بالقدس .

وكسر بحر أبى المنجا[١] قبل أوانه بثلاثة أيام خوفًا من النقص ، فبلغ كل أردب من القمح إلى مائة درهم، والشعير إلى ستين ، والفول إلى خمسين ، واللحم إلى ثلاثة دراهم الرطل ، فأخرجت الغلال من الأهراء ، وفرقت فى المخابز والجرايات ، لكل صاحب جراية ست جرايات فى شهرين. وكان راتب البيوت والجرايات لأرباب الرواتب فى كل يوم خمسين وستمائة أردب[٢]، ما بين قمح وشعير ، وراتب الحوائج خاناه[٣] عشرين ألف رطل لحم فى اليوم .

وكان قد ظهر الخلل فى الدولة لقلة المال وكثرة النفقات فتعددت المصادرات للولاة والمباشرين ، وطرحت البضائع بأغلى الأثمان على التجار .

ودخلت سنة خمس وتسعين وبالناس شدة من الغلاء وقلة الواصل ، إلا أنهم يمنون أنفسهم بمجئ الغلال الجديدة ، وكان قد قرب أوانها . فعند إدراك الغلال هبت ريح سوداء مظلمة من نحو بلاد برقة هبوبًا عاصفًا ، وحملت ترابًا أصفر كسا زروع تلك البلاد ، فهافت[٤] كلها ولم يكن بها إذ ذاك إلا زرع قليل ، ففسدت بأجمعها . وعمت تلك الريح[٥] والتراب إقليم البحيرة والغربية وإقليم الشرقية ، ومرت إلى الصعيد الأعلى ، فهاف الزرع، وفسد الصيفى من الزرع ، كالأرز والسمسم والقلقاس وقصب السكر ، وسائر ما يزرع على السواقى ، فتزايدت الأسعار .

وأعقبت تلك الريح أمراض وحميات عمت سائر الناس ، فنزع سعر السكر والعسل وما يحتاج إليه المرضى [ص / ٢١] ، وعدمت الفواكة ، وبيع الفروج بثلاثين درهمًا ، والبطيخة

---

١ - حفرت هذه الترعة فى العهد الفاطمى لرىّ بعض الأراضى بالجنوب الشرقى للدلتا بماء النيل ، وكان المكلف بالقيام على حفرها أبو المنجا شعيا اليهودى فعُرفت باسمه ، وكان ميعاد كسرها من أعياد فيضان النيل بالقاهرة ، زمن الفاطميين والأيوبيين ، انظر المواعظ الاعتبار للمقريزى ١/ ٧١ ، ٤٨٧ ؛ صبح الأعشى للقلقشندى ٣/ ٣٠١ - ٣٠٢ .

٢ - فى نسخة « ب » : " سبعمائة " وما أثبته من نسخة « أ » ، ونسخة « ب » .

٣ - الحوائج خاناه : لفظ من كلمتين : حوائج وهى عربية ، وخاناه وهى فارسية ، ومعناها معًا فى مصطلح الدولة المملوكية بمصر بيت الحوائج واللوازم التابع لسلطان أو أمير . انظر كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى ١ / ٤٥٩ .

٤ - هاف من الهيف وهو شدة العطش ، لسان العرب لابن منظور " هـ . ى . ف " .

٥ - فى نسخة « أ » : " الزروع " وما أثبته من نسخة « ب » وهو الصحيح .

بأربعين ، والرطل من البطيخ بدرهم ، والسفرجل ثلاث حبات بدرهم ، [والبيض كل ثلاث حبات بدرهم][١]، وتزايد القمح إلى مائة وتسعين الأردب والشعير إلى مائة وعشرين ، والفول والعدس إلى مائة وعشرة دراهم الأردب ، وأقحطت بلاد القدس والساحل ومدن الشام إلى حلب ، فبلغت الغرارة[٢] من القمح إلى مائتى درهم وعشرين ، والشعير بالنصف من ذلك ، واللحم الرطل إلى عشرة دراهم ، والفاكهة إلى أربعة أمثالها . وكان ببلاد الكرك والشوبك وبلاد الساحل لما يرصد للمهمات والبواكر[٣] ما ينيف عن عشرين ألف غرارة، فحملت إلى الأمصار .

وأقحطت مكة ، فبلغ أردب القمح بها إلى تسعمائة درهم ، والشعير إلى سبعمائة ، فرحل أهلها حتى لم يبق بها إلا اليسير من الناس . ونزحت[٤] سكان قرى الحجاز ، وعدم القوت ببلاد اليمن واشتد الوباء ، فباعوا أولادهم فى شراء القوت ، وفروا إلى نحو حَلْى[٥] بنى يعقوب ، فالتقوا بأهل مكة وضاقت بهم البلاد ، ففنوا كلهم بالجوع إلا طائفة قليلة . وقحطت بلاد الشرق ، وعدمت دوابهم وهلكت مراعيهم ، وأمسك القطر عنهم . واشتد الأمر بمصر ، وكثر الناس بها من أهل الآفاق ، فعظم الجوع ، وانتهب الخبز من الأفران والحوانيت ، حتى كان العجين إذا خرج إلى الفرن انتهبه الناس فلا يحمل إلى الفرن ، ولا يخرج الخبز منه إلا ومعه عدة يحمونه[٦] بالعصى من النهابة ، فكان من الناس من يلقى نفسه على الخبز ليخطف منه ، ولا يبالى بما ينال رأسه وبدنه من الضرب ، لشدة ما نزل به من الجوع .

---

١ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٢ - الغرار : مثل الجوالق مفرده : جوال ، وهو باللغة الدارجة - الشوال - ويتخذ من الصوف أو من شعر الماعز ، ويستعمل لتعبئة الحبوب وحفظها ، وقبل من الخيش يوضع فيه القمح ونحوه ، وقد توسع الناس فى استعماله فى العصرين المملوكى والعثمانى فأصبح عندهم من المكاييل ، وهو الغرار أكبر من الجوالق . انظر معجم المصطلحات والألقاب التاريخية لمصطفى عبد الكريم ص ١٢٩ ، ٣٣٠ .

٣ - البواكر : جمع بيكار ، وهو لفظ فارسى معرب ، وقد جرى فى مصطلح الدولة المملوكية بمصر للدلالة على الحملات الحربية والحرب عامة . انظر كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى ١/١٠٥ ، ٥٣٦ ، ٦١٦ .

٤ - فى نسخة « أ » : " نزعت " ، وما أثبته من نسخة « ب » ونسخة « جـ » .

٥ - حَلْى : بلد باليمن على ساحل البحر ، انظر معجم البلدان لياقوت الحموى ٢ / ٢٩٧ . ، وقد وردت هذه الكلمة فى نسخة « أ » : " حلل " وكذلك فى نسخة « جـ » ، أما فى نسخة « ب » فقد وردت باسم «جلى » ، وما أثبته وهو الصحيح من معجم البلدان لياقوت الحموى ٢ / ٢٩٧ .

٦ - فى نسخة « أ » : " يحملونه " ، وما أثبته من نسخة « ب » .

فلما تجاوز الأمر الحد أمر السلطان بجمع الفقراء وذوى الحاجات ، وفرقهم على الأمراء ، فأرسل إلى أمير المائة مائة [فقير][1] ، وإلى أمير الخمسين خمسين ، حتى كان لأمير العشرة عشرة ، فكان من الأمراء من يطعم سهمه من الفقراء لحم البقر مثروداً فى مرقة الخبز ، يمدّه لهم سماطًا يأكلون جميعًا . ومنهم من يعطى فقراءه رغيفًا ، وبعضهم كان يفرق الكعك ، وبعضهم يعطى رقاقًا ، فخفف ما بالناس من الفقر . عظم الوباء فى الأرياف والقرى، وفشت الأمراض بالقاهرة ومصر ، وعظم الموتان [ص / ٢٢].

وطلبت الأدوية للمرضى ، فباع عطار برأس حارة الديلم من القاهرة فى شهر واحد بمبلغ اثنين وثلاثين ألف درهم . وبيع من دكان يعرف بالشريف عطوف من سوق السيوفيين بمثل ذلك، وكذلك حانوت بالوزيرية ، [وآخر خارج باب زويلة ، بيع فى كل واحد منها بنحو من مثل ذلك] [2].

وطُلب الأطباء ، وبُذلت لهم الأموال ، وكثر تحصيلهم ، فكان كسب الواحد منهم فى اليوم مائة درهم . ثم أعيا الناس كثرة الموت ، فبلغت عدة من يرد اسمه فى الديوان السلطانى فى اليوم ما ينيف عن ثلاثة آلاف[3] نفس .

وأما الطرحاء[4] فلم يحصر عددهم بحيث ضاقت الأرض بهم ، وحفرت لهم الآبار والحفائر وألقوا فيها ، وجافت الطرق[5] والنواحى والأسواق من الموتى ، وكثر أكل لحوم بنى آدم خصوصًا الأطفال ، فكان يوجد الميت وعند رأسه لحم الآدمى ، ويمسك بعضهم فيوجد معه كتف صغير أو فخذه أو شىء من لحمه .

وخلت الضياع من أهلها ، حتى أن القرية التى كان بها مائة نفس لم يتأخر بها إلا نحو العشرين ، وكان أكثرهم يوجد ميتًا فى مزارع الفول لا يزال يأكل منه إذا وجده حتى يموت، ولا يستطيع الحراس ردهم لكثرتهم .

---

١ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » وهو ساقط من نسختى « أ » و « جـ » .

٢ – ما بين المعقوفتين ساقط من « أ » وقد أثبته من نسخة « ب » ونسخة « جـ » .

٣ – فى نسخة « ب » فقط " ثلثمائة " .

٤ – الطرحاء : مفردها : الطريح ، والمقصود أنه كثر الأفراد الملقون فى الطرقات . مختار الصحاح لمحمد الرازى " ط . ر . ح " .

٥ – جافت الطرق : أى كثرت بها الجيف ذوات الرائحة الكريهة .

ومع ذلك زكت[1] [الغلال فى الكيل أضعاف المفهوم][2] . ولقد كان فخر الدين الطنبغا المساحى من جملة زرعه مائة فدان فولاً لم يمنع أحداً من الأكل منها فى موضع الزرع ، ولم يمكّن أحداً أن يحمل منه شيئًا . فلما كان أوان الدراس لم يرض بمن وُكّل إليه أمر الزرع حتى خرج بنفسه ، ووقف على أجران تلك المائة فدان من الفول ، فإذا تلٌ عظيمٌ من القشر الذى أكل الفقراء فوله أخضر ، فطاف به وفتشه فلم يجد به شيئًا من الفول ، فأمر به عند انقضاء شغله أن يدرس لينتفع بتبنه ، فحصل منه سبعمائة وستون أردبًا ، فعُدَّ ذلك من بركة الصدقة وفائدة أعمال البر ، { وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [3].

وكثرت أرباح التجار والباعة ، وازدادت فوائدهم ، فكان الواحد من الباعة يستفيد فى اليوم المائتين ، ويصيب الأقل من السوقة ربحًا فى اليوم ثلاثين ، وكذلك كانت مكاسب أرباب الصنائع . واكتفوا بذلك طول [ص / ٢٣] الغلاء . وأصيب جماعة كثيرة ممن ربح فى الغلاء - من الأمراء والجند وغيرهم - فى مدة الغلاء إما فى نفسه بآفة من الآفات ، أو بإتلاف ماله التّلف الشنيع، حتى لم ينتفع ، فلقد كان لبعضهم ستمائة أردب باعها بسعر مائة وخمسين الأردب وبأزيد من ذلك ، فلما ارتفع السعر عما باع به ندم على بيعه الأول حيث لم ينفعه الندم ، فلما صار إليه ثمن الغلال أنفق معظمه فى عمارة دار ، وزخرفتها وبالغ فى تحصينها وإجادتها حتى إذا فرغت وظن أنه قادر عليها أتاها أمر ربها فاحترقت بأجمعها ، وأصبحت لا ينتفع بها بشىء [4].

---

١ - فى نسخة « أ » : " فزكت " ، وكذلك فى نسخة « جـ » . وزكى هنا بمعنى : نمى وكثر ، أى نمت الغلال وكثرت عما كان معروفًا قبل ذلك . انظر لسان العرب لابن منظور " ز . ك . ت " .

٢ - ما بين المعقوفتين ساقط من نسخة « ب » وقد أثبته من نسختى « أ » و « جـ » .

٣ - سورة البقرة آية (٢٦١) .

٤ - يقتبس الإمام المقريزى من آيات الله عز وجل ما يُجمّل به تعبيره ويُحسّن به أسلوبه ، ويجعل عبارته رصينة حيث اقتبس هذا المعنى من الآية الكريمة : { .... حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} سورة يونس الآية (٢٤) .

وحصلت الفتنة بين السلطان والأمراء ، وتوقفت أحوال[١] الـوزيـر [فـخـر الدين بن الخليلى][٢]. وازداد ظلم اتباع السلطان ومماليكه . [وتكاثر جورهم][٣] وعظم طمعهم فى أخذ البـراطيل[٤] والحـمـايات [٥]، وكثر عسفهم وغضبهم من الأمراء ، ولعبت الناس فى الفلوس لما ضربت ، فنودى أن يستقر الرطل منها بدرهمين ، وزنة الفلس درهم ، هذا أول ما عرف من وزن الفلوس . واشتد ظلم الوزير - وهو الصاحب فخر الدين [بـن][٦] الخنيلى - لتوقف أحوال الدولة من كثرة الكلف ، فأرصد متحصل المواريث[٧] للغداء والعشاء ، وأخذ الأموال الموروثة ولو كان الوارث ولداً أو غيره ، فإذا طالبه الولد بميراث أبيه ، أو الوارث بما إنجرّ إليه من الإرث ، كلفه إثبات نسبه أو استحقاقه ، فلا يكاد يثبت ذلك إلا بعد عناء طويل ومشقة . فإذا تمَّ الإثبات أحاله على المواريث ، حتى إذا مات آخر وله مال ووارث من ولد ذكر أو غيره فعل معهم كذلك ، فتعجز الورثة من الطلب ، فتترك [المطالبة][٨] .

---

١ - فى نسخة « أ » : "الأحوال" ، وما أثبته من نسخة « ب » .

٢ - ما بين المعقوفتين أضيف لإزالة الغموض ، ولمعرفة اسم هذا الوزير ، وذلك بناءً على ما جاء بعده بعدة سطور . وقد تقلد هذا الوزير منصب الوزارة عدة مرات حتى أوائل الحكم الثالث للسلطان الناصر محمد بن قلاوون . انظر فى ذلك كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى ١ / ٨٠٨ ، ٨١٦ ، ٨٣٦ .

٣ - ما بين المعقوفتين ساقط من نسخة « أ » ، وقد أثبته من نسخة « ب » ونسخة « جـ » .

٤ - البراطيل : هى الأموال التى تؤخذ من ولاة البلاد ومحتسبيها وقضاتها وعمالها ، فأول من عمل ذلك بمصر الصالح بن رزيك فى ولاة النواحى فقط ثم بطل وعمل فى أيام العزيز بن صلاح الدين أحياناً وعمله الأمير شيخون فى الولاة فقط ثم أفحش فيه الظاهر برقوق . انظر المواعظ والاعتبار للمقريزى ١ / ١١١.

٥ - الحمايات : شئ حدث فى أيام الناصر فرج وصار لذلك ديوان ومباشرون وعمل مثل ذلك الأمراء وهو من أعظم أسباب الخراب . انظر المواعظ والاعتبار للمقريزى ١/ ١١١ .

٦ - ما بين المعقوفتين ساقط فى نسخة « أ » وأثبته من نسختى « ب » و « جـ » .

٧ - المقصود بالمواريث ، المال المتحصل من المواريث الحشرية ، وقد شرح المقريزى أصله وطرق تحصيله فى عصره بالآتى : " وأما المواريث فإنها فى الدولة الفاطمية لم تكن كما هى اليوم ، من أجل أن مذهبهم يورث ذوى الأرحام ، وأن البنت إذا انفردت استحقت المال بأجمعه ، فلما انقضت أيامهم ، واستولت الدولة الأيوبية ، ثم الدولة التركية ، صار من جملة أموال السلطان مال المواريث الحشرية ، وهى التى يستحقها بيت المال عند عدم الوارث ، فتعدل فيه الوراثة مرة وتظلم أخرى " انظر المواعظ والاعتبار للمقريزى ١/ ١١١ .

٨ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » وساقطة من نسختى « أ » و « جـ » .

واشتد الأمر على التجار لرمى البضائع عليهم بزيادة الأثمان والقيم ، وكثرت المصادرات فى الولاة وأرباب الأموال ، وعظم الجور على أهل النواحى ، وحملت التقاوى السلطانية من الضياع ، واشتد الأمر على أهل دمشق ونابلس وبعلبك والبقاع وغيرها ، وكانت أيام فى غاية الشدة من الغلاء وكثرة الأمراض [والموت][١] وعموم الظلم .

ووقع بآخر هذا الغلاء أعجوبة فى غاية الغرابة لم يسمع بمثلها : وهى أن رجلاً من أهل الفلح بجبة عسال - إحدى قرى دمشق الشام - خرج بثور[٢] [ص / ٢٤] له ليرد الماء ، فإذا عدة[٣] من الفلاحين قد وردوا[٤] الماء ، فأورد الثور حتى إذا اكتفى نطق بلسان فصيح اسمع من بالمورد ، وقال : " الحمد لله والشكر له ، إن الله تعالى وعد هذه الأمة سبع سنين مجدبة ، فشفع لهم النبى ﷺ . وأن الرسول أمره أن يبلغ ذلك ، وأنه قال : يا رسول الله فما علامة صدقى عندهم؟ قال : أن تموت بعد تبليغ الرسالة " ، وإنه بعد فراغ كلامه صعد إلى مكان مرتفع وسقط منه ومات ، فتسامع به أهل القرية ، وجاؤوا من كل حدب ينسلون ، فأخذوا شعره وعظامه للتبرك . فكانوا إذا بخروا به موعوكًا برئ ، وعمل بذلك محضر مثبوت على قاضى البلد ، وحمل إلى السلطان بمصر ، فوقف عليه الأمراء ، واشتهر بين الناس خبره وشاع[٥] ذكره .

وعقب ذلك انحلت الأسعار ، وجاء الله بالفرج ، { وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [٦].

---

١ - ما بين المعقوفتين من نسخة « ب » وساقط من نسخة « أ » ونسخة « جـ » .

٢ - فى نسخة « أ » : " ثور " ، وما أثبته من نسخة « ب » .

٣ - فى هامش صفحة النسخة « أ » مكتوب بنفس خط المتن : " أعجوبة لم تسمع مثلها " .

٤ - فى نسخة « أ » : "فوردوا " ، وما أثبته من نسخة « ب » .

٥ - ذكر هذه القصة بأكملها الإمام المقريزى فى كتابه « السلوك لمعرفة دول الملوك » ١ / ٨١١ - ٨١٢ .

٦ - سورة الجاثية الايتان (٤ ، ٥) .

" غلاء فى زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون "

وفى أول شهر رجب سنة ست وثلاثين وسبعمائة وقع الغلاء بالديار المصرية ، فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون [١]، وعز القمح ، ووصل كل أردب إلى سبعين درهمًا ، والفول إلى خمسين ، والخبز كل خمسة أرطال بدرهم ، ولا يكاد يوجد . وعدم القمح من الأسواق . وصار على كل دكان من دكاكين الخبازين عدة من الناس . وصار الخبز كالكسب[٢] من السواد . فرتب الوالى على كل حانوت أربعة من أعوانه معهم المطارق[٣] لدفع الناس عن حوانيت الخبز لئلا ينهب . فضج[٤] الناس للسلطان واستغاثوا . فجمع الأمراء وقال لهم : " يا أمراء ! شهر عليكم ، وشهر على ، وشهر على الله " . ففتح الأمراء الشّون [٥]، وباعوا كل أردب بثلاثين درهمًا . ففرج عن الناس . وفتح السلطان حواصله فى شعبان . وباع كل أردب بخمسة وعشرين درهمًا ، ودخل الفول الجديد والشعير ، فأكل الناس منه إلى أن دخل شهر رمضان ، فجاء القمح الجديد ، وانحل السّعر .

" غلاء فى أيام الأشرف شعبان "

ثم وقع الغلاء فى أيام الأشرف شعبان [٦]. وسببه قصور النيل فى سنة ست وسبعين وسبعمائة[٧] ، فلم يبلغ ستة عشر ذراعًا وكسر الخليج فانحط[ص ٢٦/٢٥] الماء ، وارتفع

---

١ - هو الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون بن عبد الله الصالحى الذى ولد فى سنة ٦٨٤ هـ وقد توفى سنة ٧٤١ هـ ، انظر ترجمته فى شذرات الذهب لابن العماد ٦ / ١٣٤ ، ١٣٥ .

٢ - الكُسب : عصارة الدهن ، وعند العامة ، ما يتبقى من السمسم بعد عصره . انظر لسان العرب لابن منظور " ك . س . ب " .

٣ - المطارق : جمع مطرق ، وهو العصاة من الخشب الخشن ، كالعصاة التى يستعملها البدو فى سوق الجمال، انظر لسان العرب لابن منظور " ط . ر . ق " .

٤ - فى نسخة « أ » : " فضجّوا " ، وما أثبته من نسخة « ب » .

٥ - الشّون : مفردها : شونة وهى مخزن الغلة . انظر معجم المصطلحات والألقاب التاريخية لمصطفى عبد الكريم الخطيب ص ٢٧٨ .

٦ - هو الملك الأشرف أبو المفاخر شعبان بن الأمير حسين بن الملك الناصر محمد بن قلاوون توفى سنة ٧٨٣هـ، انظر حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة للسيوطى ٢/١١٨ - ١٢٠ .

٧ - وقع بمصر قبل هذا التاريخ وباء شنيع لم يبق ولم يذر ، اجتاح كثيراً من الشرق والغرب معًا وذلك فى سنة ٧٤٩ هـ واستمر هذا الوباء لمدة سنتين تقريبًا ، قال عنه ابن تغرى بردى : كان فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة الوباء العظيم ، وكان الفناء العظيم الذى عمّ الأرض والدنيا ، فمات بهذا الطاعون بمصر =

السعر فبلغ القمح كل أردب إلى مائة وخمسين [درهمًا][١] والشعير إلى مائة ، والخبز إلى رطل ونصف الدرهم. وعزت الأقوات وقل وجودها ، فمات الكثير من الجوع حتى امتلأت الطرقات ، وأعقب ذلك وباء مات فيه كثير من الناس ، و [فى هذا الغلاء][٢] بلغ الفروج إلى مائة درهم فما فوقها ، والبطيخة إلى مائة وخمسين . وكان السائل يطلب اللبابة ليشمها ، ويصيح حتى يموت ، فأمر السلطان بجمع الفقراء ، وفرقهم على الأمراء ومياسير التجار . ودام [هـذا][٣] الغلاء نحو سنتين ، ثم أغاث الله الخلق وأجرى النيل ، فرتوت الأراضى ، وحصل الرخاء بعدما خامر اليأس القلوب ، وظن الكثير من الناس دوام تلك الشدة ، واستبعد حصول الفرج. وهى حادثة شاهدناها ، ومحنة أدركناها ، { وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ } [٤].

= والشام وغيرهما خلائق لا تحصى . انظر النجوم الزاهرة ١٠/ ٢٠٠ ، ٢٣٣ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٦/١٥٨ .

١ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٢ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٣ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٤ – سورة الشورى الآية (٢٨) .

الفصل الثانى

فى بيان الأسباب التى نشأت عنها هذه المحن التى نحن فيها حتى استمرت طول هذه الأزمان التى دفعنا إليها

اعلم ، تولى الله أمرك بالحياطة والهداية ، ولا أخلاك من الكفاية والعناية ، أن الغلاء الذى حل بالخلق منذ كانت الخليقة ، فيما نقل من أخبار بسائر البلاد فى قديم الزمان وحديثه ، على ما عرف من أحوال الوجود وطبيعة العمران ، وعلم من أخبار البشر ، إنما يحدث من آفات سماوية فى غالب الأمر : كقصور[1] جرى النيل بمصر ، وعدم نزول المطر بالشام والعراق والحجاز وغيره ، أو آفة تصيب الغلال من سمائم تحرقها أو رياح تهيّفها ، أو جراد يأكلها ، وما شابه ذلك . هذه عادة الله تعالى فى الخلق ، إذا خالفوا أمره وأتوا محارمه ، أن يصيبهم بذلك جزاء ما كسبت أيديهم [2].

وأما هذا الأمر الذى حل بمصر فإنه بخلاف ما قدمناه . وبيانه أن النيل قصر جَرْيه فى سنة ست وتسعين وسبعمائة ، فشرق أكثر الأراضى ، وتعطلت من الزراعة . فارتفعت الأسعار حتى بلغ سعر القمح إلى سبعين درهمًا الأردب . ثم أغاث الله سبحانه وتعالى الخلق بكثرة ماء النيل ، حتى عم الإقليم كله ، فأحب الناس لذلك الكثير من البذر ، وكانت الغلات بأيديهم قليلة ، لعدم [ص / ٢٦] زراعة أكثر البلاد فى سنة ست وتسعين كما مرّ ، لا جرم أن تزايدت الأسعار ، حتى بلغ سعر كل أردب من القمح إلى نحو مائتى درهم والشعير بمائة وخمسة دراهم . هذه عادة بلاد مصر من الزمن القديم : إذ تأخر جرْى النيل بها أن يمتد الغلاء سنتين . فلما كان أوان مجىء الغلال الجديدة فى سنة ثمان وتسعين انحلّت الأسعار إلى أن رجعت نحو ما كانت قبل حدوث الغلاء ، أو قريبًا منه .

---

١ – فى نسخة « أ » : " القصور " ، وما أثبته من نسخة « ب » ونسخة « جـ » .

٢ – اقتباس من قول الله عز وجل : { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى } سورة النجم الآية (٣١) ، وقال تعالى : { ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ } سورة الروم الآية (١٠).

واستمر الأمر حتى مات الظاهر برقوق فى نصف شوال سنة إحدى وثمانمائة ، ولم يكن حينئذ بالقاهرة [قمح][١] ، وكان يبلغ ثلاثين درهمًا الأردب . فبيع فى اليوم الثانى لموته كل أردب من القمح بأربعين درهمًا . وتزايد حتى بيع فى سنة اثنتين وثمانمائة ببضع وسبعين درهمًا الأردب . وتمادى الأمر كذلك إلي أن قصر مد النيل فى سنة ست وثمانمائة ، فشنع الأمر، وارتفعت الأسعار حتى تجاوز الأردب من القمح أربعمائة درهم . وسرى ذلك فى كل ما يباع من مأكول ومشروب وملبوس . وتزايد أجر الأجراء - كالبناة والفعلة وأرباب الصنائع والمهن[٢] - تزايداً لم يسمع بمثله فيما قرب من هذا الزمن ، حتى جاء الغوث من [عند][٣] الله تعالى فى سنة سبع وثمانمائة ، فكثرت زيادة النيل ، وعم النفع به الإقليم ، فاحتاج الناس إلى البذر . وكانت الغلال تحت أيدى أهل الدولة وغيرهم كثيرة جداً لأمرين : أحدهما احتكار الدولة الأقوات ومنع الناس من الوصول إليها إلا بما أحبوا من الأثمان ، والثانى زكاء[٤] الغلال فى سنة ست وثمانمائة ، فإنه حصل منها ما لم يسمع بمثله فى هذا الزمن . فلأجل هذا وغيره ، مما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى ، تفاقم الأمر وجلّ الخطب وعظم الرّزء[٥] . وعمت البلية وطمت ، حتى مات من أهل الإقليم بالجوع والبرد ما ينيف[٦] عن نصف الناس . وعَم الموتان حتى نفقت الدواب فى سنة ست [وسنة][٧] سبع ، وعز وجودها . وبلغت أثمانها إلى حد نستحى من ذكره .. ونحن الآن فى أوائل سنة ثمان وثمانمائة [٨]، والأمر فيها من اختلاف النقود وقلة ما يحتج إليه ، وسوء التدبير [ص / ٢٧] وفساد الرأى ، فى غاية لا مرمى وراءها من عظيم البلاء وشنيع الأمر .

---

١ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٢ - فى نسخة « أ » ونسخة « جـ » : المسبين " وما أثبته من نسخة « ب » .

٣ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٤ - فى نسخة « جـ » : " زكى " وما أثبته من نسخة « أ » و نسخة « ب » .

٥ - الرُّزْء : المصيبة ، والجمع : الرزايا ، وقد رَزَأته رزيئة أى : أصابته مصيبة . لسان العرب لابن منظور "ر. ز . أ " .

٦ - ينيف : يزيد ، والنَّيْف : أى الزيادة . لسان العرب لابن منظور " ن . ى . ف " .

٧ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » وساقط من نسخة « أ » ، ونسخة « جـ » .

٨ - عندما يذكر المقريزى هذا التاريخ بالنسبة للرسالة ، فإنه يعدّ دليلاً ماديًا لتحديد تاريخها ، وبيان السبب الذى جعل المقريزى يكتبها .

وسبب ذلك كله ثلاثة[1] أشياء لا رابع لها :

السبب الأول ، وهو أصل الفساد ، ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة : كالوزارة والقضاء ونيابة الأقليم ، وولاية الحسبة ، وسائر الأعمال ، بحيث لا يمكن التوصل إلى شئ منها إلا بالمال الجزيل . فتخطّى ، لأجل ذلك ، كل جاهل ومفسد وظالم وباغ إلى ما لم يكن يؤمله من الأعمال الجليلة والولايات العظيمة ، لتوصّله بأحد حواشي السلطان ، ووعده بمال للسلطان على ما يريده من الأعمال . فلم يكن بأسرع من تقلّده ذلك العمل وتسليمه إياه. وليس معه مما وعد به شيء قلّ ولا جلّ ، ولا يجد سبيلاً إلى أداء ما وعد به إلا باستدانته بنحو النصف مما وعد به ، مع ما يحتاج إليه من شارة وزى وخيول وخدم وغيره ، فتتضاعفت من أجل ذلك عليه الديون ، ويلازمه أربابها . لا جرم أنه يغمض عينيه ولا يبالي بما أخذ من أنواع المال ، ولا عليه بما يتلفه في مقابلة ذلك من الأنفس ، ولا بما يريقه من الدماء ولا بما يسترقه من الحرائر ، ويحتاج إلى أن يقرّر على حواشيه وأعوانه ضرائب ، ويتعجل منهم أموالاً ، فيمدون هم أيضًا أيديهم إلى أموال الرعايا ، ويشرئبون لأخذها بحيث لا يعفون ولا يكفون [2] . ثم ينبأ[3] البائس في جميع الأموال التي استدانها إذ أتته استدعاءات من الأوامر وحواشي السلطان ، أو نزل به أحد منهم أن كان المتولي متقلداً عملاً من أعمال الريف ، فيحتاج له إلى ضيافات سنية وتقادم جليلة من الخيول والرقيق وغير ذلك بحسب الحال [4] ، ولا يشعر[5] مع ذلك إلا وغيره قد تقلد ذلك العمل بما التزم به ، وقد بقيت عليه جملة من

---

١ - بهامش الصفحة ومقابل هذه العبارة في النسخة « أ » مكتوب ما يلي : " أسباب الغلا والمحن والوباء... " .

٢ - وردت هذه العبارة في جميع النسخ هكذا : " لا يعفوا ولا يكفوا " والصحيح ما أثبته لأن الحرف " لا " حرف نفي في هذا الموضع ولا يؤثر على الفعل المضارع فيؤدي هذا التأثير إلى حذف حرف النون ، ولعله سهو أو تحريف من الناسخ .

٣ - في نسخة « أ » : " ينباء البايس " ، وفي نسخة « ب » : " بيناء البايس " ، وفي نسخة « جـ » : "ينبأ البايس " وهي الأقرب إلى الصحة .

٤ - في نسخة « أ » : " المال " ، وما أثبته من نسخة « ب » ، ونسخة « جـ » .

٥ - في نسخة « أ » : " ولم يشعر " ، وما أثبته من نسخة « ب » ونسخة « جـ » .

الديون . فيحاط على ما يوجد له من أثاث وحيوان وغيره . وَيشْخَص[١] فى أنحس[٢] حال ، وقد أحيط كما ذكرنا بماله ، ويعاقب العقوبات المؤلمة ، فلم يجد بُداً من الالتزام بما آخر ، ليقلد العمل الأول أو غيره من الأعمال .

فلما دُهِى أهل الريف بكثرة المغارم وتنوع المظالم ، اختلت أحوالهم ، وتمزقوا كل [ص/ ٢٨] ممزق ، وَجَلوا[٣] عن أوطانهم ، فقلت مجابى البلاد ومتحصلها ، لقلة ما يزرع [بها][٤]، ولخلو أهلها ورحيلهم عنها لشدة الوطأة من الولاة عليهم ، وعلى من بقى منهم . وكان هذا الأمر كما قلنا مدة أيام الظاهر [برقوق][٥] إلى أن حدث غلاء سنة [ست][٦] وتسعين ، كما مر ذكره ، فظهر بعض الخلل لا كله فى أحوال عامة الناس لأمرين : أحدهما البقية التى كانت بأيدى الناس فاحتملوا الغلاء لأجلها ، والثانى ، كثرة صلات الظاهر وتوالى برّه مدة الغلاء فى سنة سبع وثمان وتسعين ، بحيث لم يمت فيه أحد بالجوع فيما نعلم .

وانسحب الأمر فى ولاية الأعمال بالرشوة إلى أن مات الظاهر [برقوق] [٧]، فحدث لموته اختلاف[٨] بين أهل الدولة ، [آل][٩] إلى تنازع وحروب قد ذكرتها فى كتاب مفرد[١٠] . فاقتضى الحال من أجل ذلك ثورة أهل الريف وانتشار الزّعار[١١] وقطاع الطريق ، فخيفت

---

١ - فى نسخة « أ » : " لشخص " ، وما أثبته من نسخة « جـ » .

٢ - النحْس : ضد السّعد ، وكأنه يقصد هنا أتعس حال .

٣ - فى نسخة « أ » : " فجلوا أهلها ورحيلهم عنها " وما أثبته من نسخة « ب » ، ونسخة « جـ » .

٤ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٥ - ما بين المعقوفتين ساقط من « أ » و « جـ » وأثبته من نسخة « ب » .

٦ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٧ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٨ - فى نسخة « أ » : " اختلافًا " والصحيح ما أثبته من نسخة « ب » ، ونسخة « جـ » .

٩ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

١٠ - لعل المقصود بهذا الكتاب هو جزء من أجزاء كتاب " السلوك لمعرفة دول الملوك " لأن المقريزى لم يُعرف عنه أن ألف كتابًا فى أخبار السلطان الظاهر برقوق وحده ، وهذا الكتاب ، أى كتاب السلوك مطبوع ومعروف .

١١ - الزّعار : والزعرة والزعر ، جمع زاعر ، وهو اللص والمحتال والعيار والحرفوش والمتشرد ، انظر فى ذلك لسان العرب لابن منظور " ز . ع . ر " .

السبل ، وتعذر الوصول إلى البلاد إلاّ بركوب[١] الخطر العظيم ، وتزايدت غباوة أهل الدولة، وأعرضوا عن مصالح العباد ، وانهمكوا فى اللذات لتحق [عليهم][٢] كلمة العذاب، { وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً}[٣].

السبب الثانى غلاء الأطيان : وذلك أن قومًا ترقّوا فى خدمة الأمراء ، يتولفون إليهم بما جَبَوا[٤] من الأموال إلى أن استولوا على أحوالهم ، فأحبوا مزيد القربة منهم ، ولا وسيلة أقرب إليهم من المال ، فتعدوا إلى الأراضى الجارية فى اقطاعات الأمراء ، واحضروا مستأجريها من الفلاحين ، وزادوا فى مقادير الأجر . فثقلت لذلك متحصلات مواليهم من الأمراء ، فاتخذوا ذلك يداً يمنون بها إليهم ، ونعمة يعدونها إذا شاؤوا عليهم ، فجعلوا الزيادة ديدنهم كل عام ، حتى بلغ الفدان لهذا العهد نحواً من عشرة أمثاله قبل هذه الحوادث . لا جرم أنه لما تضاعفت أجرة الفدان من الطين إلى ما ذكرنا ، وبلغت قيمة الأردب من القمح المحتاج إلى بَذْرِه ما تقدم ذكره ، تزايدت كلفة الحرث [ص / ٢٩] والبذر والحصاد وغيره ، وعظمت نكاية الولاة والعمال ، واشتدت وطأتهم على أهل الفلح ، وكثرت المغارم فى عمل الجسور[٥] وغيرها .

وكانت الغلة التى تتحصل من ذلك عظيمة القدر زائدة الثمن على أرباب الزراعة ، سيما[٦] فى الأرض منذ كثرت هذه المظالم . ومنعت الأرض زكاتها[٧] ، ولم تؤت ما عهد[٨]

---

١ - ورد فى جميع النسخ : " بارتكاب " والصحيح الذى يتفق والمعنى اللغوى ما أثبته .

٢ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٣ - سورة الإسراء الآية (١٦) .

٤ - فى نسخة « أ » : " جبون " وفى نسخة « ب » : " يحبون " ، والصحيح ما أثبته من نسخة « جـ » .

٥ - الجسور : المفرد " الجسر " وهى الطرق المرتفعة على جانبى النيل وفروعه وترعه ، وهى تقام لحفظ البلاد من أخطار الفيضان ، وهى نوعان : جسور سلطانية ، أى الجسور العامة التى يجب على السلطان تمهدها بالعمارة والإصلاح والمراقبة ، وجسور بلدية ، أى الجسور الخاصة الواقعة فى إقطاع من الإقطاعات ، وعلى الأمير أو الجندى صاحب الإقطاع أن يتولاها ويلتزم تدبير المحافظة عليها ، ويظهر أن العمل فى تلك الجسور كلها كان سخرة ، انظر فى ذلك صبح الأعشى للقلقشندى ٣/٤٤٤ - ٤٤٤٦ ، وقوانين الدواوين لابن مماتى ص ١٦ ، ١٧ ، وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى ١/٦٣٨ ، ٨٣٤ .

٦ - فى نسخة « أ » : " سما فى الأرض " وكذلك فى نسخة « جـ » ، وما أثبته من نسخة « ب » .

٧ - فى نسخة « ب » : " بركاتها " ، وما أثبته من نسخة « أ » وكذلك نسخة « جـ » .

٨ - فى نسخة « أ » و « جـ » : " وكذلك " وما أثبته من نسخة « ب » .

من أكلها . والخسارة يأباها كل واحد طبعًا ، ولا يأتيها طوعًا . ومع أن الغلال معظمها لأهل الدولة ، أولى الجاه وأرباب السيوف ، الذين تزايدت فى اللذات رغبتهم ، وعظمت في احتجاز أسباب[١] انحطاطه ، فخرب بما ذكرنا معظم القرى ، وتعطلت أكثر الأراضى من الزراعة ؛ فقلت الغلال وغيرها مما تخرجه الأرض ؛ لموت أكثر الفلاحين تشردهم فى البلاد من شدة السنين وهلاك الدواب [٢]، ولعجز الكثير من أرباب الأراضى عن زرعها ؛ لغلو البذر وقلة المزارعين . وقد أشرف الإقليم لأجل هذا الذى قلنا على البوار والدمار ، { سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً } [٣].

السبب الثالث رواج الفلوس : اعْلَمْ جعل الله لك إلى كل خير سبيلاً ذلولاً ، وعلى كل فضل علمًا ودليلاً ، أنه لم تزل سُنَّة الله فى خلقه ، وعادته المستمرة منذ كانت الخليقة إلى أن حدثت هذه الحوادث ، وارتكبت هذه العظائم التى قلناها فى جهات الأرض كلها ، عند كل أمة من الأمم كالفرس والروم وبنى إسرائيل واليونان والقبط ، بل والنبط والتبابعة أقيال اليمن ، والعرب العاربة والعرب المستعربة ، ثم فى الدولة الإسلامية منذ ظهورها ، على اختلاف دولها التى قامت بدعوتها والتزمت بشريعتها كبنى أمية بالشام والأندلس ، وبنى العباس بالمشرق ، والعلويين بطبرستان وبلاد المغرب وديار مصر والشام وبلاد اليمن ، ودولة الترك (بنى سلجوق) ، ودولة الديلم والمغول بالمشرق ، ودولة الأكراد بمصر والشام وديار بكر ، ثم ملوك الترك بمصر ، أن النقود التى تكون أثمانًا للمبيعات وقيمًا للأعمال [ص / ٣٠] إنما هى الذهب والفضة فقط ، لا يعلم فى خبر صحيح ولا سقيم عن أمة من الأمم ولا طائفة من طوائف البشر أنهم اتخذوا أبداً فى قديم الزمان[٤] ولا حديثه نقداً غيرهما ، حتى قيل [إن][٥] أول من ضرب الدينار والدرهم آدم عليه الصلاة والسلام ، وقيل لا تصلح المعيشة إلا بهما ، رواه الحافظ بن عساكر فى تاريخ دمشق .

---

١ - في نسخة « أ » : " أرباب " وما أثبته هو الصحيح .

٢ - فى نسخة « أ » : " البلاد " ، وما أثبته من نسخة « ب » .

٣ - سورة الأحزاب الآية (٦٢) .

٤ - بهامش الصفحة مقابل هذه العبارة فى نسخة « أ » مكتوب : " مطلب أول من ضرب الدينار والدرهم ".

٥ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

وستتلو عليك من نبأ ذلك ما يوضح لك صحة ما أشرت إليه ، فأقول مستعينًا بالله ربىَ ، فإنه مولاى وحسبى : اعْلَمْ زادك الله علمًا وآتاك بيانًا وفهمًا ، أنْ الدراهم التى كانت نقد الناس على وجه الدهر ما زالت ، حتى قيل [إن][1] أول من ضرب الدنانير والدراهم ، وصاغ الحلى من الذهب والفضة ، فالغ بن غابر بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح عليه السلام . وتداول الناس ذلك من زمنه . وآخر ما كانت الدراهم على نوعين : السوداء[2] الوافية ، والطبرية العتق[3] وهما غالب ما يتعامل به البشر ، وكان أيضًا لهم دراهم تسمى جوارفية[4].

وكانت نقود العرب فى الجاهلية التى تدور بينها : الذهب والفضة لا غير ، ترد إليها من الممالك دنانير الذهب قيصرية من قبل الروم ، ودراهم فضة على نوعين : سوداء وافية ، وطبرية عتيقة ، وكان وزن[5] الدرهم والدينار فى الجاهلية مثل وزنهما فى الإسلام مرتين . ويسمى المثقال درهمًا ، والمثقال[6] دينارًا . ولم يكن شىء من ذلك يتعامل به أهل مكة فى جاهليتها ، وإنما كانت تتعامل بالمثاقيل ، وزن الدراهم ووزن الدنانير ، وكانوا يتعاملون

---

١ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » وساقط من نسختى « أ » و « جـ » .

٢ - الدراهم السوداء : هى الدراهم النحاسية التى يكون فيها اليسير من الفضة ، وتسمى الدراهم السود ، والدراهم المسودة . انظر فى ذلك صبح الأعشى للقلقشندى ٤٣٩/٣ - ٤٤٤ ، و ص ٤٦٥ ، ٤٦٨ .

٣ - الدراهم الطبرية العتق : هى الدراهم التى كانت تأتى من طبرية الشام إلى بلاد العرب ، حيث كانت معظم تجارة العرب من الدولة الرومانية ، أو أنها عرفت بتلك التسمية لأنها كانت تضرب فعلاً بتلك المدينة زمن الرومان ، انظر :

De. Sacy : Traite de la monnaie musulmane, p. 12 . N. 3 " .

٤ - فى نسخة « أ » : "جوادقية " وكذلك فى نسخة « ب » ، أما فى نسخة « جـ » : " جوارقة " .
وقد ذكرها المقريزى فى كتابه " شذور العقود فى ذكر النقود " جوارقية " فى ص ٣ طبعة :

(ed. Tychsen, Rostoh, 1798)

٥ - فى هامش النسخة « أ » مقابل هذه العبارة مكتوب الآتى : " وزن الدرهم والدينار فى الجاهلية والإسلام".

٦ - من المعروف أن إطلاق كلمة المثقال على الدينار فى العصر الإسلامى يرجع إلى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان فى سنة ٧٦ هـ / ٦٩٥ م، وذلك بعد إصلاحه نظام النقد فى الدولة الأموية ، إذ جعل المثقال وحدة الذهب ، وقرر أن يكون وزن الدينار مثقالاً واحداً كما كان من قبل (أى ٦٥,٥ حبة ، أو ٤,٢٥ جرامًا)=

بأوزان اصطلحوا عليها فيما بينهم ، وهى الرطل الذى هو اثنتا[1] عشر أوقية ، والأوقية وهى أربعون درهمًا ، فيكون الرطل ثمانين وأربعمائة درهم . [والرطل الآن بمصر اثنتا عشرة أوقية ، والأوقية اثنا عشر درهمًا ، فيكون الرطل مائة وأربعة وأربعون درهمًا ، ورطل دمشق اثنتا عشرة أوقية ، والأوقية خمسون درهمًا ، فيكون الرطل ستمائة درهم] [2]. والنِّش[3] وهو نصف الأوقية (حُولَت صاده شينًا فقيل نش) هو عشرون درهمًا . والنواة[4] وهى خمسة دراهم . والدراهم على قسمين : طبرية ، وزنة الدرهم منها ثمانية دوانيق ، وقيل أربعة دوانيق ، وبغلية [5]، وزنة الواحد منها أربعة دوانيق ، وقيل ثمانية دوانيق [6]. وزنة الدرهم من الجوارفية [ص / ٣١] أربعة دوانيق ونصف دانق . والدانق زنته ثمانى حبات وخُمُسا حبة من حبات الشعير المتوسطة التى لم تقسم ، وقد قطع من طرفيها ما امتد . [والدرهم

وقد حدث مثل ذلك أكثر من مرة فى عهد المماليك بمصر . انظر صبح الأعشى للقلقشندى ٤٣٩/٣ – ٤٤٣. ويقول الماوردى فى كتابه الأحكام السلطانية ص ١٤٧ : إن الدراهم المتداولة فى بلاد العرب أيام الجاهلية كانت على ثلاثة أوزان ، ومن بينها واحد فقط على وزن المثقال .

- فى نسخة « أ » : " اثنى عشر وقية " وما أثبته هو الصحيح لغة .

- ما بين المعقوفتين ساقط من نسختى « أ » و « ب » وما أثبته من نسخة « جـ » .

- يذكر المقريزى فى كتابه " الأوزان والأكيال الشرعية " ص ٢٣ أن النِّش يكون لعشرين درهمًا ، والأوقية أربعين درهمًا .

- يقول المقريزى فى كتابه " الأوزان والأكيال الشرعية " ص ٢٣ : العرب تقول نواة فتعنى بها خمسة دراهم.

- قيل أن الدراهم البغلية هى التى ضربها رجل اسمه رأس البغل اليهودى بأمر الخليفة عمر بن الخطاب . وقد تحدث عنه المقريزى بأن الدرهم البغلى يقال له الوافى ، ووزنه وزن الدينار ، وقد يعنى أنه أكبر الأوزان ، ثم هناك إشارة أخرى أكثر توضيحًا ، تقول إن زنته زنة الدينار أى أنه يزن عشرين قيراطًا فهو إذن الذى يزن ثمانية دوانيق ، أى أن البغلى يساوى ثمانية دوانيق ، يساوى عشرين قيراطًا ، يساوى مثقال . انظر كتاب النقود الإسلامية الأولى للدكتور طاهر راغب حسين ١٩/١ ، ٢٠ .

- الدانق : لغة فارسية ، مشتقة من اللفظ : دانك ، وهو وحدة نقدية من العصر الإسلامى ، قيمتها تساوى سدس الدرهم ، والدرهم فى حينه وحدة من الفضة قيمته تساوى ١٠,٧ من الدينار الإسلامى المعرب الذى يزن ٤,٢٥ جرام ذهب . انظر القاموس الإسلامى لأحمد عطية الله ٣٣٢/٢ ، ومعجم المصطلحات والألقاب التاريخية لمصطفى عبد الكريم الخطيب ص ١٧٥ .

البـغلى كـان يقـال له الوافى ، ووزنه وزن الدينار ، وعلى ذلك وزن دراهم فـارس ، والدرهم الجواز[١] ينقص كل عشرة منها عن البغلية ثلاثة ، فكل سبعة بغلية تكون عشرة بالجواز][٢]. وكـان الدينار يسمى لوزنه ديناراً ، وإنما هو تبر[٣] . ويسـمى الدرهم لوزنه درهمًا ، وإنما هو تبر. وكانت زنة كل عشرة دراهم ستة مثاقيل ، والمثقال وزنه اثنان وعشرون قيراطًا إلا حبة ، هو أيضًا زنته اثنتان وسبعون حبة شعير مما تقدّم ذكره .

وقيـل أن المثـقـال منذ وضع لم يخـتلف فى جـاهليـة ولا إسـلام . ويقـال أن الذى اخـتـرع الـــوزن[٤] فى الزمان القديم بدأ بوضع المثقال ، فجعله ستين حبة ، زنة الحبة مائة من حب الخـــردل[٥] البرى المعتدل وإنه ضَرَّب صنجة بزنة المائة الحبة من الخردل ، وجعل بوزنها والمائة الحبة صنجة ثانيـة ، ثم صنجة ثالثة ، حتى بلغ مجموع الصنج خمس صنجات . فكانت صنجة نصف سدس مثقال ، وأضعف[٦] وزنها وصارت صنجة ثلث مثقال ، فركب منها نصف مثقال، ثم مثـقـال ، [وخمسة ، وعشرة ، وفوق ذلك][٧] ، فعلى ذلك تكون زنة المثقال الواحد ستة آلاف حبة ، وكانت الموازين إنما هى الشواهين [٨].

---

١ - الدرهم الجواز : هو الدرهم الجائز شرعًا فى المعاملات ، جوّز الدراهم ، جعلها جائزة أى رائجة ، وتجوّز الدراهم قبلها على ما فيها من الزيف . لسان العرب لابن منظور " ج . و . ز " .

٢ - ما بين المعقوفتين ساقط من نسختى « أ » و « جـ » وما أثبته من نسخة « ب » .

٣ - التبر : المقصود به هنا القطعة من المعدن عامة ، سواء فى ذلك الذهب والفضة والنحاس والحديد ، لسان العرب لابن منظور " ت . ب . ر " .

٤ - فى هامش نسخة « أ » وأمام هذه العبارة مكتوب العبارة التالية : " اختراع الوزن " .

٥ - الخردل : مفردها الخردلة : وهو نبات عشبى ينبت فى الحقول مع الزرع ، أو على حافة الطرق ، حبّه صغير جداً ، أسود مقرح يستعمل فى التوابل وله فوائد طيبة . انظر لسان العرب لابن منظور " خ . ر . د . ل " .

٦ - المقصود بالفعل " أضعف " هنا ضعّف ، أو ضاعف ، أى جعل الشىء ضعفين ، على أن صيغة هذا بالألف المتوسطة هى أبلغ الصيغ الثلاث ، انظر فى ذلك لسان العرب لابن منظور " ض . ع . ف " .

٧ - ما بين المعقوفتين ساقط من نسخة « أ » و « جـ » وما أثبته من نسخة « ب » .

٨ - فى نسخة « أ » : " الشرامين " ، والشواهين جمع شاهين ومن معانيه عمود الميزان ، ولعل المقصود هنا الميزان كله . انظر لسان العرب لابن منظور " ش . هـ . ن " .

فلما بعث الله نبيه محمداً ﷺ أقرّ أهل مكة على ذلك كله ، وقال الميزان ميزان مكة ، وفي رواية : ميزان المدينة وفرض رسول الله ﷺ زكاة الأموال علي ذلك ، فجعل فى كل خمس أوراق من الفضة الخالصة التى لم تغشّ خمسة دراهم من النواة ، وفرض فى كل عشرين ديناراً نصف دينار ، وعمل بذلك أبو بكر رضي الله عنه أيام خلافته ، بعد رسول الله ﷺ ، ولم يغير منه شيئًا ، فلما استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه أقر النقود على حالها ، ولم يعرض لها بشيء . حتى كانت سنة ثماني عشرة من الهجرة ، فى السنة السادسة[1] من خلافته . وأتته الوفود ، وأقبلت أهل البصرة ، فيهم الأحنف بن قيس ، فكلم عمر رضي الله عنه فى مصالح أهل البصرة ، فوجه معقل بن يسار ، فاحتفر لهم نهر معقل ووضع الجريب[2] والدرهمين الوزنة[3] فى الشهر . وضرب عمر رضي الله عنه الدراهم على نقش الكسروية [4]، وشكلها بأعيانها ، [ص/٣٢] غير أنه زاد فى بعضها « الحمد لله » ، وفى بعضها « رسول الله » ، وعلى آخر « لا إله إلا الله وحده » ، وعلى آخر « عمر » . والصورة صورة الملك لا صورة عمر . وجعل وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل . فلما بويع عثمان [بن عفان][5] رضي الله عنه ، ضرب دراهم ، ونقشها «الله أكبر » . فلما اجتمع الأمر لمعاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه ، وجمع لزياد بن أبيه الكوفة والبصرة ، قال له " يا أمير المؤمنين ، إن العبد الصالح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صغر الدرهم وكبر القفيز[6] ، وصار يؤخذ عليه ضريبة أرزاق الجند ، وترزق عليه

---

١ - فى نسخة « أ » ، ونسخة « جـ » : " الثانية " وفى نسخة « ب » " الثامنة " وهو خطأ واضح ، والصحيح ما أثبته ، إذ المعروف أن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه تولى الخلافة سنة ١٣ هجرية .

٢ - الجريب : هو مقياس للأرض ، ومقداره عشر قصبات فى عشر قصبات ، على أنه يختلف عن ذلك قليلاً باختلاف المكان والزمان ، والجريب فى الأصل مكيال ، وسعته ما يكفى من الحب لبذر مساحة معينة ، وسميت تلك المساحة لذلك باسم الجريب ، انظر الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٤١ ، ١٤٦ . طبعة الوطن ، القاهرة ١٢٩٨ هـ .

٣ - فى نسخة « أ » ، ونسخة « جـ » : " الدرية " وما أثبته من نسخة « ب » .

٤ - الكسروية : هى نسبة إلى كسرى ، والمقصود الدراهم الفارسية .

٥ - ما بين المعقوفتين زيادة من « ب » .

٦ - القفيز : هو عبارة عن مكيال قديم للحبوب ، وسعته ما يقرب من ربع أردب ، وهو أيضًا مقياس للأرض وقدره مائة وأربعة وأربعون ذراعًا ، والمعنى الأول هو المقصود هنا . انظر الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٤٩ ، والقفيز بالمعنى الحديث نحو ستة عشرة كيلو جرامًا . معجم المصطلحات والألقاب التاريخية لمصطفى الخطيب ، ص ٣٥٢ .

الذرّية[١] ، طلبًا للإحسان إلى الرعية ، فلو جعلت أنت عياراً دون ذلك العيار ازدادت الرعية به مرفقًا ، ومضت لك به السُّنة الصالحة " .

فضرب [معاوية][٢] السود الناقصة من ستة وانيق ، تكون خمسة عشر قيراطًا غير حبة أو حبتين . وضرب منها زياد ، وجعل وزن عشرة دراهم سبعة مثاقيل ، وكتب عليها «زياد» ، فكانت تجرى مجرى الدراهم . وضرب معاوية أيضًا دنانير عليها تمثاله متقلداً سيفًا ، ثم قال : " يا معاوية ! إنا وجدنا ضربك شر ضرب " ، فقال له معاوية : " لأحرمنَّك عطاك ، ولأكسونَّك القطيفة " [٣].

فلما قام عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنهُ[٤] بمكة ضرب دراهم مدورة ، فكان أول من ضرب الدراهم المستديرة ، وإنما كانت قبل ذلك ما ضرب منها فإنه ممسوح غليظ قصير ، فدوَّرها عبدالله ونقش بأحد الوجهين « محمد رسول الله » ، وبالآخر « أمر الله بالوفاء والعدل » . وضرب أخوه مصعب بن الزبير[٥] دراهم بالعراق ، وجعل لكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل ، وأعطاها الناس فى العطاء حتى قدم الحجاج بن يوسف الثقفى[٦] العراق من قِبَل عبد الملك بن مروان[٧]، فقال : " ما ينبغى أن نترك من سنة المنافق شيئًا " ، فغيرها .

---

١ - فى نسخة « أ » : " الدرية " وكذلك نسخة « ب » بدون تنقيط ، وما أثبته من نسخة « جـ».

٢ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٣ - المقصود بالقطيفة هنا جلد البعير .

٤ - فى نسخة « أ » : " عنهما " ، وانظر ترجمة عبد الله بن الزبير فى : نسب قريش للمصعب الزبيرى ص ٢٣٧ ، وطبقات خليفة بن خياط ص ٢٨٤ ، وتاريخ خليفة بن خياط ص ٢٦٩ ، والتاريخ الكبير للبخارى ٦/١/٣ وسير السلف لإسماعيل التيمى ٥٠٩/٢ ، والمعارف لابن قتيبة ص ٢٢٤ ، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٢٢ والاستيعاب لابن عبد البر بهامش الإصابة ٣٠٠/٢ ، وصفة الصفوة لابن الجوزى ٧٦٤/١ . وأسد الغابة لابن عبد البر ١٦١/٣ ، وسير أعلام النبلاء للذهبى ٣٦٣/٣ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٧٩/١ .

٥ - انظر ترجمته فى الطبقات الكبرى لابن سعد ١٣٥/٥ ، ١٣٦ ، وطبقات خليفة بن خياط ص ٢٤١ ، والعبر فى خبر من غبر للذهبى ٥٩/١ .

٦ - انظر ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفى فى : كتاب المعارف لابن قتيبة ص ٣٩٥ ، ٥٤٨ ، والمبدأ والتاريخ للمقدسى ٢٧/٦ ، والعبر فى خبر من غبر للذهبى ٣٧٢/١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١٠٦/١ .

٧ - انظر ترجمة عبد الملك بن مروان فى : الطبقات لخليفة بن الخياط ص ٢٤٠ ، وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى٤٢٣/٦ ، والعبر فى خبر من غبر للذهبى٧٥/١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٨٢/١ ، ٩٧.

فلما استوثق الأمر لعبد الملك بن مروان ، بعد مقتل [عبد الله][1] ومصعب ، ابنى الزبير بن العوام ، فَحَصَ عن النقود والأوزان والمكاييل ، وضرب الدنانير والدراهم ، فى سنة ست وسبعين من الهجرة . وسبب ذلك [ص/٣٣] أنه كتب فى صدر كتبه إلى الروم { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } ، وذكر النبى ﷺ مع التاريخ . فكتب إليه ملك الروم[2] : " إنكم قد أحدثتم كذا وكذا فاتركوه ، وإلا أتاكم فى دنانيرنا من ذكر نبيكم ما تكرهون " ، فعظم ذلك عليه ، وكلم خالد بن يزيد بن معاوية[3] ، فأشار عليه أن يترك دنانير الروم ، وينهى عن المعاملة بها ، ويضرب للناس دراهم [ودنانير][4] فيها ذكر [الله][5] . فضرب الدينار والدرهم ، فجعل وزن الدينار اثنين وعشرين قيراطًا سوى [حبة بالشامى ، وجعل وزن الدرهم خمسة عشر قيراطًا سواء][6]، والقيراط أربع حبات ، وكل دانق قيراطين ونصف . وكتب إلى الحجاج بالعراق أن أضربها قبلك ، فضرب الحجاج الدراهم ، ونقش فيها : « قل هو الله أحد » ونهى أن يضرب أحد[7] غيره . فضرب سُمَيْر[8] اليهودى دراهم فأخذه ليقتله ، فقال له : " عيار درهمى أجود من [عيار][9] دراهمك، فلم تقتلنى؟ " . فأبى إلا قتله . فوضع [سمير][10]

---

١ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٢ – يقصد المقريزى بالروم هنا الدولة البيزنطية وكان ذلك يوافق سنة ٦٩٥م وكان إمبراطورها " جستكيان الثانى " انظر فى ذلك :

- Cambridge Mediaeval History, Vol, 2, p. 457 .

٣ – انظر ترجمة خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان فى : شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ٩٦/١ ، حيث قال : كان لخالد بن يزيد معرفة بالطب والكيمياء وفنون من العلم .

٤ – ما بين المعقوفتين ساقط من نسخة « أ » ونسخة « جـ » وما أثبته من نسخة « ب » .

٥ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٦ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « جـ » .

٧ – فى نسخة « أ » : " أحَدا " وما أثبته هو الصحيح من نسختى « ب » و « جـ » .

٨ – سُمَيْر اليهودى : هو من أهل بلدة " تيما " من بلاد العرب ، قرب حدود الشام ، وقد كلفه الخليفة عبدالملك بن مروان بضرب الدراهم ، وهذه الدراهم عرفت باسم السميرية ، انظر فى ذلك :

De Sacy: Op, Cit., p. 22 .

٩ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

١٠ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

للناس صنج الأوزان ليتركه ، فلم يفعل . وكان الناس لا يعرفون الوزن ، إنما يزنون [الدراهم][١] بعضها ببعض ، فلما وضع سمير الصنج كف بعضهم عن بعض . فقدمت تلك الدراهم مدينة رسول الله ﷺ، و [بها][٢] بقية من الصحابة ، فلم ينكروا منها سوى نقشها ، فإن فيه صورة . وكان سعيد بن المسيب[٣] يبيع بها ويشترى ، ولا يعيب من أمرها شيئًا . فجعل عبد الملك الذهب الذى ضربه على المثقال الشامى ، وهى الميالة[٤] الوازنة زيادة المائة دينارين.

ويقال[٥] فى سبب ضرب عبد الملك الدنانير والدراهم كذلك ، أن خالد بن يزيد بن معاوية ابن أبى سفيان قال له : " يا أمير المؤمنين ، إن العلماء من أهل الكتاب الأول يذكرون أنهم يجدون فى كتبهم أن أطول الخلفاء عمراً من قدس الله فى الدرهم " . فعزم على ذلك ، ووضع السكة[٦] الإسلامية . وكان[٧] الذى ضرب إذ ذاك الدراهم رجل من اليهود يقال له سُمَيْر ، فنسبت الدراهم إليه ، وقيل لها الدراهم السُّمَيْرِيَّة .

وبعث عبد الملك بالسكة إلى الحجاج بالعراق ، فَسيَّرها الحجاج إلى الآفاق لتضرب الدراهم بها . وتَقدَّم إلى الأمصار كلها أن يُكتب إليه منها كل شهر بما يجتمع قبلهم من المال كى

---

١ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٢ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٣ – يعتبر سعيد بن المسيب بن حزن المخزومى القرشى من كبار التابعين وفقهائهم وقد توفى سنة ٩٤ هـ ، انظر ترجمته فى الطبقات الكبرى لابن سعد ٨٨/٥ ، وطبقات خليفة بن خياط ص ٢٤٤ ، وتاريخ خليفة بن خياط ص ٢٦٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، والمعارف لابن قتيبة ص ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٤١ ، وحلية الأولياء لأبى نعيم ٢ / ١٦١ ، وسير أعلام النبلاء للذهبى ٢١٧/٤ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٢٦/٩ ، ٢٤٣ ، ٥٦/١٠ ، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٧٤/٤ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢٢٨/١ ، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ١٠٢/١ .

٤ – الميالة : أى الوافية الوزن .

٥ – يوجد فى هامش صفحة النسخة « أ » مقابل هذه العبارة كلمة " مهمة " .

٦ – السّكة هى الحديدة الى تطبع عليها الدراهم ، ولذلك سُميت الدراهم المضروبة " سكة " انظر الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٤٩ ، وقال المقريزى : السكة : هى الدينار والدرهم المضروبين ، يسمى كل منهما سكة لأنه طبع بالحديدة المعلمة ، ويقال لها السكة ، وكل مسمار عند العرب سكة . انظر كتاب الأوزان والأكيال الشرعية ص ٨٦ .

٧ – فى نسخة « أ » : " وكان الرجل الذى ضرب إذ ذاك الدراهم رجل " .

يحصيه عندهم ، وأن تضرب الدراهم [ص/٣٤] بالآفاق على السكة الإسلامية ، وتحمل إليه أولاً فأولاً. وقدّر في كل مائة درهم درهمًا عن الحطب وأجرة الضرّاب ، ونقش [على أحد][١] وجهي الدرهم { قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ } ، وعلى الآخر « لا إله إلا الله » ، وطوق الدرهم من وجهيه بطوق، وكتب في الطوق الواحد « ضرب هذا الدرهم بمدينة كذا » ، وفي الطوق الآخر «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهُ أرسله بِالهُدى ودين الحقِّ لِيُظْهِرَهُ على الدِّينِ كُله وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ » [٢].

ونقل الثقات أن الذي دعا عبد الملك إلى ما صنع من ذلك أن الدراهم على وجه الدهر سوداء وافية وطبرية عتقًا ، فلما نظر عبد الملك في أمور الأمة قال : إن هذه الدراهم تبقى مع الدهر ، وقد جاء في الزكاة أن في كل مائتي - أو في[٣] كل خمس أواق - خمسة دراهم . وأشفق إن جعلها[٤] كلها على مثال السود العظام مائتين عدداً يكون ذلك بخسًا للزكاة[٥] ، وأن عملها كلها مثال الطبرية - ويحمل المعنى على أنها إذا بلغت مائتين عدداً وجبت الزكاة فيها - كان في ذلك حيف وشطط على رب المال . فاتخذ [عبد الملك منزلة بين][٦] منزلتين فيها كمال الزكاة ، من غير بخس ولا إضرار بالناس ، مع موافقة ما سَنَّهُ رسول الله وحده من ذلك .

وكان المسلمون قبل عبد الملك - وإلى أنْ صَنَعَ ما ذُكِرَ - يؤدون زكاة أموالهم شطرين من الكبار والصغار [٧]. فلما اجتمع الناس مع عبد الملك ما عزم عليه من ذلك ، عَمَد إلى درهم وافٍ فوزنه فإذا هو ثمانية دوانيق ، وإلى الدرهم من الصغار فإذا به يزن أربعة دوانيق ، فجمعها معًا وجعل زيادة الأكبر على نقص الأصغر ، وجعلهم درهمين متساويين زنة كل منهما

---

١ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٢ - هذا المعني مقتبس من الآية الكريمة : { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } سورة الصف الآية (٩) .

٣ - في جميع النسخ المخطوطة « وفي » وما أثبته أكثر توضيحًا .

٤ - في نسخة « أ » : " يجعلها " ، وما أثبته من نسخة « جـ » .

٥ - في نسخة « أ » : " بخس للزكاة " ، وفي نسخة « ب » : " بخمس " . وما أثبته من نسخة « جـ» . وهو الصحيح المناسب للمعنى .

٦ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٧ - المقصود بالكبار والصغار هنا الدراهم الوافية وغير الوافية .

ستة دوانيق سواء ، واعتبر المثقال أيضًا ، فإذا هو ما برح فى آباد الدهر موفيًا محدودًا ، كل عشرة من الدّرهم التى زنة الواحد منها ستة دوانيق تكون سبعة مثاقيل سواء ، فأقر ذلك وأمضاه ، ولم يعرض لتغييره .

وكان فيما عمل عبد الملك من الدراهم ثلاث فضائل : إحداها أن كل سبعة مثاقيل زنة عشرة دراهم ، وثانيها أنه عدّل بين كبارها وصغارها حتى اعتدلت [ص/٣٥] ، وصار الدرهم ستة دوانيق، وثالثها أنه موافق لما سنه رسول الله فى فريضة الزكاة بغير وكْس[١] ولا اشتطاط[٢]. فمضت بذلك السّنّة ، واجتمعت عليه الأمة ، وضبط هذا الدرهم الشرعي المجمع عليه أنه كما مر زنة لعشرة دراهم سبعة مثاقيل ، وزنة الدرهم منها خمسون حبة وخمسا حبة من الشعير الذى وصف آنفًا ، ويقال له درهم الكيل ، فإن الرطل الشرعى منه يتركب ، ومن الرطل يتركب المد [٣]، ومن المد يتركب الصاع [٤]، وإنما جعلت العشرة من الدراهم الفضة بوزن سبعة مثاقيل من الذهب ؛ لأن الذهب أَوْزَنُ من الفضة وأثْقَلُ . وكأنهم جربوا حبة من الفضة ، ومثلها من الذهب ، ووزنوهم فكانت زنة الذهب أزيد من زنة الفضة بقدر ثلاثة أسباع الدرهم . فلذلك جعلوا كل عشرة دراهم[٥] بوزن سبعة مثاقيل ، لأن ثلاثة أسباع الدرهم إذا

---

١ – الوكْس : النقص ، ووكس الشىء يكيسُ وكْسًا بمعنى نقص ، انظر لسان العرب لابن منظور " و . ك . س " .

٢ – الشطط : مجاوزة القدر والحدّ . انظر لسان العرب لابن منظور " ش . ط . ط " .

٣ – المدّ : مكيال قديم ، فى تقديره اختلاف عند الفقهاء ، فهو عند الشافعية والمالكية نصف قدح ، ورطل وثلث عند أهل الحجاز ، وعند أهل العراق رطلان بينما عند أهل الشام حوالى سبعة أرطال بحسب الرطل الشامى الذى يزن ٢,٥ كيلو جرام . انظر معجم المصطلحات والألقاب التاريخية لمصطفى عبد الكريم الخطيب ص ٣٩١ .

٤ – الصّاع : مكيال تكال به الحبوب ونحوها ، قدّره أهل الحجاز قديمًا بأربعة أمداد بالكيل المصرى ، أى أنه يساوى قدحين ونصف القدح ، وقدّره أهل العراق قديمًا بثمانية أرطال ، وقيل الصاع معياره أربع حفنات بكفى الرجل الذى ليس بعظيم الكفين ولا صغيرهما ، استخدم الصاع فى تحديد صدقة الفطر ، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم بلفظ : صواع مرة واحدة فى قوله تعالى : { قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ } سورة يوسف الآية (٧٢) ، فالصواع هو المكيال . انظر معجم المصطلحات والألقاب التاريخية لمصطفى عبد الكريم الخطيب ، ص ٢٨٥ .

٥ – ما بين المعقوفتين ساقط من نسختى « أ » و « جـ » ، وقد أثبته من نسخة « ب » .

أضيفت عليه بلغت مثقالاً ، والمثقال إذا نقص منه ثلاثة أعشاره بقي درهمًا ، وكل عشرة مثاقيل تزن أربعة عشر درهمًا وسبعي درهم . وقيل أن واضع الأوزان جعل الدرهم ستين حبة ، لكنه قال: كل عشرة دراهم تعدل زنة سبعة مثاقيل . فيكون على ذلك زنة الحبة سبعين حبة من [حب][١] الخردل ، ومنها ركب الدرهم فما فوقه إلى الألف ، كما تقدم في المثقال .

وضرب الحجاج الدراهم البيض[٢] ونقش عليها « قل هو الله أحد » ، فقال القراء : "قاتله الله ! أي شيء صنع للناس ؟ الآن يأخذه الجنب والحائض " . وكانت الدراهم قبل ذلك منقوشة بالفارسية . فكره ناس من القراء مسّها[٣] وهم على غير طهارة ، فقيل لها المكروهة، وصارت سمة لها وعلامة عليها .

ولقد سُئل مالك رضي الله عنه [٤] عن تغيير كتابة الدنانير والدراهم ، لما فيها من كتاب الله تعالى ، فقال : " أول ما ضربت على عهد عبد الملك بن مروان والناس متوافرون ، فما أنكر أحد ذلك . وما رأيت أهل العلم أنكروه ، ولقد بلغني أن ابن سيرين[٥] كان يكره أن يبيع بها ويشتري ، ومازال أمر الناس كذلك ، ولم أر أحداً منع ذلك ها هنا " [ص/٣٦]. وقيل لعبد الملك[٦] رحمه الله تعالى : " هذه الدراهم البيض فيها كتاب الله . يقلبها اليهودي والنصراني

---

١ - ما بين المعقوفتين زيادة من « ب » .

٢ - المقصود بالدراهم البيض ما كان نقيًا وافي الوزن ، وكان الحجاج بن يوسف الثقفي أول من ضربها ، ويسمى الدينار النقي باسم الدينار الأبيض أيضًا .

٣ - مسها : أي مس الدراهم البيض ، فالضمير هنا عائد على الدراهم البيض .

٤ - هو الإمام مالك بن أنس ، إمام أهل المدينة ، وانظر المزيد من ترجمته في : تاريخ خليفة بن خياط ص ٣١٩ ، ٤٥١ ، وطبقات خليفة ص ٢٧٥ ، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٥/١٠ والمعارف لابن قتيبة ص ٤٨٩ - ٤٩٩ ، وحلية الأولياء لأبي نعيم ٣١٦/٦ ، وأنساب العرب لابن حزم ص ٤٣٥ ، ٤٣٦ والبداية والنهاية لابن كثير ١١٩/١٠ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٩٦/٢ ، ٩٧ ، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٤٨/٨ ، والرسالة المستطرفة للكتاني ص ١٣، وشذرات الذهب لابن العماد ٢٨٩/١ ، والكامل في التاريخ لابن الأثير ١٤٧/٦ .

٥ - هو محمد بن سيرين البصري المولود في سنة ٣٣ هـ والمتوفى سنة ١١٠هـ وللمزيد عن ترجمته انظر : تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٨٣/١ ، ٨٤ ، وتاريخ الإسلام للذهبي ١٩٢/٤ - ١٩٨ ، وروضات الجنات للخوانساري ص ١٥١ ، ١٥٢ ، والأعلام للزركلي ٢٥/٧ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٣٣٨/٣ .

٦ - في نسخة « أ » : " لعمر بن عبد العزيز " وهو خطأ واضح ، والصحيح ما أثبته من نسخة « ب» .

والجنب والحائض . فإن رأيت أن تأمر بمحوها " . فقال : " أردت أن تحتج علينا الأمم أننا غيرنا توحيد ربنا واسم نبينا " ، ومات عبد الملك بن مروان والأمر على ما تقدم . وخلفه ابنه الوليد. ثم سليمان بن عبد الملك ، [ثم عمر بن عبد العزيز] [١].

فلم استخلف يزيد بن عبد الملك[٢] ضرب الهُبَيْرية عمر بن هبيرة[٣] بالعراق على عيار ستة دوانيق ، فكان أول من شدد فى أمر الوزن ، وخلص الفضة أبلغ [من][٤] تخليص من قبله . فلما قام هشام بن عبد الملك [٥]، وكان جموعًا للمال ، أمر خالد بن عبد الله القسرى[٦] فى سنة ست ومائة من الهجرة أن يصير العيار إلى وزن سبعة ، وأن يبطل السكك من كل بلد الأواسط . فضرب الدراهم بواسط [٧]، وكبر السكة . فكان خالد فى تخليص الفضة أشد ممن قبله ، فضربت الدراهم على السكة الخالدية ، حتى عزل خالد فى سنة عشرين [ومائة][٨] ، وتولى يوسف بن عمر الثقفى [٩]، فأفرط فى الشدة بحيث امتحن يومًا العيار فوجد درهمًا ينقص حبة ، فضرب كل صانع ألف سوط ، وكانوا مائة صانع ، فضرب فى حبة مائة ألف سوط . وصغر [يوسف][١٠] السكة وأجراها على وزن سبعة ، وضربها بواسط وحدها ، حتى

---

١ - ما بين المعقوفتين ساقط من نسخة « أ » وأثبته من نسختى « ب » و « جـ » .

٢ - يزيد بن عبد الملك بن مروان توفى سنة ١٠٥ هـ انظر ترجمته فى : العبر للذهبى ١/ ٩٧ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٩/ ٢٣١ - ٢٣٣ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١/ ١٢٨ .

٣ - عمر بن هبيرة الفزارى توفى سنة ١٠٦ هـ انظر ترجمته فى العبر للذهبى ١/ ٩٩ .

٤ - ما بين المعقوفتين زيادة من « ب » .

٥ - هشام بن عبد الملك الأموى وكانت خلافته عشرين سنة إلا أشهراً ، عاش أربعًا وخمسين سنة توفى فى سنة ١٢٥ هـ ، انظر ترجمته فى سير أعلام النبلاء للذهبى ٥/ ٣٥١ ، وتاريخ اليعقوبى ٣/ ٥٧ ، وتاريخ الطبرى ٧/ ٢٠٠ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٦٩ ، والعبر للذهبى ١/ ١٢٢ .

٦ - خالد بن عبد الله القسرى ، انظر ترجمته فى العبر للذهبى ١/ ٩٨ وشذرات الذهب لابن العماد ١/ ١٦٩.

٧ - واسط : مدينة من مدن العراق . انظر معجم البلدان لياقوت الحموى ٥/ ٣٤٨ .

٨ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٩ - يوسف بن عمر الثقفى للمزيد من ترجمته انظر : شذرات الذهب لابن العماد ١/ ١٧٢ ، والعبر للذهبى ١/ ١٢٦ .

١٠ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

قتل الوليد بن يزيد[١] فى سنة ست وعشرين ومائة . فلما استخلف مروان بن محمد الحمار[٢] - آخر خلفاء بنى أمية - ضرب الدراهم بالجزيرة على السكة بُحْرَان[٣] حتى قتل . وكانت الهبيرية ، والخالدية ، واليوسفية ، أجود نقود بنى أمية .

وكانت دولة بنى العباس . فضرب السفاح[٤] الدراهم بالأنبار[٥] ، وعملها على نقش الدنانير ، فكتب عليها السكة العباسية ، وقطع منها ونقصها حبة ثم نقصها حبتين . فلما قام أبو جعفر المنصور[٦] نقصها ثلاث حبات . وسميت تلك الدراهم ثلاثة أرباع قيراط ، لأن القيراط أربع حبات ، كانت الدراهم كذلك . وحدثت الهاشمية[٧] على المثقال البصرى [ص/٣٧] وكانت تقطع على المثاقيل الميالة الوازنة التامة . فأقامت الهاشمية على المثاقيل، والعتق على نقصان ثلاثة أرباع قيراط مدة المنصور ، وإلى سنة ثمان وخمسين ومائة . فضرب المهدى[٨] فيها سكة مدورة فيها نقط ، ولم يكن لموسى الهادى[٩] بن المهدى سكة تعرف ، وتمادى الأمر على ذلك إلى شهر رجب سنة ثمان وسبعين ومائة فصار نقصانها قيراطًا غير ربع

---

١ - الوليد بن يزيد المتوفى سنة ١٢٦ هـ هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، انظر ترجمته فى العبر للذهبى ١٢٤/١ ، ١٢٥ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٦/١٠-٨٠ ، وشذرات الذهبى لابن العماد ١٦٧/١ .

٢ - مروان بن محمد بن مروان المتوفى سنة ١٢٧هـ انظر ترجمته فى : العبر للذهبى ١٢٥/١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١٧٢/١ .

٣ - بُحْرَان : اسم موضع بالحجاز ، انظر معجم البلدان لياقوت ٣٤١/١ .

٤ - هو عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، بُويع بالخلافة سنة ١٣٢ هـ - ٧٥٠م . انظر شذرات الذهب لابن العماد ١٨٣/١ ، ١٩٥ .

٥ - الأنبار : مدينة بالعراق ، وكانت مقر الخلافة العباسية فى بداية أمرها سنة ١٣٢ هـ فسكنها السفاح مدة خلافته ، واستقر بها بعده أبو جعفر المنصور حتى بدأ فى تأسيس بغداد سنة ١٣٥ هـ ، وهذا يفسر سبب ضرب الدراهم بها . انظر معجم البلدان لياقوت ٢٥٧/١ ، ٢٥٨ .

٦ - أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ولد سنة ٩٥ هـ ، انظر ترجمته فى تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٤١ .

٧ - الهاشمية نسبة إلى بنى هاشم ، والمقصود بذلك نقود الخلفاء العباشيين ، والمقصود بذلك نقود الخلفاء العباسيين .

٨ - المهدى أبو عبد الله محمد بن المنصور انظر ترجمته فى تاريخ الخلفاء للسيوطى ، ص ٢٥٣ .

٩ - الهادى بن المهدى : هو أبو محمد موسى بن المهدى بن المنصور ، ولد بالرَّى سنة ١٤٧ هـ وتوفى سنة ١٧٠هـ ، وقد بويع بالخلافة بعد أبيه بعهد منه . انظر ترجمته فى تاريخ الخلفاء للسيوطى ، ص ٢٦٠ .

حبة . فلما صير الرشيد[١] السكك إلى جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى[٢] ، كتب اسمه بمدينة السلام[٣]، وبالمحمدية من الرّى[٤]، على الدنانير والدراهم وضرب دنانير [زنة][٥] كل دينار [منها][٦] مائة مثقال ، كان يفرقها على الناس فى النيروز والمهرجان ، وكتب عليها :

وأصفرُ من ضرب دار الملوك   يلوح على وجه جعفرا

يزيد على مائة واحد   إذا ناله معسرٌ أيسرا

وكان لبنى العباس دنانير الخريطة[٧] وهى مائة دينار فيها مائتان ، مكتوب على كل دينار " ضَرْب الحَسَنِىّ لخريطة أمير المؤمنين " . وهذه الدنانير هى التى ينعم منها [أمير المؤمنين][٨] على المغنيين ونحوهم . ومعنى (الحسنى) القصر الحسنى الذى هو الآن بمدينة

---

١ - هو الرشيد هارون أبو جعفر بن المهدى محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، كان الرشيد يحب العلم وأهله ، ويعظّم حرمات الإسلام ويبغض المراء فى الدين والكلام فى معارضة النص ، وكان يبكى على نفسه وعلى إسرافه وذنوبه . انظر ترجمته فى تاريخ الخلفاء للسيوطى ، ص ٢٦٣ .

٢ - جعفر بن يحيى البرمكى توفى سنة ١٨٧ هـ ، كان وزيراً للرشيد ، وهو أحد الأجواد والفصحاء انظر ترجمته فى العبر للذهبى ١/ ٢٣٠ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٢٨/١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣١١/١ .

٣ - مدينة السلام : هى بغداد ، قيل : سماها الخليفة المنصور مدينة السلام تفاؤلاً بالسلامة . انظر معجم البلدان لياقوت الحموى ٧٩/٥ .

٤ - سُميت دراهم الرّى بهذا الاسم نسبة إلى محمد بن عطا الكندى ، والى الرّى من بلاد ما وراء النهر ، فى عهد الخليفة هارون الرشيد ، وقد عُرفت بتلك التسمية أيضًا دراهم فرغانة والصّغد وكشك ، ونسف وأشروسنة وسمرقند ، وكان لمحمد بن عطا أخوان ، وكلاهما من ولاة الأعمال زمن الرشيد ، وقد ضرب كل منهما دراهم إقليمية باسمه ؛ فكان غطريف بن عطا واليًا على الشاش وخجندة ، وإليه نسبت الدراهم المصيبية . انظر فى ذلك :. Sauvaire : Op. Cit, pp. 191 - 192 - 217 - 218

٥ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٦ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٧ - المقصود بالخريطة هنا الخزانة الخليفية ، وصاحب الخريطة هو صاحب بيت المال .

٨ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

بغداد ، وعمّره الحسن بن سهل (١)، وصيَّر نقصان الدراهم قيراطًا غير حبة . واستمر الأمر كذلك إلى شهر رمضان سنة أربع وثمانين ومائة ، [فصار النقص أربعة قراريط وحبة ونصف حبة] (٢)، وصارت لا تجوز إلا فى المجموعة أو بما فيها وبطلت .

فلما قتل الرشيد جعفر بن يحيى ، وتولى الوزارة الفضل بن الربيع (٣). صير السكة إلي السندى بن شاهق فضرب الدراهم على مقدار الدنانير ، وسبيل الدنانير فى سائر ما تقدم ذكره سبيل الدراهم ، فكان خلاص السندى جيداً أشد الناس خلاصاً للذهب والفضة .

وفى شهر رجب سنة إحدى وتسعين ومائة نقصت الدنانير الهاشمية نصف حبة ، ومازال الأمر فى ذلك كله عصراً يجوز فيه الدينار جواز المثاقيل . ثم ردت [المثاقيل](٤) إلى وزنها، حتى كانت أيام الأمير محمد بن هارون الرشيد(٥) ، فصير دور الضرب إلى العباس بن الفضل بن الربيع (٦). فنقش [ص/٣٨] فى السكة بأعلى السطور « ربى الله » ، وبأسفلها « العباس بن الفضل» . فلما قتل الأمين ، واجتمع الناس على عبد الله المأمون (٧)، لم يجد أحداً ينقش الدراهم ، فنقشت بالمخراط كما تنقش الخواتم .

---

١ - هو أبو محمد الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسى ، تولى وزارة المأمون بعد أخيه ذى الرياستين الفضل، وحظى عنده ، وكان سمحًا للغاية جوادًا ممدوحًا . انظر المزيد من ترجمته فى كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى طبعة الحلبى ١٩٨٠م ، القاهرة ، ص ٣١٨ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣١٩/٧ - ٣٢٣ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ١٢٠/٢ - ١٢٣ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٥/٢ ، ٨٦ .

٢ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٣ - هو الفضل بن الربيع بن يونس الأمير حاجب الرشيد وابن حاجب المنصور ، وهو الذى قام بأعباء خلافة الأمين . انظر ترجمته فى كتاب العبر للذهبى ٢٧٩/١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٢٠/٢ .

٤ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « جـ » .

٥ - هو أبو عبد الله محمد بن هارون الرشيد ، كان من أحسن الشباب صورة ، ذات قوة وشجاعة معروفة ، له فصاحة وبلاغة ، وأدب وفضيلة ، انظر ترجمته فى تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٧٦ .

٦ - هو العباس بن الفضل بن الربيع كان أديبًا شاعراً ، جعل الأمين الفضل بن الربيع وزيراً له ، فاستحجب الفضل ابنه العباس ، وقد مات العباس وأبوه حىّ ، انظر ترجمته فى تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٣٣/١٢ ، ١٣٤ .

٧ - هو المأمون عبد الله أبو العباس بن الرشيد ، ولد سنة ١٧٠هـ وكان من أفضل رجال بنى العباس حزمًا وعزمًا وحلمًا وعلمًا ورأيًا ودهاءً وهيبة وشجاعة وله محاسن وسيرة طويلة . انظر ترجمته فى تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٨٤ - ٣٠٨ .

وكـان الناس فـى أول الإسـلام إنما يزنون بالشـواهين ، فلمـا ولى عـبـد الله بن عـامـر [١] البـصـرة، سنة تسع وعـشـرين للهـجـرة ، وضع فى الميـزان لسـانًا ، وهو أول من صنع لسـانًا للمـيزان. ولم يزل الأمر فى النقود على ما تقدم [٢] عامة أيام المأمون حتى مات . ثم قام من بعده أبو إسحاق المعتصم [٣] ، ثم الواثق [٤] ، ثم المتوكل [٥] ، إلى أن قتله الأتراك وشركوا بنى العباس فى الأمور . وتفننت [٦] الدولة فى الترف ، وتقلص نور الهداية ، وتبدلت أوضاع الشريعة ورسوم الدين ، وأحدثوا وابتدعوا ما لم يأذن الله به ، فكان من ذلك غش الدراهم . ويقال أن أول من غش الدراهم وضربها مغشوشة زيوفًا عبيد الله بن زياد [٧] . حين فـر من البـصـرة سنة أربع وسـتين من الهـجـرة . ثم فـشت فى الأمـصـار أيام دول العـجم الدراهم

---

١ – هو عبد الله بن عامر بن كريز الذى افتتح مدينة اصطخر ، وضم إليه الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه مدينة البصرة وفارس ، فى سنة ثلاثين افتتح فارس وخراسان ، وقيل عنه لما وُلد أتى به النبى ﷺ فتفل فى فيه فبلعه فقال له النبى ﷺ إنك لمسقًا ، فكان لا يعالج أرضًا إلا ظهر له ماؤها ، وهو الذى عمل السقايات بعرفة وشق نهر البصرة ، وكان من الأجواد . انظر ترجمته فى شذرات الذهب لابن العماد ٣٦/١ ، والعبر للذهبى ٢٢/١.

٢ – فى نسخة « أ » : " ما بعد عامة أيام المأمون حتى مات " ، وما أثبته من نسخة « ب » .

٣ – المعتصم بالله أبو إسحاق محمد بن الرشيد ، ولد سنة ١٨٠ هـ وتوفى سنة ٢٢٧هـ ، انظر ترجمته فى تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٠٩ – ٣١٤ .

٤ – هو الواثق بالله هارون أبو جعفر وقيل أبو القاسم بن المعتصم بن الرشيد ولد سنة ١٩٦ هـ وتوفى سنة ٢٣٢ هـ ، انظر تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣١٥ – ٣٢٠ .

٥ – هو المتوكل على الله جعفر أبو الفضل بن المعتصم بن الرشيد وُلد سنة ٢٠٥ وقيل سنة ٢٠٧ هـ وتوفى ٢٤٧هـ انظر ترجمته فى تاريخ الخلفاء للسيوطى ، ص ٣٢٠ – ٣٣٠ .

٦ – فى نسخة « أ » : "تفقلت " ، وما أثبته من نسخة « ب » .

٧ – عبيد الله بن زياد ممّن قتل الإمام الحسين بن على رضى الله عنهما ففى سنة ٦٦ هـ تتبع المختار بن أبى عبيد قتلة الحسين فجهز جيشًا ضخمًا قوامه ثمانية آلاف مقاتل لحرب عبيد الله بن زياد ، فكانت وقعة " الخازر " بأرض الموصل وقيل كانت سنة ٦٧ هـ وهو الأصح . انظر العبر للذهبى ٥٤/١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٦٠/١ ، ٦١ ، ٧٤ .

الزيوف[١]، واختلفت آراؤهم بالعراق فيها ، ولم ينضبط حتى الآن أمرها . وأرجو أن يوفقنى الله على تفصيل ذلك ، [إن شاء الله تعالى] [٢] .

---

١ – كانت الدراهم فى عصر من العصور الإسلامية أربعة أنواع ، وهى : الجيدة ومعدنها فضة خالصة ، والزيوف وهى الفضة المخلوطة ، وكانت تقبل بقيمتها فى المعاملات التجارية فقط ، ولا تقبلها الحكومة فى معاملاتها وجباياتها البتة ، والمبهرجة ، وهى التى لم تضرب بدار الضرب ، وكانت غير مقبولة فى معاملات الأفراد والحكومات ، والسّوقة ، وهى التى كانت تصنع من نحاس مغطى بطبقة الفضة ، ولم تكن معتبرة من الدراهم الشرعية .

٢ – ما بين المعقوفتين ساقط من نسخة « أ » وأثبته من نسختى « ب » و « جـ » .

الفصل الثالث

في معاملة مصر مازالت بالذهب فقط

وأما مصر من بين الأمصار فما برح[1] نقدُها المنسوب إلى قِيم الأعمالِ وأثمان المبيعات ، الذهب خاصة ، كل سائر دولها جاهلية وإسلامًا . يشهد لذلك بالصحة أنّ مبلغ خراج مصر فى قديم الدهر حديثه إنما هو الذهب ، كما ستقف إن شاء الله تعالى على تفصيله ، فيما أنا عازم عليه من إفراد تأليف يحتوى على عامة أحوال خراج مصر ، منذ مصرت وعرفت أخبارها إلى هذا الزمن الحاضر[2] .

وكفى من الدلالة على صحة ما تقدم حديث أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . قال : قال رسول الله ﷺ: « منعت العراق درهمها وقفيزها . [ومنعت الشام مدها ودينارها][3] ، ومنعت مصر أردبها ودينارها » . (أخرجه مسلم وأبو داود) .

فذكر ﷺ كلّ بلد وما يختصّ به من كيل ونقد ، وأشار إلى أن نقد مصر الذهب . وكان فى هذا الحديث ما يشهد بصحة فعل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ [ص/٣٩] فإنه لما افتتح العراق فى سنة ست عشرة من الهجرة بعث عثمان بن حنيف[4] ، ففرض على أرض السواد على كل جريب من الكرم عشرة دراهم ، وعلى كل جريب من النخل ثمانية دراهم ، وعلى جريب القصب

---

١ - مابرح : مازال ، أى مازال نقدها هو الذهب .

٢ - بالنظر فى مؤلفات الإمام المقريزى لا نعثر على مؤلف خاص بموضوع خراج مصر ، غير أنه ذكر فى كتابه المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار مقالتين ضافيتين فى موضوع الخراج بمصر ، ولعلهما المقصودان بهذه الإشارة التى أشار بها المقريزى . انظر كتاب الخطط والآثار ١/ ١٢٠ - ١٢٦ طبعة مكتبة الآداب القاهرة ١٩٩٦.

٣ - ما بين المعقوفتين ساقط من نسخة « أ » وأثبته من نسخة « ب » ونسخة « جـ » .

٤ - عثمان بن حنيف بن واهب بن العُكيم بن ثعلبة بن الحارث ، شهد أحداً وما بعدها من المشاهد ، وله رواية عن رسول الله ﷺ وقد مات فى خلافة سيدنا معاوية بن أبى سفيان ، انظر المزيد من ترجمته فى : طبقات خليفة بن خياط ص ٣٦ ، ١٣٥ ، ١٩٠ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١/ ١٧٩ .

والشجر ستة دراهم ، وعلى جريب[١] البُرّ أربعة دراهم[٢] ، وعلى جريب الشعير درهمين ، وكتب بذلك إلى عمر [بن الخطاب][٣] رضي الله عنه ، [فارتضاه][٤] .

ولما فتحت مصر فى سنة عشرين على الصحيح فرض[٥] عمرو بن العاص[٦] على جميع مَنْ بها من القبط دينارين دينارين ، فجبيت أول عام عشر ألف ألف دينار . ،قيل جبيت ستة عشر ألف ألف دينار . وضربت الجزية على كل عِلج[٧] من علوج مصر الذين أقروا لعمارة الأرض أربعة دنانير فى كل سنة ، سوى خراج الأرض فأقر ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وأما أهل السواد فإن عمر رضي الله عنه أقرهم على منزلة أهل الزمة ، وفرض على كل عِلج منهم أربعين درهمًا ، فجبيت مائة ألف ألف وسبعة وثمانين ألف ألف درهم ، [وقيل مائة ألف ألف وستون ألف درهم][٨] ، ومازال خراج السواد دراهم ، ولولا خوف الإطالة لسردت الأخبار التى توضح أن معاملة مصر مازالت بالذهب فقط ، وهو ما يقوم [منه][٩] سفر ضخم ، { وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ }[١٠] .

---

١ - أمام هذه العبارة بهامش الصفحة بنسخة « أ » مكتوب الآتى : " الجريب عشر قصبات ، والقصبة ستة أذرع ، والقفيز عُشر الجريب " من كتاب تحرير الأحكام لابن جماعة ، محمد بن إبراهيم بن سعد الله المعروف ببدر الدين ت ٧٣٣هـ ، انظر ترجمته فى شذرات الذهب لابن العماد ١٠٦/٦ ، وحسن المحاضرة ، للسيوطى ٢٤٠/١.

٢ - قال على بن محمد الماوردى : أما الجريب فهو عشر قصبات ، والقفيز عشر قصبات فى قصبة ، والقصبة ستة أذرع فيكون الجريب ثلاثة آلاف وستمائة ذراع مكسرة ، والقفيز ثلثمائة وستون دفاعًا مكسرة وهو عشر الجريب . انظر الأحكام السلطانية ص ١٣٢ طبعة دار الفكر القاهرة ١٩٨٣م.

٣ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٤ - ما بين المعقوفتين ساقط من نسخة « أ » وأثبته من نسخة « ب » و « جـ » .

٥ - فى نسخة « أ » : " ففرض " ، وما أثبته من النسخ الأخرى هو الصحيح .

٦ - عمرو بن العاص ، أبو عبد الله السهمى أمير مصر ، أسلم فى هدنة الحديبية وهاجر ، وولى إمرة جيش ذات السلاسل ، وكان من دهاة قريش وأجلادها وذو الحزم والرأى ، انظر ترجمته فى العبر للذهبى ٣٧/١ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٢٤/١ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٥٣ .

٧ - العِلج : الرجل القوى الضخم من كفار العجم ، لسان العرب لابن منظور " ع . ل . ج " .

٨ - ما بين المعقوفتين ساقط من نسختى « أ » و « ب » وأثبته من نسخة « جـ » .

٩ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

١٠ - سورة يوسف الآية (٧٦) .

وأما الفضة فكانت بمصر تتخذ حليًا وأوانى ، وقد يُضرب منها الشىء للمعاملات التى يحتاج إليها فى اليوم لنفقات البيوت . وأول ما رأيت للدراهم ذكرًا بمصر فى أيام الحاكم بأمر الله ، أحد خلايف الفاطميين . قال الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد المسبحى[1]، عفا الله عنه فى تاريخه الكبير : " وفى شهر ربيع الأول من سنة سبع وتسعين وثلاثمائة ، تزايد أمر الدراهم القطع والمزايدة [2]، فبيعت أربعة وثلاثون درهمًا بدينار . ونزع[3] السعر ، واضطربت أمور الناس ، فرفعت الدراهم وأنزل بعشرين صندوقًا من بيت المال فيها دراهم جدد ، ففرقت فى الصيارف . وقرئ سجلٌ برفعها وألاّ يتعامل بها ، وأُنْظِرَ مَنْ فى يده شىء منها ثلاثة أيام ، وأن يورِّد جميع ما تحصّل منها إلى دار الضرب . فاضطربت

١ - كان المسبحى رجل حرب ورجل قلم ، وكان سليل أسرة حرّانية (نسبة إلى مدينة حران بين الموصل والشام) نزحت إلى مصر قبل قيام الدولة الفاطمية ، واستوطنت مصر وسطعت فيها ، وقد وُلد المسبحى بمصر سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٧م ، تلقى ثقافة أدبية علمية واسعة متعددة النواحى ، وقد بدأ حياته العامة جنديًا ورجل إدارة ، وتقلد بعض المناصب الإدارية العامة ، واتصل بخدمة الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٨ هـ ، فتقلد أعمال القيس والبهنسا من أعمال الصعيد ، ثم تولى ديوان الترتيب ، وهو يومئذ من مناصب الوزارة الهامة ، ثم اصطفاه الحاكم بأمر الله ، وعينه فى بطانته الشخصية فى سنة ٣٩٨ هـ ، ونال حظوة وسعادة ، وكانت له مع الحاكم مجالس ومحاضرات ، وله من المصنفات العلمية ثبتًا حافلاً مما يدل على ما كان يتمتع به هذا الذهن الممتاز من نواحى التفكير والثقافة المتعددة ، فقد ألف فى التاريخ والجغرافية والأدب والاجتماع والفلك ، وقد لبث تاريخ المسبحى مستقى خصبًا لمؤرخى مصر الإسلامية حتى عصر متأخر جداً ، فالمقريزى وابن تغرى بردى والسخاوى والسيوطى ، وغيرهم يقتبسون منه ويشيرون إلى وجوده ، وقد استمر المسبحى فى كتابه عن تاريخ مصر متتبعًا حوادث مصر وحوادث عصره حتى سنة ٤١٦هـ ، وقد توفى سنة ٤٢٠هـ ، انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان لابن خلكان ٦٥٣/١ ، ٦٥٤ ، وحسن المحاضرة للسيوطى ٢٦٥/١ ، والخطط المقريزية للمقريزى ٣٢/٣ ، ٣٣ الطبعة الأهلية ، مصر.

٢ - الدراهم القطع (أو المقطعة) كانت كمدلولها اللفظى دراهم غير كاملة ، لذهاب جزء منها بسبب القطع، وكانت تلك الدراهم تقبل فى معاملات الأفراد حسب الوزن ، غير أن الحكومات كانت ترفض التعامل بها دائمًا ، وتسميها الدراهم الفلة ، أما الدراهم المزايدة (وصحتها المزايدة) فهى التى كانت تزيد عن الدراهم الجيدة فى الحجم ، وليس فى الوزن .

٣ - فى نسخة « أ » : " وزع " وما أثبته من نسخة « ب » .

الناس، وبلغت [الدراهم القطع والمزايدة][١] أربعة دراهم بدرهم [من الجدد][٢]، وتقرر أمر الدراهم الجدد على ثمانية عشر درهمًا بدينار . ثم اشتهر فى كتب [ص/٤٠] الأخبار [أن الفضة صارت تضرب نقوداً بمصر ، وأنها سميت][٣] بين الدراهم باسم المسودة . وبها كانت معاملة أهل مصر والقاهرة والإسكندرية ، [وتعرف بنقد مصر . وأدركت الإسكندرية][٤] وأهلها لا يتعاملون إلا بها ، ويسمونها الورق ، واختلفت آراء خلفاء مصر وملوكها فى مقدار الدرهم اختلافًا لم ينضبط إلى الآن " [٥].

وحقيقة الدرهم السود النحاس فيه اليسير[٦] من الفضة ، ولم تزل المعاملة بها حتى استولت دولة بنى أيوب على مملكتى مصر والشام ، وتملك منهم محمد الكامل بن العادل . ففى ذى القعدة من سنة اثنتين وعشرين وستمائة أمر [الكامل][٧] بضرب دراهم مستديرة ، وتقدم إلا يتعامل الناس بالدراهم المصرية العتق ، وهى التى يدعوها أهل مصر الورق . فهجر الناس [الدراهم][٨] الورق ، وتركوا التعامل بها ، إذ الرعية على دين راعيها . وكانت الدراهم الكاملية - وهى التى أدركنا الناس يتعاملون بها - ثلثاها فضة والثلث نحاس ، يضاف على المائة من الفضة الخالصة خمسون درهمًا من النحاس .

راجت هذه الدراهم فى بقية دولة بنى أيوب ، ثم فى أيام مواليهم الأتراك بمصر والشام رواجًا حتى قل الذهب بالنسبة إليها ، وصارت المبيعات الجليلة تباع وتقوم بها ، وإليها تنسب

---

١ - ما بين المعقوفتين زيادة يقتضيها السياق ، وقد أثبتها من خلال الصفحات السابقة للمؤلف من الصفحة التاسعة من المخطوطة .

٢ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٣ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٤ - ما بين المعقوفتين ساقط من نسخة « أ » ، ونسخة « جـ » . وما أثبته من نسخة « ب » .

٥ - انتهى اقتباس المقريزى من كتاب المسبحى .

٦ - فى نسخة « أ » : " أيسر من الفضة " ، وما أثبته من نسخة « ب » ، ونسخة « جـ » وهو الصحيح ، إذ الدراهم النقرة وليست السوداء هى التى كانت تغلب فيها نسبة الفضة على النحاس فى معظم العصور، انظر : صبح الأعشى للقلقشندى ٤٦٣/٣ - ٤٦٤ .

٧ - ما بين المعقوفتين زيادة من « ب » . والمقصود بالكامل هو : محمد بن أبى بكر بن أيوب الملقب بالملك الكامل ، وقد توفى سنة ٦٣٥ هـ ، انظر ترجمته فى حسن المحاضرة للسيوطى ٢٣/٢ - ٣٤ .

٨ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

عـامة أثمان المبيعات وقيم الأعمال ، وبها تؤخذ خراج الأرضين وأجرة المساكن وغير ذلك. و [كـان][١] الدرهم ثمانى عشرة خروبة ، والخروبة ثلاث قمحات ، والمثقال أربع وعشرين خروبة ، والصنجة تتفاوت بمصر والشام ، فتنقص كل مائة مثقال شامى مثقالاً وربعًا بمصر ، وكذلك الدراهم .

وأما الفلوس فإنه لما كان فى المبيعات محقرات تقل عن أن تباع بدرهم أو جزء منه ، احتاج الناس من أجل ذلك فى القديم والحديث من الزمان إلى شىء سوى نقدى الذهب والفضة يكون بإزاء تلك المحقرات ، لم يسم أبدًا على وجه الدهر ساعة من نهار فيما عرف من أخبار الخليفة نقدًا ، لا ولا أقيم قط بمنزلة أحد النقدين . واختلفت مذاهب البشر وآراؤهم فى ما يجعلونه بإزاء تلك المحقرات ، فلم يزل بمصر والشـام [ص/٤١] وعراقى العرب والعجم وفارس والروم فى أول الدهر وآخره ملوك هذه الأقاليم ، لعظمتهم وشدة بأسهم ونصرة ملكهم ، وكثرة شأوهم وخنزوانة سلطانهم ، يجعلن بإزاء هذه المحقرات نحاسًا يضربون اليسير منه قطعًا صغارًا تسميها العرب فلوسًا[٢] لشراء ذلك . ولا يكاد يوجد من هذه الفلوس إلا النزر[٣] اليسير ، مع أنها لم تقم أبدًا فى هذه الأقاليم بمنزلة أحد النقدين[٤] قط .

وكان سبب ضربها بمصر فى أيام الكامل الأيوبى - بعد أن لم تكن - أن امرأة تعرضت لخطيب الجامع بمصر ، وهو إذ ذاك أبو الطاهر الكحلى ، تستفتيه : « أيحل شرب الماء أم لا ؟ » ، فقال : « يا أمة الله اوما يمنع من شرب الماء ؟ » ، فقالت : « أن السلطان ضرب هذه الدراهم ، وأنى اشترى القربة بنصف درهم منها ومعى درهم ، فيرد [السقاء][٥] على نصف درهم ورقًا ، فكأنى اشتريت منه ماء ونصف درهم بدرهم » . فأنكر [أبو الطاهر][٦] ذلك ، واجتمع بالسلطان وتكلم معه فى ذلك الأمر بضرب الفلوس .

---

١ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٢ - الفلوس : مفردها ، الفلس ، وهو يونانى مُعرّب ، ومعناه كيس النقود ، ويُقال مثل ذلك بصدد لفظ الدرهم الفارسى .

٣ - النزر : القليل .

٤ - النقدين : أى الذهب والفضة .

٥ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٦ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

ولقد كان ببغداد ، التى أربّت [١] عمارتها على عامة الأمصار ، يجعل بإزاء غالب المبيعات عوضًا منها الخبز . يوضح ذلك ما علقته من رسالة الشيخ الرئيس أبى القاسم بن أبى زيد إلى بعض إخوانه يخبره بأخبار البلاد التى سلكها وما هى عليه ، وذلك عند سفره من مصر ونزوله ببغداد ، فى سنة بضع وأربعمائة . قال بعد صدر طويل :

" أما الخبز فيبرز عجينه على باب الدكان ، فيجتمع عليه عدد كثير من الذباب ، ثم يخبزونه فى تنانير قد أحميت بالدخان ، ويبالغون فى تجفيف[٢] الرغفان ، ويعاملون به فى الأسواق ، ويقيمونه مقام الدرهم [فى الإتفاق][٣] ، وينتقدونه نقداً قد اصطلحوا عليه . وجعلوا لذلك قانونًا يرجعون إليه : فيردون المثلوم[٤] والمُكَرَّج[٥] ، كما يرد الدرهم الزائف والدينار المبهرج[٦] ، ويشترون به أكثر المأكولات والمشمومات ، [ويدخلون به الحمامات][٧] ، ويأخذه النباذ والخمار ، ولا يرده البزاز ولا العطار . وللرغيف السميد على غيره صرف مقدّر[٨] ، وحساب عندهم معلوم محرّر ، ومع هذه العناية والاحتياط يباع كل ستين رغيفًا بقيراط [٩]. وكتبت من خط حافظ المغرب محمد بن سعيد فى كتابه الذى سماه (جنا النحل وحيا المحل) ما نصه : فأخرج لى أحد هؤلاء التجار - يعنى تجاراً رآهم ببغداد[١٠] لما رحل

---

١ - أربت : أى زادت عمارتها على عامة الأمصار . انظر لسان العرب لابن منظور " ر . ب . و " .

٢ - فى نسخة « أ » : " تخفيف " وما أثبته من نسخة « ب » .

٣ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٤ - المثلوم : أى المكسور ، فيقال فى الإناء ثَلِمَ إذا انكسر ، وفى الرغيف ثَلِمَ إذا تكسرت أحرفه ، لسان العرب لابن منظور " ث . ل . م " .

٥ - المكَرَّج : الفاسد وله علة خضرة ، فالخبز المكرج أى الخبز الذى فسد وعلته خضرة ، انظر لسان العرب لابن منظور " ك . ر . ج " .

٦ - المبهرج : أى الباطل والردئ ، والدرهم الذى فضته رديئة فيكون الدينار المبهرج مثل ذلك . انظر لسان العرب لابن منظور " ب . هـ . ر . ج " .

٧ - ما بين المعقوفتين ساقط من نسخة « أ » ونسخة « جـ » وما أثبته من نسخة « ب » .

٨ - الرغيف السميد : أى الرغيف المنتفخ . انظر لسان العرب ، لابن منظور " س . م . د " .

٩ - القيراط هنا نقد مقداره جزء من عشرين من المثقال ، وهو من مستحدثات الخليفة عبد الملك بن مروان .

١٠ - فى نسخة « أ » : يعنى تجارهم ببغداد " ، وما أثبته من نسخة « ب » .

إليها - ورقة فيها خطوط بقلم الخطا [١]، وذكر أنها من ورق التوت فيها لين ونعمة ، وأن هذه الورقة إذا احتاج إنسان فى خان بالق[٢] من بلاد الصين لخمسة دراهم دفعها فيها ، وأن ملكها يختم لهم هذه الأوراق ، وينتفع بما يأخذ بدلاً عنها "[٣] ، انتهى .

وأخبرنى مَنْ لا أتهم أنه شاهد فى بعض مدن إقليم الصعيد أهلها يتعاملون فى محقَّرات المبيعات بالكودة [٤]، وتسمى بمصر الودع ، كما يتعامل أهل مصر الآن بالفلوس . وأخبرنى ثقة أن ببعض بلاد الهند يشترى الكثير من المأكل بالعفص والبلح . وأدركت أنا الناس [من][٥] أهل ثغر إسكندرية وهم يجعلون فى مقابلة الخضرة والحوامض والبقول ونحو ذلك كسر الخبز ، ولشراء ما يراد منه ، ولم يزل ذلك إلى نحو السبعين والسبعمائة . وأدركنا ريف مصر وأهله يشترون الكثير من الحوائج والمأكولات بلبعض الدجاج وبنخال الدقيق ، وبردئ مشاق الكتان ، إلى آخر[٦] هذه الحوادث . كل هؤلاء أنما يتخذون ما تقدم ذكره لشراء الأمور الحقيرة فقط ، ولم يجعل أحد منهم شيئًا من ذلك نقداً يخزن ، ولا يشترى به شىء جليل البتة.

---

١ - الخطا : بلاد المغول ، وهى الجزء الغربى من بلاد الصين ، وكات عاصمتها جالق بالق ، ومن بلاد الخطا هذه كانت أغارات جنكيز خان ومن وليه من خانات المغول . انظر صبح الأعشى للقلقشندى ٤٨٣/٣ - ٤٨٧ .

٢ - خان بالق : كانت عاصمة الصين ، وهى غير جالق بالق ، انظر ذلك فى صبح الأعشى للقلقشندى ٤٧٩/٣ - ٤٨٠ .

٣ - ذكر ذلك ابن بطوطة فى رحلته ووصف هذا الورق وصفًا دقيقًا فقال : " وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم ، وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعًا ، وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد ، كل قطعة منها بقدر الكفّ مطبوعة بطابع السلطان ، وتسمى الخمس والعشرين قطعة ، منها بالشتْ ، وهو بمعنى الدينار عندنا ، وإذا تمزقت تلك الكواغد فى يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا ، فأخذ عوضها جُدداً ، ودفع تلك ، ولا يُعطى على ذلك أجرة ولا سواها ، لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان ، وقد وُكِّلَ بتلك الدار أمير من كبار الأمراء ، وإذا مضى الإنسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شىء لم يؤخذ منه ولا يُلتفت إليه حتى يصرفه بالبالشت ، ويشترى به ما أراد . انظر رحلة ابن بطوطة ص ٦٢٩ . طبعة صادر بيروت بدون تاريخ .

٤ - الكودة : هى الودع الذى يستخرج من البحر ، انظر كتاب شذرات العقود للمقريزى ، ص ٥٠ .

٥ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٦ - فى نسخة « أ » : " أيسر " وكذلك فى نسخة « جـ » وفى نسخة « ب» " أمس " وما أثبته هو الصحيح والمتفق مع المعنى .

ولما ضربت الفلوس كما مرّ[١] فى أيام الكامل تتابع[٢] الملوك فى ضربها حتى كثرت فى الأيدى. ومازالت العامة تتعنت فيها لما يداخلها من القطع المخالفة للقطع التى يأمر السلطان بالتعامل بها . فتقدم الولاة بصلاح ذلك .

وكانت الفلوس أولاً تعدّ فى الدرهم الكاملى ثمانية وأربعين فلسًا ، ويقسم الفلس أربع قطع تقام كل قطعة مقام فلس ، يشترى بها ما يشترى بالفلوس ، فيحصل بذلك من الرفق لذوى الحاجات ما لا يكاد يوصف .

وتمادى الأمر على ذلك إلى بعد الخمسين والستمائة من الهجرة[٣] ، فسوّل بعض العمال لأرباب الدولة حب الفائدة ، وضمن ضرب الفلوس بمال قرره على نفسه ، وجعل كل فلس يزن مثقالاً ، والدرهم يعد أربعة وعشرين فلسًا . فثقل ذلك على الناس ، وأنكاهم موقعه لما فيه من الخسارة ، لأنه صار ما يشترى بدرهم هو ما كان قبل يشترى بنصف درهم . ثم توطنت نفوس الناس على ذلك ، إذ هم أبناء العوائد . وكانت الفلوس مع ذلك لا يشترى بها شىء من الأمور الجليلة . وإنما هى لنفقات البيوت ، ولأغراض ما يحتاج إليه من الخضر والبقول ونحوها .

فلما كانت سلطنة العادل كتبغا ، وأكثر لوزير فخر الدين عمر بن عبد العزيز الخليلى[٤] من المظالم ، وجارت حاشية السلطان ومماليكه على الناس ، وطمعوا فى أخذ الأموال والبراطيل[٥] والحميات ، وضربت الفلوس ، توقف الناس فيها لخفتها . فنودى فى سنة خمس

---

١ - فى نسخة « أ » : " كما ترى " وما أثبته من نسخة « ب » .

٢ - فى نسخة « أ » : " لم يتابع " وما أثبته من نسخة « ب » .

٣ - فى جميع نسخ المخطوطة الثلاثة : " السبعمائة " وهو خطأ يبرهن عليه ما يلى فى هذه الصفحة ، حيث يذكر المقريزى ما حدث فى سلطنة العادل كتبغا (٦٩٤ - ٦٩٦ هـ) من خلل فى النقد ، وذلك قبل سنة سبعمائة ، فلعله سبق قلم من الناسخ أو خطأ غير مقصود ، بينما أدرك ذلك ناسخ النسخة « جـ » من المخطوطة فأشار إلى هذا الخطأ فى الهامش الخاص بالنسخة « جـ » قائلاً : " لعله ستمائة " .

٤ - هو عمر بن عبد العزيز بن الحسن بن الخليلى التميمى الدارى المصرى ، ولى وزارة الصحبة فى آخر الدولة المنصورية ، ثم للعادل والمنصور وقد توفى سنة ٧١١هـ . انظر ترجمته فى شذرات الذهب لابن العماد ٢٨/٦ .

٥ - البراطيل : مفردها : برطيل ، ومعناها الرشوة المقدمة لأصحاب النفوذ لقاء عمل دون مراعاة لقاعدة أو قانون . انظر معجم المصطلحات والألقاب التاريخية لمصطفى عبد الكريم الخطيب ، ص ٧١ .

وتسعين وستمائة أن توزن بالميزان ، وأن يكون الفلس زنة درهم ، ثم نودى على الرطل منها بدرهمين ، وكان هذا أول ما عرف بمصر من وزن الفلوس والمعاملة بها وزنًا لا عدداً .

فلما كانت أيام الظاهر برقوق [١] ، وتولى محمود [بن على الأستادار][٢] أمر الأموال السلطانية ، شره إلى الفوائد وتحصيل الأموال ، فكان مما أحدث الزيادة الكبيرة [من الفلوس][٣] ، فبعث إلى بلاد فرنجة لجلب النحاس الأحمر ، وضمن دار الضرب بالقاهرة بجملة من المال ، ودام ضرب الفلوس بها مدة أيامه ، واتخذ بالإسكندرية دار ضرب لعمل الفلوس ، فكثرت [الفلوس][٤] بأيدى الناس كثرة بالغة ، وراجت صارت من أجله هى النقد الغالب فى البلد . وقلت الدراهم لأمرين : أحدهما عدم ضربها البتة ، والثانى سبك ما بأيدى الناس منها لاتخاذه حليًا منذ تفنن أمراء السلطان وأتباعهم فى دواعى الترف ، وتأنقهم فى المباهاة بفاخر الزى وجليل الشارة . ووجد مع ذلك الذهب بأيدى الناس ، بعد أن كان لا يوجد مع كل أحد ، لكثرة ما كان يخرجه الظاهر [برقوق][٥] فى الأنعام على أمراء الدولة ورجالها ، وفى نفقات الحروب والأسفار ، فى الصلات زمن الغلاء . فمات الظاهر وللناس ثلاثة نقد أكثرها الفلوس، وهو النقد الرابح الغالب ، والثانى الذهب وهو أقل وجدانًا[٦] من الفلوس ، وأما الفضة [ص/٤٤] فقلّت حتى بطل التعامل بها لعزتها . وكان يعطى فى الدينار الذهب منها إلى ثلاثين درهمًا . ثم كثر الذهب بأيدى الناس حتى صار مع أقل السوقة . وعظم رواج الفلوس ، وكثرت كثرة بالغة حتى صارت المبيعات وقيم الأعمال كلها تنسب إلى الفلوس خاصة . وبلغ

---

١ – هو الملك الظاهر برقوق بن أنس بن عبد الله الجركسى العثمانى ، تولى أمر الملك سنة ٧٨٤هـ وبايعه الخليفة المتوكل محمد بن المعتضد ، وقيل عنه : كان أعظم ملوك الجراكسة توفى على فراشه بالقاهرة سنة ٨٠١هـ ، انظر ترجمته فى شذرات الذهب لابن العماد ٧/٦ ، ٧ .

٢ – ما بين المعقوفتين زيادة من النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٧/١٢ طبعة دار الكتب المصرية ، كما استقر محمود بن على الأستادار مشيراً للدولة أيضًا فى سنة ٧٩٢هـ . انظر أيضًا النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٧/١٢ .

٣ – ما بين المعقوفتين ساقط من نسختى « أ » و « جـ » وما أثبته من نسخة « ب » .

٤ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٥ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٦ – هكذا فى نسخة « أ » . ومن الممكن أن تقول " وجوداً " .

الذهب كل مثقال منه إلى مائة وخمسين من الفلوس ، [والفضة كل زنة درهم من المضروب منها بخمسة دراهم من الفلوس][١] التى كان كل درهم منها يعد أربعة وعشرين فلسًا . وبلغ المثقال من الذهب بثغر الإسكندرية ثلاثمائة درهم من الفلوس ؛ فدهى الناس بسبب ذلك داهية أذهبت المال ، وأوجبت قلة الأقوات ، وتعذر وجود المطلوبات لاختلاف النقود ؛ وإنه ليخشى من تمادى ذلك أن يحول حال أهل الإقليم ، { وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ } [٢].

---

١ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » وساقط من نسخة « أ » ونسخة « جـ » .

٢ – سورة الرعد الآية (١١) .

الفصل الرابع
فى ذكر أقسام الناس وأصنافهم
وبيان جمل من أحوالهم وأوصافهم

اعلم حرسك الله بعينه التى لا تنام ، وركنه الذى لا يرام ، أن الناس بإقليم مصر فى الجملة على سبعة أقسام : القسم الأولى [أهل][1] الدولة . والقسم الثانى أهل اليسار من التجار، وأولى النعمة من ذوى الرفاهية . والقسم الثالث الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ، ويقال لهم أصحاب البَزّ[2]، ويلحق بهم أصحاب المعايش ، وهم السوقة . القسم الرابع أهل الفلح ، [وهم][3] أهل الزراعات والحرث ، سكان القرى والريف . والقسم الخامس الفقراء ، وهم جل الفقهاء وطلاب العلم ، والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم . والقسم السادس أرباب الصنائع والأجراء أصحاب المهن . والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة وهم السؤال الذين يتكففون[4] الناس ويعيشون منهم .

فأما القسم الأول ، وهم أهل الدولة ، فحالهم فى هذه المحن[5] على ما يبدو لهم . ولمن لا تأمل عنده ، ولا معرفة بأحوال الوجود له ، إن الأموال كثرت بأيديهم بالنسبة لما كانت قبل هذا المحن ، باعتبار ما يتحصل لهم من خراج الأراضى ، فإن الأرض التى كان مبلغ خراجها من قبل هذه الحوادث مثلاً عشرين ألف درهم [صار الآن خراجها مائة ألف درهم] [6]، وهذا الظن ليس بصحيح ،[ص/٤٥] بل قلت أموالهم بالنسبة إلى ما كانت عليه أموال أمثالهم من قبل. وبيان ذلك أن العشرين ألف درهم فيما سلف كان مالكها ينفق منها فيما أحب واختار ،

---

١ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٢ - البَزُّ : الثياب ، وقيل : ضرب من الثياب ، وقيل متاع البيت من الثياب خاصة ، انظر لسان العرب لابن منظور " ب . ز . ز " .

٣ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٤ - يتكففون الناس : أى يمدون أكفهم يسألون الناس . انظر لسان العرب لابن منظور " ك . ف . ف " .

٥ - فى نسخة « أ » ، ونسخة « جـ » : " هذا المحل " وما أثبته من نسخة « ب » .

٦ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

ويدخر بعد ذلك ما شاء الله ، لأنها كانت دراهم ، وهى قيمة ألف مثقال من الذهب أو قريب منها . والآن إنما يأتيه بدل تلك المائة ألف درهم فلوس ، هى قيمة ستمائة وستين مثقالاً من الذهب ، ينفق ذلك فيما يحتاج إليه فى اليوم من لحم وخضر وتوابل وزيت ونحوه ، وفيما لابد له من كسوته وكسوة عياله ، وما تدعو إليه الحاجة من خيل وسلاح وغيره ، مما كان[1] يشتريه قبل هذه المحن بعشرة آلاف من الفضة ونحوها . ولولا تساوى العالم[2] من الخاصة والعامة بمعرفة تفاوت ما بين سعر المبيعات الآن وبين سعرها قبل هذه المحن لبينا ذلك . ولابد من الإلماع بطرف منه إن شاء الله تعالى : فأهل الدولة لو ألهموا رشدهم ، ونصحوا أنفسهم ، لعلموا أنهم لم ينلهم ربح البتة بزيادة الأطيان ، ولا بغلاء سعر الذهب الذى كان أصل هذا البلاء ، وسبب هذه المحن ، بل هم الخاسرون ، وأن ذلك من تلبيس مباشريهم لنيلهم ما يحبون من أعراضهم ، { وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ } [3].

وأما القسم الثانى ، وهم مياسير التجار وأولو النعمة والترف ، فإن التاجر إذا استفاد مثلاً ثلاثة آلاف درهم فى بضاعته ، فإنما يتعوض عنها فلوسًا أو عشرين مثقالاً من الذهب ، ويحتاج إلى صرفها فيما لا غنى له عنه من مؤونته[4] ومؤونة عياله ، وكسوته وكسوة عياله، فهو لو تأمّل لا تّضح له أنه لما كان أولاً يستفيد فى مثل هذه البضاعة ألف درهم مثلاً ، أنها تغنى عنه فى كلفته مما تغنى عنه هذه الثلاثة آلاف درهم من الفلوس بكثير . فالبائس لغباوته يزعم أنه استفاد ، وهو فى الحقيقة إنما خسر ، ولسوف عما قليل ينكشف له الغطاء ، ويرى ماله قد أكلته النفقات ، وأتلفه اختلاف النقود ، فيعلم فساد ما كان يظن ، وكذب ما كان يزعم ، { وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [5].

وأما القسم الثالث ، وهم أصحاب البَزّ وأرباب المعايش ، فإنهم فى [ص/٤٦] هذه المحن يعيشون مما يتحصّل لهم من الربح ، فإنّ أحدهم لا يقنع من الفوائد إلا بالكثير جداً ، وهو

---

١ - فى جميع نسخ المخطوطة « ما كان » ، ولكن ما أثبته هو القريب إلى الصواب والصحة ويتفق مع السياق والمعنى .

٢ - فى جميع نسخ المخطوطة " العلم " والصحيح ما أثبته ، وما يتفق مع المعنى والسياق .

٣ - سورة فاطر الآية (٤٣) .

٤ - المؤونة : هى القُوت . انظر لسان العرب لابن منظور " م . أ . ن " .

٥ - سورة الرعد الآية (٣٣) .

بُعَيْد ساعات من يومه ينفق ما اكتسبه فيما لابّد منه من الكلف ، وحسبه ألا يستدين لبقية حاجته ، ويقنع كما قال الأول :

على أننى راض بأن أحمل الهوى   واخلص منه لا عَلَىَّ ولاَ لِيَا

وأما القسم الرابع ، [وهم][1] أصحاب الفلاحة والحرث ، فهلك معظمهم لما قدمناه من شدة السنين وتوالى المحن بقلة ريّ الأراضى . وفيهم من أثرى ، وهم الذين أرتوت أراضيهم فى سِنِى المحل فنالا من زراعتها أموالاً جزيلة عاشوا بها هذه الأزمنة ، على [أن][2] فيهم من عظمت ثروته ، وفخمت نعمته ، ونال ما أربى على مراده وزاد على ما أمّله . { وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [3].

وأمّا القسم الخامس ، فهم أكثر الفقهاء وطلاب العلم ، ومن يلحق بهم من الشهود[4]، والكثير من أجناد الحلقة ، ومن شابههم ممن له عقار أو جار من معلوم سلطان أو غيره ، فهم ما بين ميّت أو مشتهى الموت ؛ لسوء ما حل بهم . فإن أحدهم إذا أتته مائة درهم مثلاً فإن ما يأخذ عنها فلوسًا أو ثلثى مثقال[5] ينفق ذلك فيما كان ينفق فيه من قبل عشرين درهمًا من الفضة ، فلحتهم من أجل ذلك القلّة والخصاصة[6] ، وساءت أحوالهم . { وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ } [7].

---

١ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٢ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٣ - سورة البقرة الآية (٢٤٥) .

٤ - الشهود : جمع شاهد ، وهو مصطلح يستخدم فى زمن الدولة المملوكية يعنى الموظف الذى كان عمله ، أن يشهد بتعلقات لديوان المستخدم به نفيًا وإثباتًا ، هو أحد الذين جمعهم القلقشندى تحت باب كتّاب الأموال ، وهى وظيفة دينية فى العصر العثمانى أيضًا ، كان متولوها يجلسون حول القاضى بحسب مراتبهم فى العدالة ، انظر صبح الأعشى للقلقشندى ٥/٤٦٦ . انظر معجم المصطلحات والألقاب التاريخية بمصطفى عبد الكريم الخطيب ، ص ٢٦٨ .

٥ - فى نسخة « أ » : " فإنما يأخذ منها فلوسًا ويكنى مثقال " ، وفى نسخة « جـ » : " فإنما يأخذ منها فلوسًا أو ثلثى مثقال " .

٦ - الخصاصة : الفقر وسوء الحال . انظر لسان العرب لابن منظور " خ . ص . ص " .

٧ - سورة الشورى الآية (٣٠) .

وأما القسم السادس ، فهم أرباب المهن والأجراء والحمالون والخدم والسواس والحاكة والبناة والفعلة ونحوهم ، فإن أجرهم تضاعفت تضاعفًا كثيراً ، إلا أنه لم يبق إلا القليل لموت أكثرهم، بحيث لم يوجد منهم الواحد إلا بعد تطلّب وعناء { وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ }[1] .

وأما القسم السابع ، فهم أهل الخصاصة والمسكنة ، ففنى معظمهم جوعًا وبرداً ، ولم يبق إلا أقل من القليل . { لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ }[2].

---

١ - سورة الحج الآية (٤١) .

٢ - سورة الأنبياء، الآية (٢٣)

الفصل الخامس

[ص / ٤٧] فى ذكر نبذ من أسعار هذا الزمن

وإيراد طرف من أخبار هذه المحن

اعلم أسعدك الله سعادة الأبد ، وآتاك فوز السَّرْمَد[١]، أن الذى استقرّ أمر الجمهور بإقليم مصر عليه فى النقد الفلوس خاصة ، يجعلونها عوضًا عن المبيعات كلها من أصناف المأكولات وأنواع المشروبات وسائر المبيعات ، ويأخذونها فى خراج الأرضين وعشور أموال التجار ، وعامة مجابى السلطان ، ويصيِّرونها قِيمًا عن الأعمال جليلها وحقيرها ، لا نقد لهم سواها ولا مال إلا إياها . على أنّ كل قنطار منها ، وهو مائة رطل مصرية [وزنًا] [٢]، بستمائة درهم [نقداً] [٣]، حسابًا عن كل رطل ، وهو زنة [مائة وأربعة وأربعين درهمًا وزنًا ، ستة دراهم نقداً ، وعن كل درهم منها أوقيتان زنتهما][٤] أربعة وعشرون درهمًا ، بدعة أحدثوها وبلية ابتدأوها لا أصل لها فى ملة نبوية ، ولا مستند لفعلها عن طريقة شرعية ، ولا شبهة لمبتدعها فى الاقتداء بفعل أحد ممن غبر ، ولا ائتناسه[٥] بقول واحد من البشر ، سوى شيء نشأ عنه ذهاب بهجة الدنيا وزوال زينتها ، وتلاف الأموال وفساد زخرفها ، ومصير الكافة إلى القلة ، وشمول الفاقة للجمهور مع الذلة ، { لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً } [٦].

وأما أسعار المبيعات فإن الذهب انتهى بحاضرة القاهرة وربعها [٧]، كل مثقال منه إلى مائة وخمسين درهمًا من الفلوس ، وبلغ بثغر الإسكندرية كل مثقال إلى ثلاثمائة درهم فلوسًا.

---

١ - السَّرْمَد : الدائم الذى لا ينقطع ، وقيل دوام الزمان من ليل أو نهار ، انظر لسان العرب لابن منظور "س. ر . م . د " .

٢ - ما بين المعقوفتين زيادة يقتضيها السياق .

٣ - ما بين المعقوفتين زيادة يقتضيها السياق .

٤ - ما بين المعقوفتين ساقط من نسخة « أ » وما أثبته من نسخة « ب » ونسخة « جـ » .

٥ - فى نسخة « أ » : " انتشابه " ، وما أثبته من نسخة « ب » .

٦ - سورة الأنفال الآية (٤٢ ، ٤٤) .

٧ - فى نسخة « أ » : " وربعها " وما أثبته من نسخة « ب » .

وبلغت دراهم المعاملة كل زنة درهم منها خمسة دراهم فلوسًا . وانتهى الأردب من القمح إلى أربعمائة وخمسين فلوسًا غير الكلفة : وهى عن السمسرة[١] عشرة دراهم ، والحمولة سبعة دراهم ، والغربلة ثلاثة دراهم ، وأجرة الطحن ثلاثون درهمًا ، فذلك خمسون درهمًا . ويتحصل عن الأردب قمحًا نقيًا خمس ويبات فقط ، وينقص منه سدسه غلتا ، فإذاً لا يتهيأ كل أردب إلا من حساب [ستمائة درهم فلوسًا] [٢]. ويبلغ كل أردب من الشعير والفول ما ينيف عن ثلاثمائة [درهم][٣] سوى الكلف ، والأردب من البسلة ثمانمائة درهم ، ومن الحمص خمسمائة درهم ، والرأس الواحد من البقر بمائة مثقال من الذهب – عنها خمسة عشر ألف درهم من الفلوس – ، [ص/٤٨] والرطل الواحد من اللحم البقرى النئ بسبعة [دراهم][٤] فلوسًا ، والرطل الواحد من الضأن بخمسة عشر درهمًا ، والطائر الواحد من الدجاج من مائة درهم ، كل طائر منها إلى عشرين درهمًا فلوسًا ، والطائر الواحد من الأوز من مائتى درهم ، كل طائر منها إلى خمسين درهمًا [فلوسًا] [٥]، والرأس الواحد من الغنم الضأن بما ناف عن ألفى درهم فلوسًا . ويبيع الجمل بسبعة آلاف فلوسًا ، والقدح الواحد من لب اليقطين بمائة درهم وعشرين درهمًا فلوسًا ، [والقدح من الأرز بخمسة عشر درهمًا فلوسًا] [٦]، والأردب الواحد من بذر الجزر بخمسمائة درهم فلوسًا ، وكل قدح من بذر الفجل بمائة وخمسين درهمًا فلوسًا ، وكل قدح من بذر اللفت ثلاثمائة درهم فلوسًا ، وكل قنطار من الشيرج غير كلفة بألف ومائتى

– ذكر الإمام المقريزى فى كتابه : الخطط المقريزية : " قيمة السمسرة عامة بأقل من هذا ، وذكر أن السلطان الملك الناصر محمد ألغى سنة ٧١٥هـ ما يسمى باسم نصف السمسرة ، ونصه : " ومما أبطل أيضًا نصف السمسرة وهو عبارة عن أن منْ باع شيئًا من الأشياء فإنه يعطى أجرة الدلال على ما تقرر من تديم ، عن كل مائة درهم درهمين ، فلما ولى ناصر الدين ابن الشيخى الوزارة ، قرر على كل دلال من دلالته درهمًا من كل درهمين ، فصار الدلال يعمل معدله ويجتهد حتى ينال عادته ، وتصير الغرامة على البائع فتضرر الناس من ذلك ، وأوذوا فلم يغاثوا ، حتى أبطل ذلك السلطان . انظر الخطط للمقريزى ٨٨/١ – ٨٩ .

– ما بين المعقوفتين ساقط من « أ » وما أثبته من نسخة « ب » ونسخة « جـ » .

– ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

– ما بين المعقوفتين ساقط من « أ » وما أثبته من « ب » ، و « جـ » .

– ما بين المعقوفتين زيادة من « ب » .

– ما بين المعقوفتين زيادة من « ب » .

درهم فلوسًا ، [والبطيخة الواحدة فى أوان البطيخ بعشرين درهمًا فلوسًا] [١]، وكل رطل من العنب فى أوانه بأربعة دراهم فلوسًا . وكل قنطار من القرع بمائة درهم فلوسًا ، والسكر كل رطل إلى سبعين درهمًا [فلوسًا] [٢]، وزيت الزيتون كل قنطار منه بخمسمائة وخمسين درهمًا [فلوسًا] [٣]، والثوب القطن بألف وخمسمائة درهم [فلوسًا][٤] ، والذراع الواحد من ثياب الكتان الذى لم يقصر ببضعة عشر درهمًا فلوسًا ، والبيضة الواحدة من بيض الدجاج بنصف درهم فلوسًا ، والليمونة الواحدة بثلاثة دراهم فلوسًا ، والرطل الواحد من الكتان الذى [لم][٥] يمشق بعشرين درهمًا فلوسًا .

وبلغ بالإسكندرية وتروجة كل قدح واحد من القمح إلى أربعين درهمًا فلوسًا ، ومن الشعير ثلاثين درهمًا ، والرطل من الخبز عشرة دراهم ، والرطل من لحم الضأن ستين درهمًا فلوسًا ، [والطائر المتوسط من الدجاج سبعة وخمسين درهمًا فلوسًا] [٦]، والبيضة الواحدة من بيض الدجاج بدرهمين فلوسًا ، والأوقية من الزيت بأربعة دراهم فلوسًا .

وبلغ كل قدح من بِذر الرجلة بالقاهرة إلي ستين درهمًا فلوسًا وسبعين ، والرطل الواحد من الكمثرى إلى بضعة وخمسين درهمًا ، والقنطار من الشريخشك[٧] إلى ثلاثين ألف درهم فلوسًا ، والقنطار من الترنجبين[٨] إلى خمسة عشر ألف درهم فلوسًا ، والزهرة الواحدة من

١ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٢ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٣ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٤ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٥ - ما بين المعقوفتين ساقط من « أ » و « جـ » وما أثبته من « ب » ، حيث ورد أن ثمن الرطل من هذا النوع من الكتان " بضعة عشر درهمًا فلوسًا " وليس عشرين كما هو مثبت .

٦ - ما بين المعقوفتين أثبته من نسخة « ب » ونسخة « جـ » .

٧ - الشيرخشك : نوع من المنّ أو البلسم ، ولعل المقصود به نوع من الأدوية أو الترياقات المستعملة فى تلك العصور ، انظر معجم فارهنك فارسى أمروز ، غلام حسين صدرى " الشيرخشك " .

٨ - الترنجبين : كلمة فارسية تعنى العسل الرطب ، أو مادة تجمع كالمن ، انظر معجم فارهنك فارسى أمروز ، غلام حسين صدرى " الترنجبين " .

النَّيْلوفر[١] إلى درهم فلوسًا ، والخيارة الواحدة إلى درهم [فلوسًا][٢] ونصف . وبيع الفروج الواحد بسبعة وثلاثين درهمًا فلوسًا ، وبيع فى تركة مَلُّوطتان[٣] غسيلتان من قطن بألفى درهم ومائتى درهم وأربعين [درهمًا][٤] فلوسًا . وبقية المبيعات بهذه النسبة . فمن نظر إلى أثمان المبيعات باعتبار [ص/٤٩] الفضة والذهب لا يجدها قد غلت[٥] إلا شيئًا يسيراً ، وأما باعتبا ما دهى الناس من كثرة الفلوس فأمر لا أشنع من ذكره ، ولا أفظع من هوله ، فسدت به الأمور ، واختلت به الأحوال ، وآل أمر الناس بسببه إلى العدم والزوال ، وأشرف من أجله الإقليم على الدمار والاضمحلال . ولكن { اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ }[٦].

---

١ – النَّيْلوفر : ضرب من الرياحين ، وهو لفظ أعجمى ، ينبت هذا النوع من الرياحين فى المياه الراكدة ، له أصل كالجزر ، وساق أملس يطول بحسب عمق الماء ، فإذا ساوى سطح الماء أورق وأزهر ، وإذا بلغ يسقط على رأسه ثمر داخله برز أسود، انظر معجم فارهنك فارسى أمروز ، غلام حسين صدرى " النيلوفر" .

٢ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « جـ » .

٣ – الملوطة : والجمع ملاليط وملوطات ، وهى كلمة يونانية الأصل ، وقد تسرّبت إلى اللغة العربية عن طريق اللغة القبطية ، وقيل : هى الجبة تلبس فوق القرجية ، أو قميص واسع الأكمام ، وكان من ملابس المماليك بمصر ، وكان يرتديها قنصوة الغورى حينما نودى به سلطانًا . انظر الملابس المملوكية ، ل . أ . ماير . ترجمة صالح الشيتى ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ ، ص ٤٥ .

٤ – ما بين المعقوفتين زيادة من « ب » .

٥ – فى نسخة « أ » : " قلت " ، وما أثبته من نسخة « ب »

٦ – سورة الحج الآية (١٨) .

الفصل السادس

فيما يُزِيل عن العباد هذا الداء

ويقوم لمرضى الزمان مقام الدواء

وإذ قد تقدّم من القول بيان الأسباب التى حصلت منها هذه المحن ، فبقى أن يتعرف من فتق الله ذهنه ، وأزال غشاء بصره ، كيف العمل فى إزالة ما بالناس من هذه البليات ، لتعود أحوالهم إلى مثل ما كانت عليه من قبل .

فنقول : اعْلم أرشدك الله إلى صلاح نفسك ، وألهمك مراشد أبناء جنسك ، أن النقود المعتبرة شرعًا وعقلاً وعادة إنما هى الذهب والفضة فقط ، وما عداهما لا يصلح أن يكون نقداً. وكذلك لا يستقيم أمر الناس إلا بحملهم على الأمر الطبيعى الشرعى فى ذلك ، وهو تعاملهم فى أثمان مبيعاتهم وأعواض قيم أعمالهم بالفضة والذهب لا غير ، وذلك يسير على من يسره الله له . وهو أن الفضة الخالصة – التى لم تضرب ولم تغش – سعر كل مائة درهم منها خمسة مثاقيل من الذهب ، وتحتاج بدار الضرب فى ثمن نحاس ، ومكس للسلطان ، وثمن حطب ، وأجرة صناع ونحو ذلك – بحكم سعر هذا الوقت – إلى ربع دينار ؛ فتصير بهذا العمل تزن مائة وخمسين درهمًا معاملة ، [عنها من الذهب كما مر آنفًا خمسة مثاقيل وربع مثقال][1]، فبحكم ذلك يكون صرف [2] كل مثقال من الذهب المختوم بأربعة وعشرين درهمًا من الفضة المعاملة . والمثقال من الذهب الآن يؤخذ فيه عن صرفه من النحاس الأحمر المضروب قطعًا والمسمى فلوسًا ثلاثة وعشرون رطلاً وثلث رطل ، حسابها بزعمهم مائة وأربعون درهمًا فلوسًا ، وهو صرف الدينار بالفلوس لعهدئذ [3].

---

١ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « جـ » ، وعبارة " من الذهب " ساقطة من نسخة « ب » .

٢ – فى نسخة « أ » : " ضرب " ، وما أثبته من نسخة « ب » .

٣ – فى نسخة « أ » : " لعهدته " ، أو " لعمدته " ، وما أثبته من نسخة « ب » .

فإذا وفّق الله تعالى مَنْ إليه أمر الرعية أن يأخذ [ذلك القدر] [١] فى ضرب الفضة المعاملة ، فإنه يؤول[٢] أمر الناس إن شاء الله تعالى إلى زوال هذا الفساد ، وعودهم إلى رجوع أسعار المبيعات وقيم الأعمال على ما كانت عليه قبل هذه المحن . فإنه تبين كما ذكر أن المثقال من الذهب يصرف [ص / ٥٠] بأربعة وعشرين درهمًا من الفضة المعاملة . ويؤخذ بالأربعة والعشرين درهمًا من الفضة ثلاثة وعشرون رطلاً وثلث رطل من الفلوس التى تعد فى كل درهم من الفضة المعاملة منها نحو مائة وأربعين فلسًا ، تصرف فى محقرات المبيعات ونفقات البيوت ، فيعظم النفع بها ، وتنحط الأسعار ، وعما قليل لا تكاد توجد لضرب الناس لها أوانى ، وفى ذلك من صلاح[٣] الأمور واتساع الأحوال ، ووفور النعم وزيادة الرَّفه ، ما لا حد له ، { وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ } [٤].

---

١ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٢ - فى نسخة « أ » : " لا يول " ، وما أثبته من نسخة « ب

٣ - فى نسخة « أ » : " مصالح " وما أثبته من نسخة « ب »

٤ - سورة النور الآية (١٩) .

الفصل السابع

فى بيان محاسن هذا التدبير

العائد نفعه على الجم الغفير

اعْلم ، جمّلك الله بالمناقب ، وصانك من شين المعايب ، أن من مَلَكته العوائد ، واسْترقَّته المألوفات ، قيّدته رعونات نفسه حتى وقف على ما عهد ، ولم يَتَراءَ إلى معرفة ما غاب عنه، ولا تصورَّ سوى ما أحسّ ، فإنه يقول : « لا فائدة فى إتعاب فكرك وإطالة كدك ، وتضريب رأى نفسك ، وتخطّيك فعل غيرك ، والحال بعد طول العناء أفضى إلي كون الذهب والفلوس على مثل ما كانا عليه سواء ، من غير تغيير شيء من حالهما ، بغير زيادة[1] فى سعرهما ولا نقصان منه البتة » .

فنقول : صدق الله العظيم [حيث][2] قال : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾[3]. فإنه لاشك [أن][4] فى ما ذكرنا فائدتين جليلتين : أحدهما رجوع أحوال العامة إلى مثل ما كانت عليه من قبل هذه المحن فى أمور الأسعار وأحوال المبيعات . والفائدة الثانية بقاء ما بأيدى الناس من الذهب والفلوس - اللذين هما النقد الرائج الآن - على ما هما عليه من غير زيادة ولا نقص مع رد الأحوال والرَّفه والرخص إلى ما كانت عليه أولاً قبل هذه المحن.

ولعمرى لا يجهل قدر هاتين[5] الفائدتين الجليلتين ، ويجحد[6] حق هاتين النعمتين العظيمتين ، من له أقل حظ من تمييز ، وأنزر نزر من شعور ، إلا مَنْ قصدَ أن يخون[7] عهد الله وأمانته فيما استرعاه من أمور عباده بإظهار الفساد وإهلاك العباد ، والله لا يهدى كيد الخائنين [8]. فأقول وبالله استعين فهو المعين :

---

١ - فى نسخة « أ » : " بزيادة " وما أثبته من نسخة « ب » .

٢ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٣ - سورة الزمر الآية (٩).

٤ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٥ - فى نسخة « أ » ونسخة « ب » ونسخة « جـ » : " هذين " وهو خطأ

٦ - فى نسخة « أ » : " يجهل " وما أثبته من نسخة « ب » .

٧ - فى نسخة « أ » : " يكون " وما أثبته من نسخة « ب » .

٨ - اقتباس من سورة يوسف الآية (٥٢) .

وما فاتنى نصركم باللسا ن إذا هو قد فاتنى باليـد

اعلَمْ ، وفقك الله إلى [ص/٥١] الإصغاء إلى الحق ، وألهمك نصيحة الخلق ، أنه قد تبيّن بما تقدم أن الحال فى فساد الأمور إنما هو سوء التدبير لا غلاء الأسعار . فلو وفق الله من أسند إليه أمر عباده حتى ردّ المعاملات إلى ما كانت عليه من قبل من المعاملة بالذهب خاصة ، ورد قيم السلع ، وعوض الأعمال كلها إلى الدينار ، أو إلى ما حدث بعد ذلك من المعاملة بالفضة المضروبة ، [ورد قيم الأعمال وأثمان المبيعات إلى الدرهم][1] ، لكان فى ذلك غياث الأمة وصلاح الأمور ، وتدارك هذا الفساد المؤذن بالدمار .

وبيان ذلك أن النقد إذا عاد إلى ما كان عليه أولاً ، وصار من يأتيه[2] مال من خراج أرض ، أو أجرة عقار ، أو معلوم سلطان ، أو من وقْفٍ أو قيمة عمل ، فإنما يتناول ذلك ذهبًا أو فضة بحسب ما يراه من يلى من أمور العامة ، فيصرف ذلك فيما عساه يحتاج إليه من مأكول [ومشروب][3] أو ملبوس أو غيره ، فعلى ما نزل بنا الآن من اختلاف الأحوال ، إذا عمل ذلك لا يجد من صار إليه شىء من النقدين على ما تقرر غبنًا[4] البتة ، لأن الأسعار حينئذ إذا نسبت إلى الدرهم أو الدينار لا يكاد يوجد فيها تفاوت عما كنا نعهد قبل هذه المحن البتة ، إلا أشياء معدودة سبب غلائها أحد أمرين : الأول فساد نظر من أسند إليه النظر فى ذلك ، وجهله بسياسة الأمور ، وهو الأكثر فى الغالب ، والثانى الجائحة[5] التى أصابت ذلك الشىء حتى قل ، كما حصل فى لحوم الأبقار بالموت الذريع الذى نزل بها فى سنة ثمان وثمانمائة [6] ، وما حصل فى السكر من قلة زراعة قصبه واعتصاره فى سنتى سبع وثمان [وثمانمائة][7] ، وهذا يسير بالنسبة إلى الأول .

---

١ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » وساقط من نسخة « أ » ، ونسخة « جـ » .

٢ – فى نسخة « أ » : " وصار من يأتيه من مال أو خراج أرض ... " وما أثبته من نسخة « ب » .

٣ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٤ – فى نسخة « أ » : " غيره " وفى نسخة « ب » : " غبن " .

٥ – فى نسخة « أ » : " الحاجة " وما أثبته من نسخة « ب » .

٦ – هذا دليل على أن هذا الكتاب الذى نحن بصدد تحقيقه كتب فى سنة ٨٠٨ هـ .

٧ – ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

ومع ذلك فلو وجد من أوتى توفيقًا وألهم رشداً ، لكان الحال غير ما عليه الآن بخلاف الحال فى هذه المحن ، فإن المال الواصل إلى كل أحد من خراج أو غيره ، إنما هو فلوس منسوبة إلى الأرطال كما تقدم . والذهب والفضة وسائر المبيعات كلها من مأكول وملبوس أو غيره نعم، وخراج الأرضين إنما ينسب إلى الفلوس ، فيقال كل دينار بكذا وكذا درهم من الفلوس ، والفضة كل درهم منها بكذا وكذا درهم [ص/٥٢] من الفلوس ، والثياب والسلع كلها ، والخراج فى الإقليم كله ، كل كذا من كذا بكذا وكذا درهم من الفلوس .

وبالضرورة يدرى كل ذى حسّ ، وإن بلغ فى الجهل الغاية من الغباوة ، أن المال إنما يؤخذ غالبًا عن خراج الأراضى ، أو أثمان المبيعات أو قيم الأعمال ، أو من وجوه البر والصلات ، وأنه لابد وأن يصرف فى الأمور الحاجية وسائر الأغراض البشرية ، إما على وجه الاقتصاد[١]، أو فى سبيل السرف والتبذير . فإذا صار إلى أحد مبلغ ما من هذه الفلوس ، وأنفقه فى سبيل من سبل أغراضه ، فإنه يجد من الغبن[٢] ما لا غاية وراءه .

وبيان ذلك أن السلطان إذا وصل إلى ديوانه ستون ألف درهم من الفلوس ، فإنما يقبض منها متولى ذلك الديوان مائة قنطار من الفلوس ، أو ذهبًا بحسابه . فإن كان مثلاً إنما وردت إلى ديوان الوزارة ، فإن الوزير ، لما يحتاج إليه من اللحوم السلطانية ، يشترى بهذه الستين ألف درهم التى وزنها مائة قنطار من الفلوس ، وعنها من الذهب [بحسابه] [٣]، ما زنته من اللحم ستة وستون قنطاراً وثلث قنطار ، حسابًا عن كل قنطار سبعمائة درهم . وقبل هذه المحن كان يشترى بالستين ألف درهم ألف قنطار وخمسمائة قنطار من اللحم ، حسابًا عن كل قنطار أربعين درهمًا . وفرق عظيم ، وغبن فاحش ، ما بين الأول والثانى .

واعتبر ذلك فى سائر الأموال السلطانية ووجوه مصارفها ، وتنزل إلى أموال الأمراء ، ثم إلى من دونهم من رؤساء الدولة ، كالوزراء والقضاة وأعيان الكُتَّاب ومياسير التجار وغيرهم، فإنك تجد مثلاً الواحد من أهل الطبقة الوسطى إذا كان معلومه فى الشهر ثلاثمائة درهم ،

---

١ - فى نسخة « أ » : " الافساد " وما أثبته من نسخة « ب » .

٢ - الغَبْنُ : الوكْسُ فى البيع والشراء . لسان العرب لابن منظور " غ . ب . ن "

٣ - ما بين المعقوفتين زيادة يقتضيها السياق .

حسابًا عن كل يوم عشرة دراهم فإنه كان قبل هذه المحن إذا أراد النفقة على[1] عياله يشترى لهم من هذه العشرة دراهم [الفضة][2] مثلاً ثلاثة أرطال لحم من لحوم الضأن بدرهمين ، ولتوابلها مثلاً درهمين ، ويقضى غداء ولده وأهله ومن عساه يخدمه بأربعة دراهم . واليوم إنما تصير إليه العشرة فلوسًا زنتها عشرون أوقية ، فإذا أراد أن [ص/٥٣] يشترى ثلاثة أرطال لحم فإنما يأخذها بسبعة وعشرين درهمًا فلوسًا ، ويصرف فى توابلها وما يصلح شأنها على الحالة الوسطى عشرة دراهم ، فلا يتأتى له غداء ولده وعيالاته إلا بسبعة وثلاثين درهمًا فلوسًا . وأنىَّ يستطيع من متحصله عشرة أن ينفق سبعة وثلاثين فى غداء واحد ؟ سوى ما يحتاج إليه من زيت وماء وأجرة مسكن ومؤونة دابة وكسوة ، وغير ذلك [مما يطول سرده ويكفى فيه تساوى العالم من الحضارين بمعرفته][3].

فهذا هو سبب زوال النعم التى كانت بمصر وتلاشى الأحوال بها ، وذهاب الرفه ، وظهور الحاجة والمكسنة على الجمهور : { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ } [4].

فلو وفق الله تعالى من أسند إليه أمور العباد إلى رد النقود على ما كانت عليه أولاً ، لكان صاحب هذه العشرة دراهم إذا قبضها فضة رآها على حكم أسعار وقتنا هذا تكفيه وتفضل عنه . فإن الغذاء الذى قلنا أن قيمته الآن سبعة وثلاثون درهمًا من الفلوس ، يدفع فيه الآن ستة دراهم وسدس درهم من الفضة المعاملة ، حسابًا عن كل درهم من الفضة خمسة دراهم من الفلوس ، التى زنتها عشرة أواق . فإذن ليس بالناس غلاء ، إنما نزل بهم سوء التدبير من الحكام ، ليذهب الله غناء الخلق ويبتليهم بالقلة والذلة ، جزاءً بما كسبت أيديهم وليذيقهم بعض الذى عملوا ولعلهم يرجعون [5].

---

١ - فى نسخة « أ » : " إلى " وما أثبته من نسخة « ب » .

٢ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٣ - ما بين المعقوفتين زيادة من نسخة « ب » .

٤ - سورة الأنعام الآية (١١٢) .

٥ - اقتباس من سورة الروم الآية (٤١) .

وهذان المثالان فيهما كفاية لمن أزال الله الطمع[١] عن قلبه ، وهداه إلى إغاثة العباد وعمارة البلاد ولله الأمر من قبل ومن بعد [٢].

قال المؤلف رحمه الله تعالى : تيّسر لى ترتيب هذه المقالة وتهذيبها فى ليلة واحدة من ليالى المحرم سنة ثمان وثمانمائة . والله يهدى من يشاء ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على من لا نبىّ بعده .

ووافق الفراغ من تسويدها فى اليوم التاسع عشر من شعبان المكرم سنة ١١٠١هـ ، على يد أفقر العباد محمد الشهير بالقطرى ، أمام جامع الوزير وخطيبه ، ببندر جدّة المحروس .

---

١ - فى نسخة « أ » : [illegible] الطبع " وما أثبته من نسخة « ب » .

٢ - اقتباس من سورة الروم الآية (٤) .

الفهارس العامة



١ - فهرس الآيات القرآنية

٢ - فهرس الأحاديث النبوية

٣ - فهرس الأعلام

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاى

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

٤ - فهرس الأماكن والبلدان

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاى

حرف السين

حرف الشين

حرف الطاء

حرف العين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

٥ - فهرس الأوزان والمكاييل

حرف الألف

حرف الدال

حرف الراء

حرف الصاد

حرف القاف

حرف الميم

حرف النون

حرف الواو

٦ – فهرس النقود

حرف الدال

حرف الفاء

٧ - فهرس المحاصيل

حرف الألف

حرف الباء

حرف الحاء

حرف الزاى

حرف السين

حرف الشين

حرف العين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

٨ - فهرس الكتب المستخدمة في الدراسة والتحقيق

١ - القرآن الكريم .

٢ - اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا :
أحمد بن على المقريزى ت ٨٤٥هـ ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ومحمد حلمى محمد طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٢م.

٣ - الأحكام السلطانية والولايات الدينية :
على بن محمد الماوردى ت ٤٥٠ هـ ، طبعة الوطن - القاهرة سنة ١٢٩٨هـ .

٤ - الاستيعاب بهامش الإصابة :
ابن عبد البر يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبى ت ٤٦٣هـ ، طبعة دار الغد العربى - القاهرة بدون تاريخ .

٥ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة :
ابن الأثير على بن محمد بن عبد الكريم ت ٦٣٠هـ ، طبعة دار إحياء التراث العربى - بيروت بدون تاريخ .

٦ - الأعلام :
خير الدين الزركلى ت ١٣٩٧هـ ، الطبعة الثالثة - بيروت - لبنان ١٩٨٩م.

٧ - الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ :
محمد بن عبد الرحمن السخاوى ت ٩٠٢هـ ، إشراف صالح أحمد العلى . دار الكتب العلمية - بيروت بدون تاريخ .

٨ - أنبا الهصر فى أبناء العصر :
على بن أدهم بن إبراهيم الصيرفى ت ٩٠٠هـ ، تحقيق حسن حبشى - دار الفكر العربى - مصر ١٩٧٠م.

٩ - بدائع الزهور فى وقائع الدهور :
ابن إياس محمد بن أحمد ت ٩٣٠ هـ ، تحقيق محمد مصطفى . طبعة القاهرة بدون تاريخ .

١٠ - البداية والنهاية :

إسماعيل بن كثير ت ٧٧٤هـ ، تحقيق أحمد أبو ملحم وعلى نجيب عطوى وفؤاد السيد ومهدى ناصر وعلى عبد الستار - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٥م.

١١ - تاريخ آداب اللغة العربية :

جرجى زيدان ، طبعة دار الهلال - القاهرة ١٩٥٨م.

١٢ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام :

شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ت ٧٤٨هـ ، طبعة دار الغد العربى - القاهرة ١٩٩٦م.

١٣ - تاريخ بغداد :

أحمد بن على الخطيب البغدادى ت ٤٦٣ هـ طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان بدون تاريخ .

١٤ - تاريخ الخلفاء :

عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ت ٩١١ هـ ، طبعة دار التراث - بيروت ١٩٦٩م.

١٥ - التاريخ العربى والمؤرخون :

شاكر مصطفى ، طبعة دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٩٠م.

١٦ - تاريخ الطبرى المسمى تاريخ الرسل والملوك :

محمد بن جرير الطبرى ت ٣١٠ هـ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . الطبعة الرابعة - دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧م.

١٧ - التاريخ الكبير :

محمد بن إسماعيل البخارى ت ٢٥٦هـ . طبعة مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت ١٩٨٦م.

١٨ - تاريخ اليعقوبى :

أحمد بن جعفر بن وهب اليعقوبى ت ٢٨٢ هـ ، طبعة دار صادر - بيروت ١٩٦٠م.

١٩ - التبر المسبوك فى ذيل السلوك :

محمد بن عبد الرحمن السخاوى ت ٩٠٢هـ طبعة مكتبة الكليات الأزهرية - مصر بدون تاريخ .

٢٠ - تهذيب الأسماء واللغات :

يحيى بن شرف النووى ت ٦٧٦ هـ . طبعة إدارة الطباعة بالمنيرة ، القاهرة بدون تاريخ .

٢١ - تهذيب التهذيب :

أحمد بن على بن حجر العسقلانى ت ٨٥٢ هـ . طبعة دار صادر بيروت ١٣٢٦ هـ ، وطبعة دار الفكر ١٤٠٤هـ .

٢٢ - جمهرة أنساب العرب :

على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسى ت ٤٥٦هـ ، تحقيق عبد السلام هارون . الطبعة الخامسة - دار المعارف - القاهرة ١٩٨٢م.

٢٣ - جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور :

ابن وصيف شاه ، تحقيق محمد زينهم . طبعة الدار الثقافية للنشر - القاهرة ٢٠٠٤م.

٢٤ - حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة :

جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ت ٩١١هـ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابى الحلبى - مصر ١٩٦٧/ ١٩٦٨م .

٢٥ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء :

أبو نعيم بن عبد الله الأصبهانى ت ٤٣٠ هـ ، طبعة دار الريان - القاهرة ، الطبعة الخامسة سنة ١٩٨٧م.

٢٦ - الخطط المقريزية :

أحمد بن على المقريزى ت ٨٤٥هـ ، طبعة القاهرة ١٣٢٥هـ ، وطبعة مكتبة العرفان - بيروت بدون تاريخ .

٢٧ - دول الإسلام :

شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ت ٧٤٨هـ ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م.

٢٨ - الذيل على الروضتين :

أبو شامة المقدسى عبد الرحمن بن إسماعيل ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٤م.

٢٩ - رحلة ابن بطوطة :

أبو عبد الله اللواتى المعروف بابن بطوطة ، طبعة دار صادر - بيروت بدون تاريخ .

٣٠ - الرسالة المستطرفة :

محمد بن جعفر الكتانى ت ١٣٤٥هـ ، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة بدون تاريخ .

٣١ - روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات :

محمد باقر الموسوى الخوانسارى ت ١٣١٣هـ ، تحقيق أسد الله إسماعيليان، طبعة طهران - إيران ١٣٩٢هـ .

٣٢ - السلوك لمعرفة دول الملوك :

أحمد بن على المقريزى ٨٤٥هـ ، تحقيق محمد مصطفي زيادة ، وسعيد عبدالفتاح عاشور ، طبعة القاهرة ١٩٣٤ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٢م.

٣٣ - سير أعلام النبلاء :

شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ت ٧٤٨ هـ .

٣٤ - سير السلف الصالحين :

إسماعيل بن محمد التيمى الأصبهانى ت ٥٣٥ هـ ، تحقيق كرم حلمى فرحات ، طبعة دار الراية - السعودية ١٩٩٩م.

٣٥ - شذرات الذهب :

ابن العماد الحنبلى ت ١٠٨٩هـ ، طبعة المكتب االتجارى ، بيروت بدون تاريخ .

٣٦ - شذور العقود فى ذكر النقود :

أحمد بن على المقريزى ٨٤٥هـ ، بعناية روستوك - ألمانيا ، طبعة Libratia Stilleriana عام ١٧٩٨م.

٣٧ - صبح الأعشى :

أبو العباس أحمد بن على القلشقندى ت ٨٢١ هـ ، طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة ١٣٢٧هـ .

٣٨ - صفة الصفوة :

أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى ت ٥٩٧ هـ ، تحقيق محمود فاخورى . طبعة القاهرة ١٣٨٩هـ .

٣٩ - الضوء اللامع فى علماء القرن التاسع :

أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوى ت ٩٠٢هـ . طبعة مصر ١٩٣٦م.

٤٠ - طبقات خليفة بن خياط :

أبو عمر خليفة بن خياط العصفوى ت ٢٤٠ هـ ، تحقيق أكرم ضياء العمرى، طبعة دار طيبة - الرياض - السعودية . الطبعة الثانية ١٩٨٢م.

٤١ - الطبقات الكبرى :

محمد بن سعد كاتب الواقدى ت ٢٣٠ هـ ، تحقيق إداورد ساخا ترجمة عونى عبد الرؤوف - طبعة دار التحرير - القاهرة ١٩٦٨م.

٤٢ - العبر فى خبر من غبر :

محمد بن أحمد الذهبى ت ٧٤٨ هـ ، تحقيق محمد السعيد بسيونى . طبعة دار الكتب العلمية - بيروت . لبنان ١٩٨٥م.

٤٣ - العصر المماليكى فى مصر والشام :

سعيد عبد الفتاح عاشور ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثالثة - القاهرة ١٩٩٣م.

٤٤ - فنون الإسلام :

زكى محمد حسن ، طبعة القاهرة ١٩٤٨م.

٤٥ - فوات الوفيات :

ابن شاكر الكتبى ت ٧٦٤هـ ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، طبعة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٥١م.

٤٦ - القاموس الإسلامى القويم :

إبراهيم أحمد عبد الفتاح ، طبعة مجمع البحوث الإسلامية - الأزهر - القاهرة ١٩٨٣م.

٤٧ - قوانين الدواوين :

ابن مماتى ، الأسعد شرف الدين أبو المكارم بن أبى سعيد . طبعة مطبعة إدارة الوطن - القاهرة ١٢٩٩ هـ .

٤٨ - الكامل فى التاريخ :

ابن الأثير الجزرى على بن أبى الكرم محمد بن محمد الشيبانى ت ٦٣٠ هـ طبعة بيروت ، مكتبة الكتاب العربى ١٩٦٧م.

٤٩ - كتاب البدء والتأريخ :

المطهر بن طاهر المقدسى ، طبع فى مدينة شالون بمطبعة برطوند سنة ١٨٩٩م.

٥٠ - لسان العرب :

محمد بن مكرم بن منظور ت ٧١١ هـ ، طبعة دار المعارف - القاهرة ١٩٨١م.

٥١- مجالس السلطان الغورى :

عبد الوهاب عزام ، طبعة القاهرة ١٩٤٨م.

٥٢ - مختار الصّحاح :

محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى ، عنى بترتيبه محمود خاطر ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م.

٥٣ - مروج الذهب ومعادن الجوهر :

على بن الحسين بن على المسعودى ت ٣٤٦ هـ شرح وتقديم مفيد محمد قميحة ، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٩٨٦م.

٥٤ - مصر فى عهد الإخشيد :

سيد إسماعيل الكاشف . طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩م.

٥٥ - المعارف :

عبد الله بن مسلم بن قتيبة ت ٢٧٦ هـ ، تحقيق ثروت عكاشة ، طبعة دار المعارف ، الطبعة الرابعة - القاهرة ١٩٨١م.

٥٦ - معجم الألفاظ التاريخية :

محمد أحمد دهمان ، طبعة دار الفكر - دمشق ١٩٩٠م.

٥٧ - معجم البلدان :

أبو عبد الله ياقوت الحموى ت ٦٢٦ هـ ، طبعة دار صادر - بيروت بدون تاريخ .

٥٨ - المعجم الشامل للتراث العربى المطبوع :

محمد عيسى صالحية ، طبعة معهد المخطوطات العربية - القاهرة ١٩٩٥م.

٥٩ - معجم فارهنك فارسى أمروز :

غلام حسين صدرى أفشار ، الطبعة الثانية ، إيران ١٣٧٥ هـ .

٦٠ - معجم المؤلفين :

عمر رضا كحالة ، طبعة مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٩٣م.

٦١ - معجم المصطلحات والألقاب التاريخية :

مصطفى عبد الكريم الخطيب ، طبعة مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٦م.

٦٢ - معجم الوافى معجم وسيط للغة العربية :

عبد الله البستانى ، طبعة مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٨٠م.

٦٣ - مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب :

ابن واصل الحموى ، تحقيق جمال الدين الشيال . طبعة القاهرة ١٩٥٣م.

٦٤ - الملابس المملوكية :

ل . أ . مايز ، ترجمة صالح الشيتى ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م.

٦٥ - المماليك المصريون الذين لمعوا فى ميدان الفكر :

محمد محمد محمود ، رسالة دكتوراه - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة ، قسم التاريخ والحضارة للعام ١٩٧٩م.

٦٦ - المنهل الصافى :

ابن تغرى بردى أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين ٨٧٤هـ ، طبعة القاهرة ١٩٥٦م.

٦٧ - مؤرخو مصر الإسلامية :

محمد عبد الله عنان ، طبعة مؤسسة مختار - القاهرة ١٩٩١م.

٦٨ - النجوم الزاهرة :

ابن تغرى بردى أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين ٨٧٤هـ ، طبعة القاهرة ١٩٣٢م.

٦٩ - نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان :

ابن الصيرفى الجوهرى على بن داود بن إبراهيم ت ٩٠٠ هـ ، تحقيق حسن حبشى ، مطبعة دار الكتب - مصر ١٩٧١م.

٧٠ - نسب قريش :

المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيرى ت ٢٣٦ هـ عناية وتصحيح : إ . ليفى بروفنسال. طبعة دار المعارف - القاهرة١٩٨٢م.

٧١ - النقود الإسلامية :

طاهر راغب حسين ، طبعة خاصة بكلية دار العلوم - القاهرة ١٩٨٤م.

٧٢ - نهاية الأرب فى فنون الأدب :

أحمد بن عبد الوهاب النويرى ت ٧٣٣ هـ ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة بدون تاريخ .

٧٣ - الوزراء والكتاب :

أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى ت ٣٣١ هـ ، تحقيق مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبيارى ، وعبد الحفيظ شلبى . الطبعة الثانية ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى - القاهرة ١٩٨٠م.

٧٤ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :

شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان ت ٦٨١ هـ تحقيق إحسان عباس . طبعة دار صادر - بيروت ١٩٧٧م.

٧٥ - ولاة مصر :

محمد بن يوسف الكندى ، تحقيق حسين نصار ، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠١م.

المراجع الأجنبية :

72 - Hobson (R.L.) :

A guide to The Islamic pottery of the Near East. (London, 1944) .

73 - Ibrahim Salami :

L'Emseignement Islamique en Egypte. (Le Caire, 1939).

74 - Wiet :

L'Egypt Arabe. (Paris, 1920) .

75 - Wiet :

Lampes et Bouteilles en verru emaille catalogue du Musee Arabe du Cairo. (Le Cairo, 1929).

76 - Wiet :

Objets en Cuivres : Catalogue General du Muree Arabe du Cairo. (Le Cairo, 1932) .

٩ – فهرس الموضوعات

رقم الايداع ٢٢٦٥٨ / ٢٠٠٦

الترقيم الدولى L.S.B.N. 977- 322- 203- 9

مطبعة صحوه

٧ شارع اسماعيل رمضان – الكروم الأخضر– فيصل

تليفون وفاكس / ٣٨٧١٦٩٣ – ٠١٠١٠٠٩٦٧٨